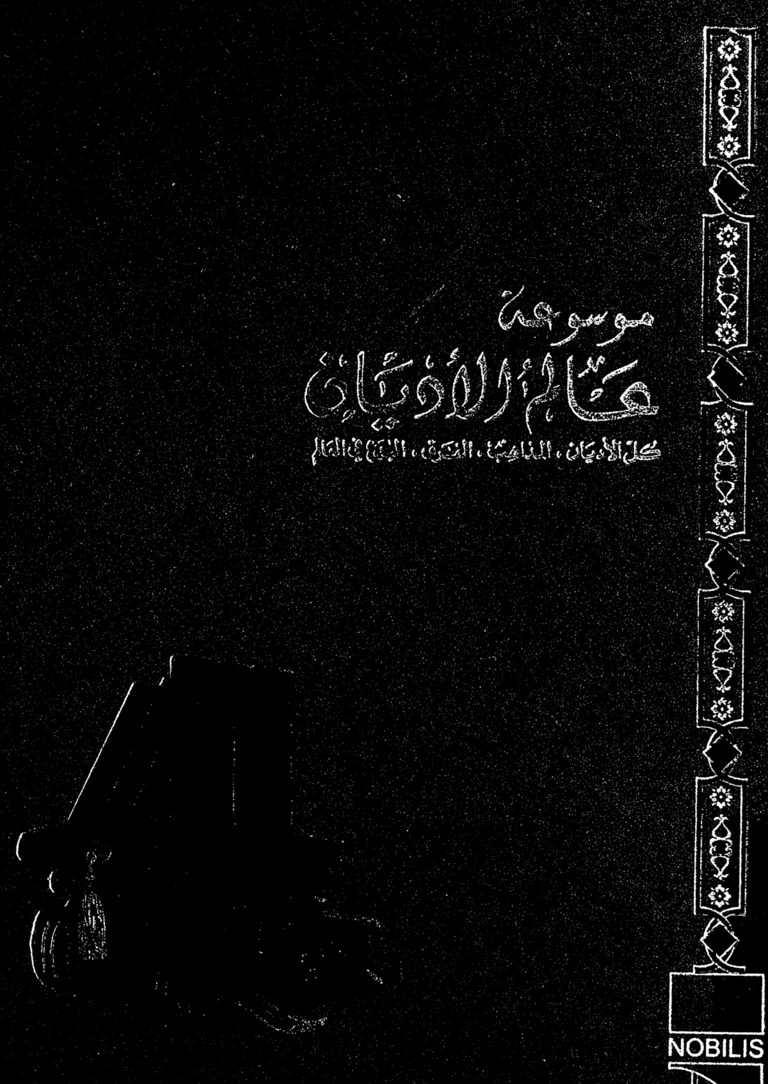

موسوعة
عالم الأديان
كل الأديان . المذاهب . الفرق . البدع في العالم
NOBILIS





موسوعة عالم الأديان

كلّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

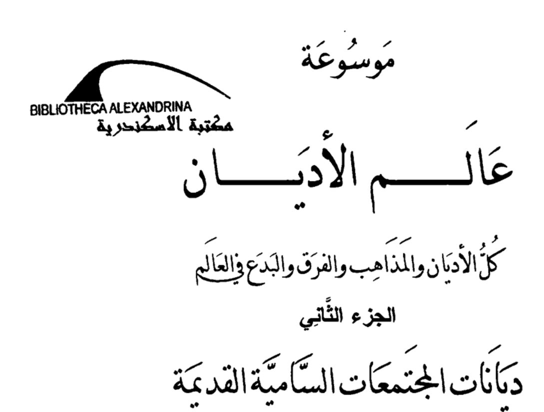
دیانات المجتمعات السامية القديمة

مجموعة مِن كبَار البَاحِثين

بإشراف

ط. ب. مفرِّج

مَوسُوعَة

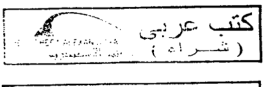


عَالَم الأديَان

كُلُّ الأديَان والمَذَاهِب والفرَق والبَدَع في العَالَم

الجزء الثَّانِي

ديَانَات المجتَمعَات السَّاميَّة القديمَة



NOBILIS

طبعة أولى ـ ٢٠٠٤

طبعة ثانية ـ ٢٠٠٥

إسم المَجموعَة	:	موسوعَـــة عَالَــــم الأديَـــان كُلُّ الأديَان والمَذاهِب والفرَق والبَدَع في العَالم
إسم الكِتَاب	:	ديَانَات المجتَمعَات السَّاميَّة القديمَة
الجِزء	:	الثَّانِي
المؤلَّف	:	مجموعَة من كبار الباحِثين بإشراف ط. ب. مفرِّج
قياس الكتَاب	:	٢٠ × ٢٨
مَكَان النَّشر	:	بيروت
دَار النَّشر والتَّوزيع	:	NOBILIS
تلفاكس	:	٩٦١ ـ ١ ـ ٥٨١١٢١
	:	٩٦١ ـ ٣ ـ ٥٨١١٢١

المحتَويات

الفَصلُ الأوَّل

الشعوبُ السَّاميَّة القَديمَة

الفَصلُ الثَّاني

الديَانةُ السومريَّة

الفَصلُ الثَّالِث

المؤسَسَة الدِّينيَّة السُومَريَّة

الفَصلُ الرَّابع

الشَّعَائر الدِّينيَّة السُومَريَّة

الفَصلُ الخَامِس

ديانات الأمُوريِّين والكَنعانيِّين - الفينيقيِّين

الفَصلُ السَّادِس

دِيَانَةُ الآرَامِيِّين

الفَصلُ الأوَّل

الشعوبُ السَّاميَّة القَديمَة

مَن هُم السَّاميُّون؛ مَهـــدُ السَّامِيِّين؛

عامِـل الأصل السكَّانيّ؛ السُّومريُّون؛ الأموريُّون؛

الكَنعَانيُون ـ الفِينيقيُّون؛ الآراميُّون؛ العبرانيُّون.



مَن هُـم السّاميُّون

إشتقّ إسم السّاميّين من سام بن نوح، على أساس أنّ الساميّين كانوا متسلسلين من الإبن الأكبر لنوح. غير أنّ هذه التسمية، من وجهة علميّة، هي تسمية لغويّة، تُطلق على الذين يتكلّمون أو تكلّموا لغة ساميّة. واللغات الساميّة، كما هو معترف بها اليوم، هي مجموعة لغويّة خاصّة تضمّ الأشوريّة البابليّة أي الأكاديّة، والكنعانيّة الفينيقيّة، والآراميّة السريانيّة، والعبريّة، والعربيّة، والحبشيّة. وتبدو في لغات هذه المجموعة نواح من التشابه تستلفت النظر، وتختلف عن المجموعات اللغويّة الأخرى، وأقربها إليها المجموعة الحاميّة. وأهمّ نواحي التشابه ضمن هذه المجموعة اللغويّة هي: وجود فعل ثلاثيّ كمصدر أساسيّ، ووجود زمنَين للفعل هما الماضي والمضارع، وتصريف الفعل يتبع نفس الأسلوب. وفي جميع لغات المجموعة الساميّة نجد تشابهًا بين الكلمات الأساسيّة كالضمائر الشخصيّة، والأسماء التي تدلّ على القرابة، والأعداد وأعضاء الجسم الرئيسيّة. هذه القرابة اللغويّة بين الشعوب التي تتكلّم اللغات الساميّة هي أهمّ رابطة تبرّر ضمّها تحت إسم واحد، ولكنّها ليست الرابطة الوحيدة. فإذا ما قارنّا مؤسّساتهم الإجتماعيّة وعقائدهم الدينيّة وصفاتهم النفسيّة وأوصافهم الطبيعيّة، اتّضحت لنا نواح هامّة للتشابه. وعندئذ لا بدّ من الاستنتاج بأنّ بعض أسلاف الذين تكلّموا البابليّة والأشوريّة والأموريّة والكنعانيّة والعبريّة والآراميّة والسريانيّة والعربيّة والحبشيّة، كانوا غالبًا يشكّلون جماعة واحدة قبل أن تحصل بينهم الاختلافات. وأنّ هذه الجماعات كانت تتكلّم اللغة نفسها وتعيش في المكان نفسه. وإذا ما تساءلنا عن الوطن

الأصليّ لهذه الجماعة، فإنّ النظريّة المحتملة أكثر من غيرها تجعل ذلك الموطن الجزيرة العربيّة[1].

مَهدُ السَّاميِّين

أجمع العلماء على أنّ شبه الجزيرة العربيّة هي مهد الحضارات الساميّة ووطن الساميّين الأوائل، رغم بعض الآراء المغايرة لذلك. وفي هذه الجزيرة نشأت الحضارة البشريّة أوّل مرّة في تاريخ الإنسان. وقد قامت على حضارتها كلّ الحضارات القديمة في العالم وهو اختراع الزراعة، ومن الثابت أيضًا، أنّ سكّان شبه الجزيرة العربيّة هم الذين نقلوا هذه الحضارة إلى العالم بأسره إثر هجراتهم المتتالية إلى الهلال الخصيب قبل آلاف السنين في أعقاب الدورة الجليديّة الرابعة والأخيرة التي دامت ١٠٠ ألف سنة، والتي انتهت في حدود خمسة عشر ألف سنة قبل الميلاد، بعد الجفاف الذي حلّ بالبلاد في الحقبة الدافئة التي يجتازها العالم اليوم[2].

إنّ الحجّة الجغرافيّة بالنسبة لاعتبار أنّ شبه جزيرة العرب هي مهد الشعوب الساميّة، تقوم على أنّ تلك البلاد التي غدت صحراويّة، يحيط بها البحر من ثلاث جهات، ولذلك فإنّه عندما يزيد السكّان عن قدرة الأرض المأهولة الضيّقة لإعاشتهم، فإنّهم يميلون إلى البحث عن مجال حيويّ متيسّر فقط في الأراضي الشماليّة الخصبة التي تجاورهم. ويؤدّي ذلك إلى الحجّة الاقتصاديّة التي تقول إنّ أهل الجزيرة الرحّل

---

١ ـ حتّي د. فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، دار الثقافة (بيروت،١٩٥٨) ١: ٦٦ ـ ٦٧.

٢ ـ ناصر الدين أديب، الينابيع في المسيحيّة والإسلام، دار النضال (بيروت،١٩٩٤) ص٢٣؛ سوسة د. أحمد، حضارة وادي الرافدين، ١: ٥٠٧.

كانوا دومًا يعيشون على ما يقارب من الجوع، وأنّ الهلال الخصيب، أو سوريا المجوّفة كما سُمّيت في ما بعد، أو شرقي البحر الأبيض المتوسّط، كان أقرب مكان يزوّدهم بما يحتاجون إليه. وقد اتّجهت في حوالى ٣٥٠٠ قبل الميلاد هجرة ساميّة من شبه الجزيرة العربيّة نحو الشمال الشرقيّ، ووزّعت أفرادها الرحّل بين السكّان السومريّين في بلاد الرافدَين الذين كانوا مستقرّين وعلى جانب رفيع من الحضارة، وبذلك شكّلت الأكاديّين الذين عرفهم التاريخ، وسُمّوا في ما بعد بالبابليّين. وعندما تزاوج الساميّون مع غير الساميّين الذين كانوا قبلهم، واختلطوا بهم في منطقة الدجلة والفرات، فإنّهم اكتسبوا منهم معرفة البناء والمعيشة والبيوت وزراعة الأرض وريّها، بل اكتسبوا ما هو أهمّ من ذلك، وهو القراءة والكتابة. وسادت اللغة الساميّة التي حملوها معهم وأصبحت الواسطة التي عبّرت بها حضارة الفرات عن نفسها خلال أجيال عديدة.

وبعد الهجرة الأولى بنحو ألف سنة، حصلت هجرة أخرى من البادية وأتت بالأموريّين ووزّعتهم في سهول سورية الشماليّة، وشملت هذه الهجرة الشعب الذي احتلّ في ما بعد السهل الساحليّ وسمّى نفسه بالكنعانيّين، وأطلق عليهم اليونان الذين تاجروا معهم إسم الفينيقيّين. وبين ١٥٠٠ و١٢٠٠ قبل الميلاد، خرجت جماعات أخرى من بلاد العرب، فدخل الآراميّون سورية المجوّفة ومنطقة دمشق وانتشر العبرانيّون في القسم الجنوبيّ من البلاد. وحوالى ٥٠٠ قبل الميلاد، أدّت هجرة جديدة من بلاد العرب إلى استقرار الأنباط في شمال شرقي جزيرة سيناء، حيث كانت عاصمتهم البتراء، وبلغت درجة رفيعة مدهشة من الحضارة في ظلّ الرومان. وكان آخر اندفاع من شبه جزيرة العرب على مقياس واسع، ذلك الذي حصل في القرن السابع للميلاد تحت راية الإسلام، وانتشر هذا السيل، ليس في سورية فحسب، وإنّما

في سائر مناطق الهلال الخصيب، وكذلك في مصر وشمالي أفريقيا وفارس وحتّى في إسبانيا وبعض أجزاء أسيا الوسطى. وهذه الهجرة الأخيرة هي الحجّة التاريخيّة التي يتقدّم بها أصحاب النظريّة التي تجعل من شبه جزيرة العرب، الموطن الأصليّ للساميّين. ويضيفون إلى ذلك حجّة لغويّة مؤدّاها أنّ اللغة العربيّة قد احتفظت في نواح كثيرة بأشدّ تشابه باللغة الساميّة الأمّ التي كانت جميع اللغات الساميّة لهجتها، وكذلك حجّة بسيكولوجيّة خلاصتها أنّ سكّان شبه جزيرة العرب، وخاصّة سكّان البادية، قد احتفظوا بأنقى الصفات الساميّة[1].

عامِـــــــل

الأصل السكّانيّ

أثبت الباحثون على مختلف آرائهم وتناقضاتهم أنّ سكّان المنطقة العربيّة ينتسبون إلى أصل واحد سُمّي الأصل الساميّ، وأنّ الأصل الواحد هذا كان أحد العوامل التي سهّلت التعاطي الإيجابيّ والتخاطب الموحّد، الأمر الذي شجّع على سرعة الاستفادة والانتقال السريع للمنجزات بين المناطق التي تسكنها الشعوب المتقاربة، فأتت العوامل المختلفة، وفي مقدّمتها عامل الأصل السكّانيّ، لتقيم نموذجًا ناضجًا للتجربة الحضاريّة المبكّرة، خاصّة على عامل إمكانيّة التفاعل وتبادل التأثير في تلك العصور القديمة على قاعدة الساحة البشريّة المتجانسة في الإطار الجغرافيّ والمناخيّ الواحد. فإنّ الأبحاث الأكاديميّة التي تتضخّم يومًا بعد يوم، والعائدة إلى كتّاب التاريخ، مع تزايد الأعمال الأركيولوجيّة والاكتشافات الأثريّة وترجمتها، تتّفق جميعها على القول إنّ مجموعة الشعوب الساميّة هي شعوب متجانسة تلتقي حول نقطة أساسيّة هي أنّها شعوب ترتبط

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١: ٦٧ ـ ٦٩.

بروابط القربى، يعزوها عوامل العيش المشترك واللغة والمناخ والبيئة والجغرافيا، وأنّها شعوب نزحت من شبه الجزيرة العربيّة حتّى غمرت منطقة الشرق الأوسط بدءًا من الألف العاشر قبل الميلاد.... هذه العوامل وفي رأسها اللغة والمصالح المشتركة والجغرافيا، كانت الأساس في عمليّة تناقل وتلاقح مريح أنتج ثقافة وحضارة واحدة. فالأكاديّون في الألف الرابع قبل الميلاد، والكنعانيّون ومن ضمنهم الأموريّون والفينيقيّون في الألفَين الثالث والثاني قبل الميلاد، والآراميّون في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد، والأنباط والقبائل العربيّة الأخرى في القرن الثاني قبل الميلاد وصولاً إلى القرن السادس ميلاديّ، والعرب الذين انتقلوا مع الإسلام في النصف الأوّل من القرن السابع للميلاد، شكّلوا الوحدة الحضاريّة المتجانسة، كما شكّلوا القاعدة البشريّة لقيام المجتمع العربيّ. وتأتي سرعة وسهولة الانتقال الثقافيّ، بالمعنى الواسع للكلمة، بين الأكاديّين والبابليّين والمصريّين والآراميّين في بلاد الشام، لتدعم نظريّة الأصل الواحد[1].

السُّومريُّون

جاء عن السومريّين أنّهم شعب قديم، ظهرت حضارته في منطقة جنوب العراق، أي في بلاد ما بين النهرَين، منذ الألف الخامس قبل الميلاد. ففي فجر التاريخ احتلّ المنطقة قوم يتكلّمون الساميّة، عرفهم التاريخ باسم السومريّين، وما زال أصلهم غير معروف على وجه الدقّة. وقد يكونون فاتحين، جاؤوا من أواسط آسيا أو الهند قبل التاريخ المسجّل بزمن طويل. وقد وُجدت حضارة السومريّين منذ ٣٥٠٠

١ ـ ناصر الدين، الينابيع في المسيحيّة والإسلام، ص٢٢ ـ ٢٣.

قبل الميلاد، وربّما يرجع تاريخها إلى الألف الخامس قبل الميلاد، وكانت حضارة زراعيّة[1].

فيما ذكرت مراجع أخرى أنّ نسبة السومريّين إلى عرق آرّي أوروبيّ، هي مقولة غربيّة تحمل الكثير من التجنّي على العرب وحضارتهم، وتحاول أن تركّز على الأصل المختلف بغية الوصول إلى الحطّ من شأن العطاء الحضاريّ العربيّ، وتسفيه واتّهامه بالنقل عن شعوب ذات أصل مختلف عن أصوله. وقالت تلك المراجع أنّه حتّى من ضمن الادّعاء بأنّ السومريّين عنصر غير ساميّ وغير عربيّ بحضارتهم، فإنّ المؤرّخين والكتّاب العرب استطاعوا دحض هذه الأقوال عن طريقَين: الأوّل، وهو وجود الاحتمال الأوفر حظًّا من أنّ السومريّين هم عرب (ساميّون) لغة وكتابة وحضارة ومعطيات أسطوريّة... والثاني، الوصول إلى نتائج تؤكّد على أنّ هذه المعطيات كانت سابقة للعصر السومريّ. وهذا ما يمكن اعتباره ذا وجهَين: الأوّل، أنّ هذه المعطيات سابقة للسومريّين، والثاني هو أنّ تواصل هذه الحضارة منذ ما قبل السومريّين مرورًا بهم إلى الأكاديّين والبابليّين وما تلاهم، يشير إلى أنّ السومريّين لم يكونوا إلاّ جزءًا من هذا المجتمع، أو على الأقلّ كانوا قومًا أخذوا وتأثّروا واندمجوا بالمعطيات الحضاريّة للمنطقة التي نزحوا إليها[2].

وجاء في دراسة موسّعة عن السومريّين[3] أنّه كان التطوّر الحديث الذي جاءت به الزراعة في شمال العراق مفتتحة به العصر الحجريّ الحديث المعروف بالعصر

---

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، دار الجيل (بيروت،٢٠٠١) ٣: ١٤٠٧.

٢ ـ ناصر الدين، الينابيع في المسيحيّة والإسلام، ص٢٦ ـ ٢٧.

٣ ـ الماجدي خزعل، الدين السومري، دار الشروق (بيروت،١٩٩٨)

الـ"نيوليتيّ NEOLITHIC"، مدعاةً لظهور ثقافات أو حضارات عراقيّة شماليّة خمس هي: ما قبل الفخار، جرمو، الصوان، حسونه، سامراء. وقد استغرق ظهور هذه الحضارات حوالي ثلاثة آلاف سنة (٨٠٠٠ ـ ٤٩٠٠ ق.م)، وكانت جميعها ذات طبيعة زراعيّة فلاحيّة سادت فيها المرأة كزعيمة وعُبدت فيها الإلهة الأمّ. ثمّ جاءت الإنعطافة النوعيّة الثانية التي جاء بها اكتشاف المعادن وبدء العصر الحجريّ النحاسيّ المعروف بعصر الـ"كالكوليت CALCOLITHIC"، الذي انتقل مسرحه إلى جنوب العراق، وظهرت أربع ثقافات أو حضارات كالكوليتيّة هي: حلف، أريدو، العبيد، الوركاء الأولى. وقد استغرق ظهور هذه الحضارات حوالي ألفَي سنة (٤٩٠٠ ـ ٣١٠٠ ق.م). وكانت جميعها ذات طبيعة مدينيّة حرفيّة، إضافةً لاهتمامها بالزراعة ساد فيها الرجل كزعيم للقوم، وظهر الإله الذكر ثمّ الآلهة المتعدّدة وخصوصًا تلك المرتبطة بالطبيعة. ويرجَّح أن يكون أجداد السومريّين هم الذين قاموا باكتشاف المعادن وتطويعها، وهم الذين طوّروا الأنظمة الزراعيّة المطريّة الشماليّة إلى أنظمة زراعيّة إروائيّة في الجنوب، وقد حصل ذلك بعد حضارة سامراء، وهي الموطن الشماليّ العراقيّ للسومريّين. ثمّ بدأت هجرات السومريّين مع نهرَي دجلة والفرات إلى جنوب العراق في الألف الخامس قبل الميلاد. وربّما اختلط السومريّون مع أقوام وافدة أخرى إلى الأرض الجديدة في السهل الرسوبيّ الجنوبيّ للعراق، كالفراتيّين الأوائل، والدجلويّين الأوائل والساميّين. إلاّ أنّ السومريّين مع هذه الأقوام شكّلوا ما يُعرف بالأقوام العُبيديّة أي "العبيديّين" الذين أحدثوا انعطافًا نوعيًّا في صناعات الفخّار والحرف اليدويّة وتطوير الطرز المعماريّة، وخصوصًا المعابد، وإنتاج الأختام المنبسطة المستديرة والبيضويّة، وظهرت الفؤوس النحاسيّة، وتطوّر فنّ النحت المجسّم للإنسان والحيوان. وقد انتشرت مستوطنات عصر العبيد في مواقع كثيرة شمال ووسط وجنوب العراق، وتُعدّ

مستوطناته الجنوبيّة بداية الاستقرار، وفيها قامت زراعة الريّ في السهل الرسوبيّ، واشتهر من مستوطناته "تل العبيد" الذي يقع على بعد ثمانية كيلومترات غرب أور، و"تلّ العقير" الذي يقع إلى الجنوب من بغداد، و"أور" و"خفاجة" و"تل أسمر" في منطقة "ديالى" و"تلّو"، وهي "لكَش القديمة" شمالي شرق مدينة "الشطرة والوركاء"، و"بسماية"، وهي "أدب" القديمة شماليّ غرب "تلّو"، و"مطارة" و"نوزي" وبعض مواقع منطقة "حمرين" و"تبّة كَورا". وقد انتشرت حضارة العبيد خارج العراق بواسطة الطرق التجاريّة والنهريّة والبحريّة، فوصلت إلى سوريا وآسيا الصغرى وإيران وإلى بعض جهات شبه جزيرة العرب والأجزاء الساحليّة من الخليج العربيّ. وكانت الحضارة العبيديّة هي أوّل حضارة، منذ النيوليت، تنتشر إقليميًّا بهذه السعة حاملة معها نظامها الحضاريّ الخاصّ بها، وكانت الحضارة الممهِّدة لظهور الحضارة السومريّة التي سيبدأ نبضها من نسيج الحضارة العُبيديّة، وسيشتدّ هذا النبض وتُسمع أصواته واضحة بعد أفول العبيديّين في حدود ٣٥٠٠ قبل الميلاد.

بدأت ملامح الوجود السومريّ تتّضح منذ منتصف الألف الرابع قبل الميلاد في جنوب العراق. وكانت أوّل ثقافة سومريّة هي ثقافة الوركاء الأولى التي شكّلت آخر حلقة من حلقات الثقافات الكالكوليتيّة. ويعود تميّزها إلى نوع الفخّار المصنوع بالدولاب وأشكاله المتميّزة وصناعاته الجديدة. وإنّ الحلقة الفاصلة بين عصور ما قبل التاريخ الحجريّة والعصور التاريخيّة تُسمّى "العصر الشبيه بالكتابيّ" أو "الشبه التاريخيّ" أي " البرتولتريت "PROTOLITRATE"، وقد استغرق هذا العصر حوالي مائتَي عام (٣١٠٠ ـ ٢٩٠٠ ق.م)، وتشمل هذه الحقبة ثقافتَين متميّزتَين هما" ثقافة "الوركاء الثانية" و"ثقافة جمدت نصر". وهذا العصر هو عصر سومريّ أيضًا أنجز فيه السومريّون أعظم اختراعاتهم الحضاريّة وهو اختراع الكتابة التي كانت أثناء هذا

العصر في أولى مراحلها الصوَريّة. وكانت أولى الرقم التي تحمل هذا النوع من الكتابة قد جاءت من الوركاء (الطبقة الرابعة). وكانت الكتابة في مراحلها الصوَريّة. ومع الكتابة ظهرت مظاهر حضاريّة أخرى مثل ظهور المعابد المشيّدة على مصاطب اصطناعيّة، كمعبد إنانا ومعبد آن في الوركاء، ومعبد إنانا في نفر، والمعبد الأبيض في الوركاء، ومعبد الإله القمر في خفاجي، ومعبد تبة كَورا. ثمّ ظهر "الزقورات" أو المعابد العالية المكوّنة من طبقات مثل "زقورة العقير" و"زقورة الوركاء"[1]. وفي هذا العصر ظهرت لأوّل مرّة الأختام الأسطوانيّة، واستُعمل دولاب الخزف السريع في صنع أوانٍ فخّاريّة لها طلاء إجاصيّ اللون، وأوانٍ فخّاريّة ملوّنة بعدّة ألوان. وتقدّم فنّ التعدين، وانتشر استعمال المعادن، وظهرت المدن، وصُنعت قطع فنيّة رائعة من النحت البارز والمجسّم، مثل مسلّة صيد الأسود، والإناء النذريّ، ورأس المرأة المنحوت من المرمر، واستمرّ استخدام الزخارف الجداريّة المؤلّفة من المخاريط الطينيّة الملوّنة الرؤوس. وقد انتشرت ثقافة البروتولتريت في أنحاء العراق كافّة، كما أنّها انتشرت كثقافة إقليميّة واسعة أيضًا خارج العراق، فقد وُجدت منجزاتها الحضاريّة في عيلام وفي سوريا أعالي مناطق الفرات الأعلى والخابور، ووصلت إلى مصر حيث وُجدت أختام أسطوانيّة من طراز هذا العصر، إضافةً إلى الكتابة والمنحوتات والأدوات والرسوم. ويُعتقد أنّ الطوفان السومريّ حدث في نهاية هذا العصر في حدود ٣٠٠٠ قبل الميلاد، بعد أن كانت الملوكيّة قد نزلت من السماء إلى أريدو السومريّة كما تقول الألواح الخاصّة بثبت الملوك السومريّين. بعدها حكم في هذه المدن ثمانية ملوك أعطت لهم ألواح ثبت الملوك سنوات حكم خياليّة بلغت حوالي ٢٤١,٢٠٠ سنة.

---

١ ـ الزقورة أو الزكورة ZIGGURAT: تعني حرفيًا "المكان المرتفع"، وهو هيكل بابليّ أو آشوريّ يتكوّن من طبقات مكعّبة بعضها فوق بعض تتناقص كلّما علت، ويحيط بها سلّم من خارجها.

وأغلب الظنّ أنّ مثل هذا الرقم الخياليّ إنّما يعكس فكرة شائعة عند أكثر الأمم القديمة، وهي أنّ الإنسان كان، في قديم الزمان، يتمتّع بعمر طويل وصفات جسديّة خارقة. ومن غير المستبعد أيضًا أن جامع الأثبات السومريّة لم يكن في حوزته غير أسماء ثمانية ملوك من قَبل الطوفان، فاضطرّ إلى تطويل سنوات حكم كلّ منهم ليغطّي الحقبة الزمنيّة التي تصوّرها واسعة جدًّا، والتي تفصل بين ظهور أوّل سلالة حاكمة وبين حدوث الطوفان.

عاش السومريّون لما يقرب من خمسة قرون في نظام سياسيّ مبتكَر وجديد، ساد بعدهم الشرق الأدنى كلّه، وهو نظام "دولة المدينة CITY STATE"، حيث لكلّ مدينة استقلال ذاتيّ وحاكم خاصّ وإله خاصّ، لكنّ هذه المدن يجمعها تفاهم سياسيّ وحضاريّ ودينيّ واضح. وقد كان ظهور هذا النظام المتحضّر سببًا في دفع التطوّر الإنسانيّ وابتكار المجالس البرلمانيّة وممارسة نوع من الديمقراطيّة. ولقد ظهرت المدينة في جنوب العراق مع بداية الألف الخامس قبل الميلاد، لكنّ نظام دولة المدينة لم يظهر إلاّ في بداية الألف الثالث قبل الميلاد مع السومريّين. وقد ظهرت في المدن السومريّة سلالات عديدة حاكمة في هذه الحقبة على الشكل التالي: كيش: ٤ سلاسلات، أوروك: ٣ سلالات، أور: سلالتان، وسلالة واحدة لكلّ من لكش، أوما، إكشاك، أوان، أدب، ماري، حمازي. وهناك مدن سومريّة أخرى لم تظهر فيها سلالات حاكمة إلاّ أنّها كانت تتمتّع بمركزٍ دينيّ هامّ، مثل "نفّر" المدينة السومريّة المقدّسة، كونها مدينة الإله القوميّ السومريّ "إنليل". ومدينة "أريدو" مدينة الإله "إنكي". ومدينة "سبار" مدينة الإله "أوتو" إله الشمس. ومدن أشنونا وخفاجي وايسن ونينا... واحتضنت مدينة كيش أولى السلالات السومريّة بعد الطوفان، رغم أنّ أسماء ملوك هذه السلالة كانت توحي بأصلهم الساميّ، وهذه إشارة لبدء ظهور النفوذ الساميّ، في بلاد سومر، الذي سيتّسع

مع المرحلة الأكاديّة، ثمّ يسود البلاد بعد الغزو الأموريّ، ولكنّ حضارة كيش في هذه المرحلة كانت من نسيج سومريّ واضح، ولعلّ أشهر ملك من هذه السلالة هو الملك "إيتانا" الذي تذكره إثباتات الملوك السومريّين على أنّه كان راعيًا وأنّه صعد إلى السماء ووطّد جميع البلاد، وقد وصلت عنه أسطورة جميلة حول صعوده إلى السماء للحصول على نبات النسل الذي يساعد على الإنجاب لأنّه كان عقيمًا، وكان صعوده على ظهر نسر. ومن السلالات السومريّة الشهيرة سلالة "أوروك" أو "الوركاء" الأولى التي تُعتبر بحقّ سلالة عصر البطولة السومريّ، فقد ظهر فيها أبطال سومريّون نُسجت حولهم القصص والملاحم وهم: "ميسكي كاَشر" الذي ذهب إلى البحر وارتقى الجبال، ثمّ ابنه "أنمركار" الذي بنى أوروك وخاض صراعًا مع "أرتِّا"، ثمّ جاء ابنه "لوكَال بندا" الذي تذكر عنه القصص حكايات تشبه حكايات السندباد، ثمّ جاء ابنه البطل العظيم "جلجامش" وهو خاتمة وقمّة عصر البطولة السومريّ، والذي اشتهر بملحمته المعروفة وقصص بطولته النادرة التي صارت بذرة لبطولة الكثيرين من أبطال الزمن القديم. وفي أور حكمت سلالة سومريّة في حدود ٢٦٥٠ قبل الميلاد، وقد وصلت كتابات عن بعض ملوكها إضافةً إلى ما كشفت عنه المقابر الملكيّة في أور، التي تحتوي، ضمن أشياء كثيرة أخرى، على آثار ذهبيّة وفضيّة تتمثّل في الأقداح والخناجر والخوذ والقلائد والدبابيس، وفي تماثيل بعضها مصنوع من الذهب الخالص وبعضها من الفضّة والأحجار الكريمة، كما عُثر على قيثارات أشهرها تلك التي كان لها بالأصل أحد عشر وترًا، وعلى شعار مدينة أور الذي يصوّرمشهدًا لمعركةٍ يشترك فيها المشاة والعربات، وآخر يصورّ الاحتفال بتحقيق النصر على الأعداء من خلال مشاهد توزيع الشراب وعزف الموسيقى. وفي نهاية عصر فجر السلالات تفجّر صراع اقتصاديّ سياسيّ بسبب مياه الريّ والأرض الزراعيّة والحدود بين سلالتَين

متنافستَين في "لكَش" و"أومأ"، وفي نهايته استطاع ملك أوروك الذي كان أصله من أوما" "لوكَال زاكيزي"، القضاء على سلالة "لكَش" وملكها "أورو أنيمكينا" أو "أوروكاجينا"، ثمّ قام لوكَال زاكيَزي بتوحيد المدن السومريّة في دولة سومريّة واحدة مدّ نفوذها من الخليج العربيّ جنوبًا حتّى البحر الأبيض المتوسّط شمالاً، ولقّب نفسه بـ"ملك سومر". وكان ذلك بين ٢٤٠٠ ـ ٢٣٧١ قبل الميلاد.

إنحسر موقّتا النفوذ السياسيّ للسومريّين عندما استولى سرجون الأكاديّ على بلاد سومَر، مستغلاً النفور الذي ساد البلاد من حركة لوكَال زاكيَزي الذي وضعت سومر في دولة مركزيّة واحدة. لكنّ سرجون الأكاديّ حافظ على هذه الدولة وأعطى حكمه الطابع الساميّ، ثمّ إنّه وسّع دولته إلى أمبراطوريّة كبيرة شملت أجزاء كبيرة من سوريا وآسيا الصغرى وإيران والخليج العربيّ، وهذا يعني أنّها اتّسعت في الجهات الأربع. وتُعتبر الأمبراطوريّة الأكاديّة (٢٣٧١ ــ ٢١٥٤ ق.م) أوّل أمبراطوريّة حقيقيّة في التاريخ. وكانت عاصمتها مدينة "أكاد"، وجاء بعد سرجون ولده "ترام سين" الذي حكم طويلاً، وكان زمانه مليئًا بالفتوحات وخصوصًا مع الأقوام الجبليّة المتوحّشة المسمّاة "لولوبو" والتي كانت تهدّد الأمبراطوريّة. وهو أوّل ملك يلقّب نفسه بـ "ملك العالم" ويضع علامة الألوهيّة قبل اسمه. وبعد هذا الملك جاء ملوك ضعفاء استنزفتهم حركات التمرّد في الداخل وفي الأقاليم التابعة، حتّى استطاع الـ"كَوتيّون"، وهم من القبائل المتوحّشة التي كانت تستوطن أواسط "زاكَروس" في منطقة همدان، من إسقاط الأمبراطوريّة الأكاديّة واحتلال بعض بلاد سومر لمدّة تقرب من قرن (٢٢١١ ـ ٢١٢٠ ق.م)، وتُعتبر حقبتهم أوّل حقبة مظلمة في تاريخ وادي الرافدين.

كان الكَوتيّون يديرون حكمهم لوادي الرافدين من مدينة "أرابخا"، وهي "كروك" حاليًا، وكانوا يركّزون على المدن الأكاديّة، ولذلك ظلّت المدن السومريّة، وخصوصًا

الجنوبيّة منها، بعيدة عن تأثيرهم المباشر وتتمتّع بشيء من الحريّة السياسيّة والتجاريّة. ففي مدينة لكَش مثلاً قامت السلالة السومريّة الثانية وظهر فيها الأمير "كَوديا" الذي كان عصره مأثرة من مآثر البناء والتحضّر السومريّ. كذلك ظهر في "أوروك" زعيم سومريّ هو "أوتوحيكال" الذي نهض بدور بطوليّ وقام بطرد وهزيمة الكَوتيّين من كلّ بلاد الرافدين. ويبدو أنّ انتصار أوتوحيكال على أوّل غزاة وادي الرافدين تزامن مع كسوف القمر في البلاد، وقد حدث ذلك في الرابع عشر من شهر تمّوز (يوليو)، فاتّخذ المنجّمون والعرّافون هذا الحدث التاريخيّ فاصلاً زمنيًا ودوّنوه في ألواح العرافة السومريّة حيث جاء في أحدها: "إذا خسف القمر في اليوم الرابع عشر من شهر تمّوز فهذا نذير للملك الكَوتي: سوف يسقط الكَوتيّون في المعركة وتتحرّر البلاد".

بالإضافة إلى ذلك فقد ترك لنا الملك أوتوحيكال نصًّا تاريخيًّا فريدًا على رقيم سومريّ يشرح فيه قصّة انتصاره على الكَوتيّين وهذه ترجمة لبعض فقراته:

فوّض الإله إنليل ملك البلدان، الرجل العظيم أوتوحيكال ملك أوروك، ملك جهات العالم الأربع، الملك الذي لا يخالف أحدٌ أمره أن يحطّم اسم "كَوتي" أفعى وعقرب الجبال الذي رفع يده ضدّ الآلهة، الذي نقل ملوكيّة سومر إلى بلاد أجنبيّة، وملأ بلاد سومر بالعداوة، الذي أبعد الزوجة عمّن كانت له زوجة، وأبعد الطفل عمّن كان له طفل، والذي أقام العداوة والعصيان في البلاد... آنذاك ذهب أوتوحيكال إلى ملكته الإلهيّة إنانا ودعاها قائلاً:

يا مليكتي، يا لبوة الحرب التي تهاجم البلدان الأجنبيّة، لقد فوّضني الإله إنليل أن استرجع ملوكيّة سومر، فكوني حليفتي في ذلك.

ثم سار أوتوحيكال الملك الذي منحه إنليل القوّة والذي اختارته الإلهة إنانا إلى قلبها، الرجل العظيم، إلى المعركة من أوروك ضد "تركيان"... وعندئذٍ تملّك الفرح أهالي أوروك وأهالي كولاب وتبعه رجال مدينته كأنّهم رجل واحد. وفي اليوم السادس وصل أوتوحيكال إلى "كاركار" ووقف أمام الإله "أشكور" ودعاه قائلاً:

أيّها الإله أشكور، لقد أعطاني الإله إنليل السلاح فكن عوني في المهمّة.

وكان الكوتيون قد جمعوا قوّاتهم في ذلك المكان... غير أنّ أوتوحيكال، الرجل العظيم، تمكّن من دحرهم وأسر قائدهم. وعندئذٍ فرّ "تريكان" والتجأ إلى مدينة "دبروم"، ولكنّ رجال "دبروم" ألقوا القبض على تريكان وعائلته ووضعوا القيد في يدَيه... ولمّا جُلب تريكان أمام أوتوحيكال ألقى بنفسه عند قدمَيه.. فوضع أوتوحيكال قدمه على رقبته... وهكذا أعاد الملوكيّة إلى بلاد سومر.

حاول أوتوحيكال بعد انتصاره توحيد المدن السومريّة وجمعها تحت حكمه، وكان قد نشب نزاعٌ بين مدينتَي لكَش وأور التابعتَين له، فحاول تسوية هذا النزاع، لكنّ حاكم مدينة أور المسمّى "أورنمّو" لم يقبل بهذه التسويَة، فانفصل عن حكم أوتوحيَال، ثمّ قامت بينهما حربٌ انتهت بانتصار "أورنمّو" الذي أسّس سلالة سومريّة جديدة هي "سلالة أور الثالثة" التي قدّر لها أن تبعث المجد السومريّ وتوحّد سومر، ثمّ تحولّها إلى أمبراطوريّة جديدة ورثت أغلب ما كان تحت نفوذ الأمبراطوريّة الأكاديّة. وقد حكم هذه الأمبراطوريّة السومريّة (٢١١٣ ـ ٢٠٠٦ ق.م) خمسة ملوك هم" "أورنمّو"، "شولكي"، "أمارسين"، "شوسين"، و"أبي سين". وفي خلال القرن الذي حكمت فيه هذه الأمبراطوريّة أنجز السومريّون أعظم نواميسهم الحضاريّة في جميع المجالات، وثبّتوا أركان حضارة كبيرة ستكون منطقة إشعاعٍ لكلّ العالم القديم. ويُعتبر الملك أورنمّو أكثر ملوك سلالة أور الثالثة شهرة وعظمة، فقد اهتمّ بالبناء والعمران في معظم مدن سومر، مثل "أور" و"الوركاء" و"لكَش" و"نفر" و"أريدو"، ولعلّ أشهر إنجازاته العمرانيّة هي "زقورة" معبد الإله "نانا" إله القمر في العاصمة أور. ويُعتبر أورنمّو من أقدم المشرّعين في التاريخ، فقد عكست شريعته المدوّنة باللّغة السومريّة إحساسه الإنسانيّ بالعدل، وسنّ قوانين الغرامات الماليّة بدلاً من القصاص الجسديّ الذي سنّته لاحقًا شريعة حمورابي.

ظهرت العلامات المبكّرة لضعف الدولة السومريّة مع بداية حكم آخر ملك من ملوكها: "أبي سين"، وساعد على سقوطها الوضع الاقتصاديّ الصعب الذي مرّت به بلاد سومر، حيث ارتفعت الملوحة إلى الأرض الزراعيّة فقلّ إنتاجها، وكان لسعة مقاطعات الأمبراطوريّة السومريّة والأصقاع البعيدة الأثر الكبير في عدم القدرة على إدارتها الاقتصاديّة والسياسيّة. وقد جاء ذلك كلّه ليهيّء لضربةٍ قاصمة قام بها العيلاميّون من الشرق والأموريّون من الغرب، حيث كانت سومر بمدنها المتحضّرة مصدر طمع لهؤلاء. وما أن اغتال العيلاميّون والآموريّون سومر حتّى اختلفوا، فقام الآموريّون بطرد العيلاميّين من وادي الرافدين وأصبحوا هم ملوك السلالات والممالك الجديدة، ولكنّهم رغم ذلك كانوا يستعملون اللغة السومريّة. وكانت الثقافة السومريّة هي الأساس في الثقافة الأموريّة التي كان يُسمّى عصرها ذاك بـ"العصر البابليّ القديم"، والذي ضمّ حكم سلالات "إيسن" و"لاريسا" و"أشنونا" وسلالة بابل الأولى. وكانت النهاية السياسيّة للسومريّين في حوالي ٢٠٠٦ قبل الميلاد، بسقوط الأمبراطوريّة السومريّة، ولكنّ الثقافة السومريّة كانت المعين العظيم لكلّ ثقافات وادي الرافدين، بل ولكلّ ثقافات المنطقة والعالم سواء في القانون أو العلوم أو الأديان أو الفنون أو الآداب... ولقد كانت الثقافة السومريّة أوّل ثقافة بشريّة أصيلة ساهم الإنسان والطبيعة وتراث العصور القديمة في صياغتها... ولذلك كانت مصدر ثقافات العالم القديم كلّه. وكان الدين السومريّ هو أوّل دين ذي أنظمة ميثولوجيّة ولاهوتيّة وطقسيّة واضحة ومحدّدة ومتناسقة، ولها أرضيّات متّصلة تتغذى من بعضها وتفصح عن إيقاع واحد وعميق في داخلها[1].

١ ـ الماجدي، الدين السومري، ص١٣ ـ ٢٥.

أمّا الأشوريّون فكانوا قد أسّسوا أمبراطوريّة قديمة حول مدينة أشور الواقعة في أعالي نهر دجلة، اتّخذت عاصمتها في "كالاه" في نينوى، وقد بدأت نواة لدولة ساميّة تكوّنت في بداية الألف الثالث قبل الميلاد، ولكنّها اضمحلّت عندما عظم شأن كلّ من سومر وأكاد. وكان لها قليل من الشهرة في القرن الثاني عشر قبل الميلاد أيّام تغلات فلاسر الأوّل، بيد أنّ أهميّتها الحقيقيّة بدأت في القرن التاسع قبل الميلاد بفتوح أشور ناصربعل الثاني الذي أقام في ممتلكاته إدارة أشوريّة متماسكة. وأخذ خلفاؤه شلمنصّر الثالث وتغلات فلاسر الثالث وسرجون الثاني يبسطون على التوالي سلطانهم على منطقة الشرق الأدنى. وقد دعّم سنحاريب قوّة الأمبراطوريّة، وهزم أسرحدّون قبائل الكلدانيّين وفتح مصر. وفي عهد خليفته أشور بانيبال بلغت أشور الذروة في الأدب والفنون، ومع ذلك فقدت سيطرتها على مصر، وتدهورت أشور، وسرعان ما نُهبت نينوى وخربت على يد الميديّين بعد وفاته سنة ٦١٢ قبل الميلاد. واستعادت الأمبراطوريّة البابليّة قوّتها شيئًا ما، وأسّس قورش العظيم الأمبراطوريّة الفارسيّة التي استوعبت أشور[١].

أمّا أمبراطوريّة بابل فمنسوبة إلى مدينة بابل القديمة في أرض الرافدين على الفرات إلى الشمال من المدن التي ازدهرت في جنوب بلاد ما بين النهرين منذ الألف الثالث قبل الميلاد، ولم تبلغ أهميّتها إلاّ بعد أن جعلها حمورابي عاصمة له، وأصبح معبودها "مردك" أو "مردوخ" الذي يُقرن بالبعل معروفًا في الشرق الأدنى القديم. كما أثّرت المدينة بابل بفضل التجارة. دمّرها الأشوريّون في عهد ملكهم سنحاريب. ثمّ أعيد بناؤها حيث بلغت أوج ازدهارها في دولة بابل الثانية. والحديث عن عزّها

---

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، ١: ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

كحديث الأساطير، وذلك منذ أيّام نبوخذنصّر المتوفّي حوالى ٥٦٢ قبل الميلاد، فكانت حدائق بابل المعلّقة إحدى عجائب الدنيا السبع. عرفها العبرانيّون كما عرفها الإغريق. ثمّ كان استيلاء قورش العظيم عليها في حوالى ٥٣٨ قبل الميلاد إيذاناً بانتهاء عظمتها. تحوّل أكثر سكّانها وتجارتها بعد فتوح الإسكندريّة إلى مدينة سلوقيّة[١].

الأموريُّون

الأموريّون هم أقدم شعب ساميّ استوطن سوريا الكبرى. ففي سنة ٢٢٠٠ قبل الميلاد بدأ تسلّل قبائل عربيّة بدويّة من شمالي الجزيرة العربيّة على نطاق واسع. وقد انتشرت هذه القبائل في سهول سوريا الشماليّة. واتّجه بعضها غربًا جنوبًا إلى شرق الأردن وتلال اليهوديّة وجبال لبنان. أمّا الذين تاخموا البحر فقد عُرفوا بالكنعانيّين، ومن الكنعانيّين كان الفينيقيّون. واتّجه البعض شرقًا جنوبًا واكتسحوا بابل ومنهم كانت سلالة حمورابي الأموريّة. ويفيد الباحثون أنّهم لا يعرفون الشيء الكثير عن الأموريّين. فإنّ التوراة تسمّيهم الشعب الأموريّ. وقد كثر ورود اسمهم في التوراة، فإنّهم، حسب التقليد العبرانيّ، كانوا سكّان فلسطين الأصليّين من لبنان إلى حدود مصر. وقد ورد اسمهم أيضًا في النقوش البابليّة بأشكال مختلفة: أمورو، أماري، مرتر. وقد أصبحت لفظة "مرتو" مرادفة للفظة "غرب" لأنّهم كانوا إلى الغرب من البابليّين. ويسمّي المصريّون البلاد الواقعة إلى شرقيّ فينيقيا A - MA - RA، ويرد في رسائل تلّ العمارنة اسم "آمار" و"آمور"، ويقصدون بذلك سهل البقاع. وفي الرسائل رقم ٤٢، ٤٤، ٥٠، من ترجمة WINCLER إشارات إلى أنّ أمير البقاع هو أمير

---

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، ١: ٤١٩ ـ ٤٢٠.

"أمورو". أمّا WELLHAUSEN فيعتقد أنّ الأموريّين هم الكنعانيّون والكنعانيّين هم الأموريّون، إنّما التفرقة في الزمن. فإنّهم كانوا أوّلاً يُسمّون أموريّين ثمّ عُرفوا في ما بعد بالكنعانيّين. ويقول باحثون إنّ اسمهم قد يكون مشتقًّا من جذر "أمر" الذي يفيد العلوّ والإرتفاع[1]. بينما يقول آخرون إنّ كلمة "أموريّين" غير ساميّة وتعني "الغربيّين"، وقد أطلق عليهم هذه التسمية جيرانهم السومريّون في الشرق، من دون أن يوضّح هؤلاء الباحثون الإسم الذي كان الأموريّون يُعرفون به قبل ذلك. ويقولون إنّ العاصمة الأموريّة "ماري" الواقعة جنوبي الخابور، وهي تحمل أيضًا إسمًا سومريًّا، هي من جهة الإشتقاق شبيهة باسم البلاد "أمورو" و"مارتو" أي بلاد الغرب، وكان هذا أيضًا إسم إلههم القديم وهو إله الحرب والصيد. ووسّع البابليّون في ما بعد مدلول الإسم فصار يشمل سورية كلّها وسمّوا البحر المتوسّط "بحر أمورّو العظيم"[2].

أمّا عاصمة الأموريّين "ماري" التي كانت على الفرات جنوبي الخابور، فهي اليوم خرائب تُعرف بـ"تلّ الحريري" الذي قام بحفره ودرس ما وُجد فيه من عاديّات ANDRÉ PARROT. ومن جملة ما عثر عليه عدد كبير من آجرّات عليها كتابة أموريّة بالخطّ المسماريّ (البابليّ) ولغتها لا تختلف كثيرًا عن لغة الآراميّين، أي أنّها تنتسب إلى الفرع الساميّ الغربيّ. أمّا في لبنان فلم يبقَ من آثار الأموريّين سوى إسم "عمريت" المشهور في التاريخ الكلاسيكيّ بـ MARATHUS. ويعتبر باحثون أنّ بعض آلهة الأموريّين قد انتقل إلى الكنعانيّين. ولا غرابة في ذلك فإنّ الآلهة القديمة كانت تنتقل من بلاد إلى أخرى، ومن قبيلة إلى قبيلة، إمّا بالأسماء الأصليّة لتلك الآلهة أو بأسماء

---

١ ـ فريحة أنيس. أسماء المدن والقرى اللبنانيّة وتفسير معانيها، الجامعة الأميركيّة في بيروت (بيروت،١٩٥٦) صXVIII.

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١: ٧٠.

جديدة. ومن آلهة الأموريّين "هدد" وفي الأشوريّة "أدد" أو "إدّو"، وقد عرفه الكنعانيّون باسم جديد، وربّما بلفظة هي ترجمة الإسم القديم: "رمّانو"، إله الرعد أو إلـه العاصفة. وترد لفظة "هدد" مركّبة مع أسماء الأعلام السوريّة القديمة كما هي الحال في اسم الملك الدمشقيّ "هدد عزر"، ومعنى الإسم "هدد عون" أو "غوث"، أي أنّنا إذا أردنا ترجمته إلى الشكل العربيّ لقلنا "غوث الله". وترد لفظة "رمّانو" في بعض أسماء الأمكنة في لبنان كما هو في "برمّانا" و"عين الرمّانة"، وقد يكون ثمر الرمّان وزهره، الجلنار، ثمر هذا الإله وزهرته المستحبّة. وعلى ممرّ الزمن تنوسيَ اسم الإله "رمّانو" أو "رمّانا" وحلّ محلّه الإله الـ"بعل". ومن آلهة الأموريّين أيضًا "رشف"، ومعنى اسمه "النار" و"الصاعقة". و"داجون" وقد كان إله الغذاء أو شفيع الغلاّت الزراعيّة. ونلتقي بهذا الإله في ساحل فلسطين الجنوبيّ حيث أصبح إلـه الفلسطينيّين الأوّل، وقد عبدوه بشكل سمكة، وهو الإله الذي حطّم تمثاله "يهوه" إله العبران. وقد شاعت عبادته في أماكن أخرى من الشرق الأدنى القديم، وكان معبودًا في العراق القديم. أمّا إلهتهم فقد كانت "إشتار" أو "أشيرت"، وهي "عشتار" أو "عشتروت" الفينيقيّة، و"أفروديت" لدى الإغريق. وقد كانت تمثّل الأمّ الأرض، أي إلهة النسل والخصب والتوليد. وهي في الدين الفينيقيّ زوجة "البعل" أو الـ"أدون"، الذي أصبح عند الإغريق "أدونيس"[١].

والأموريّون لم يقتصروا على تأسيس دولة في منطقة الفرات الأوسط واجتياح سورية بل اجتاحوا بلاد ما بين النهرَين أيضًا وحكموها. وقد أسّسوا عدّة سلالات من أشور في الشمال حتّى لارسا في الجنوب بين ٢١٠٠ و١٨٠٠ قبل الميلاد. وأهمّ هذه كانت سلالة بابل وهي أوّل سلالة ظهرت في هذه المدينة وانتسب إليها حمورابي

١ ـ فريحة، أسماء المدن والقرى اللبنانيّة وتفسير معانيها، صXX - XIX.

(١٧٠٠ ق.م.) أوّل مشرّع عظيم في العصور القديمة. وحمورابي هو الذي فتح بلاد "آموره" وأضافها إلى أمبراطوريّته[١].

الكَنعَانيُّون - الفِينِيقيُّون

الكنعانيّون والفينيقيّون شعب واحد لغة وحضارة. ولكن يظهر أنّهم كانوا قبائل وعشائر لم تجمعهم رابطة سياسيّة إلاّ في ظروف كانت تحتّم عليهم التحالف السياسيّ عند الخطر من أعدائهم في الشمال والجنوب. وقد ظلّت هذه الميّزة الفرديّة القبليّة الطابع المميّز لهم طيلة حياتهم السياسيّة. أمّا الكنعانيّون، حسب التقليد العبريّ، فقد كانوا سكّان فلسطين، والفينيقيّون سكّان الساحل اللبنانيّ من أوغاريت، وهي رأس شمرا في شماليّ اللاذقيّة، إلى جنوبيّ الكرمل. ولكن تجدر الإشارة إلى أنّ اللبنانيّين القدماء لم يُعرفوا بالفينيقيّين إلاّ بعد القرن الثاني والحادي عشر قبل الميلاد. وإذا رجعنا إلى مصادر التاريخ القديم نجد شيئًا من الفوضى في الحدود الجغرافيّة. وهذه الفوضى في تحديد مناطق الشعبَين تدلّ على أنّ التفرقة بينهما لم تكن حاسمة. فإنّ لفظة كنعان، التي نقرنها عادة حسب التقليد العبريّ بفلسطين، كانت تُطلق أيضًا على الساحل الفينيقيّ كلّه من أوغاريت إلى غزّة وجنوبها. فقد وُجدت قطعة نقود ترجع إلى عهد أنطيوخُس الرابع عليها عبارة "اللاذقيّة في كنعان". ومصادر التوراة التي تقول أحيانًا إنّ فلسطين القديمة هي كنعان وإنّ فينيقيا هي جارتهم إلى الشمال، تعود فتزيد من هذه الفوضى الجغرافيّة. فإنّ استعمال لفظة كنعان في التوراة قلق مشوّش. فإنّها تُطلق أحيانًا على جزء من الشاطئ الضيّق، ولا سيّما القسم الشماليّ منه أي فينيقيا، وأحيانًا أخرى تُطلق على الساحل كلّه من شماليّ اللاذقيّة إلى حدود مصر.

---

١ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١: ٧١ - ٧٢.

وأحيانًا تكبر البقعة الجغرافيّة فتشمل القسم الجبليّ. ففي سفر يشوع ٥: ١ تُطلق تسمية كنعانيّين على سكّان ساحل البحر المتوسّط، ولكن في ١١: ٣ من السفر ذاته، وفي سفر العدد ١٣: ٢٩ يتكلّم الكاتب عن الكنعانيّين في غور الأردنّ. وتشمل كنعان، حسب أقوال أخرى في التوراة، البقعة الجغرافيّة الواقعة بين سفوح حرمون المعروف بجبل الشيخ، إلى جنوبيّ البحر الميت. وفي سفر القضاة ١: ٩ تُطلق على كلّ الجبال والنجب، وليس النقب كما يسمّونه خطأ، وحبرون (الخليل) والساحل. وفي إشعيا ١٩: ١٨ اللسان الكنعانيّ (شفة كنعان) لغة تشمل العبرانيّ والفينيقيّ والموآبيّ (شرقيّ الأردنّ)، ممّا يدلّ على أنّ كنعان لم تكن الأماكن المنخفضة في فلسطين كما يُظنّ بناء على تفسير جذر "كنع" من أنّه يعني الإنخفاض. وفي زكريّا ١٤: ٢١ لفظة كنعانيّ مرادفة للفينيقيّ، ولفظة فينيقيّ ذاتها أصبحت، على مرّ الأيّام، مرادفة لكلمة تاجر. ويستنتج باحثون من هذه الملاحظات الواردة في التوراة أنّ الكنعانيّين والفينيقيّين كانوا شعبًا واحدًا لغةً ودينًا وحضارة. غير أنّ اللبنانيّين القدماء عُرفوا بالفينيقيّين بعد القرن الثاني أو الحادي عشر. أمّا المصريّون فكانوا يطلقون لفظة كنعان على كلّ غربيّ سوريا. ويذكر ستي الأوّل في نقش له أنّه حارب قبائل البدو في تارو (صور) التي في كنعان. ويقول رعمسيس الثالث إنّه بنى للإله "أمن" أي "أمون" هيكلاً في كنعان أي في فلسطين. أمّا الإغريق ولا سيّما فيلو، فإنّهم يستعملون لفظة XNA بمعنى فينيقيا. وبلّيني يتكلّم عن "يافا JOPPA" التي للفينيقيّين[١]!

إنّ إسم بلاد كنعان الذي كان يُعتبر، حتّى عهد قريب، ساميًا بمعنى "الأرض المنخفضة"، لاختلافها عن مرتفعات لبنان، أصبح الآن مشكوكًا في أصله الساميّ،

---

١ ـ فريحة، أسماء المدن والقرى اللبنانيّة وتفسير معانيها، صXXI - XXII.

ويُظنّ أنّه من أصل غير سامي. والاشتقاق الجديد يجعله حوريّ الأصل: KNAGGI، بمعنى الصباغ الأرجوانيّ، وهذا أعطى الصيغة الأكاديّة: "كناخني KINAKHNI"، وفي مسماريّة رسائل تلّ العمارنة "كيناخّي KINAKHKHI"، وبالفينيقيّة "كنع KENA'"، وفي العبريّة "كنعان"، أي الأرجوان[1]. وفي العصر الذي احتكّ فيه الحوريّون احتكاكًا وثيقًا بساحل البحر المتوسّط في القرن الثامن عشر أو السابع عشر قبل الميلاد، كانت صناعة الأرجوان على الغالب الصناعة السائدة في البلاد. كذلك يشير اسم فينيقيا المشتقّ من اليونانيّة PHOINIX أي أحمر أرجوانيّ إلى الصناعة نفسها، وبعد أن أطلق اليونان هذا الإسم على الكنعانيّين الذين تاجروا معهم، فإنّ كلمة فينيقيّ أصبحت بعد حوالى ١٢٠٠ قبل الميلاد مرادفة لكنعانيّ. ولا بدّ أنّ الساميّين السوريّين الذين لا يختلفون عن كثير من الشعوب القديمة الأخرى كانوا يتألّفون من جماعات تشعر باختلافاتها القبليّة والمحليّة أكثر ممّا تشعر بوحدتها القوميّة، وكان عليها أن تنتظر أجنبيًّا ليعطيها اسمًا عامًّا. وهكذا يرى مؤرّخون أنّ اسم كنعان قد أُطلق في أوّل الأمر على الساحل وغربيّ فلسطين ثمّ أصبح الإسم الجغرافيّ المتعارف عليه لفلسطين وقسم كبير من سورية. وكان هذا أوّل اسم لفلسطين وجميع الأسماء الأخرى أقلّ أهميّة. وفي وثائق العهد القديم الأولى أُطلق إسم كنعانيّ بمعناه الواسع على جميع سكّان البلاد بدون أيّ مدلول عرقيّ، وتعبير "لغة كنعان" في سفر إشعيا ١٩: ١٨، كان يُطلق بصورة عامّة على لغة فلسطين الساميّة[2].

---

١ - ALBRIGHT W. F., *"THE ROLE OF THE CANAANITES IN HISTORY OF CIVILISATION"*, *STUDIES IN THE HISTORY OF CULTURE* (MENSHA, 1942) P. 25.

٢ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١: ٨٥ - ٨٧.

الآراميّون

قبل أن يسمّى الآراميّون بهذا الإسم كانوا قبائل من الرحّل في بادية شمال الجزيرة العربيّة. وكانوا كسائر البدو من قبلهم ومن بعدهم، يضغطون من وقت إلى آخر على أراضي جيرانهم النائية في بلاد بابل وسورية وهدفهم امتلاكها. وقبل أن ينتصف الألف الثاني قبل الميلاد، كانت هذه القبائل قد سكنت في ضفاف وادي الفرات الأوسط حيث نشأت قوميّتها ولغتها. ويمكن الاعتقاد بأنّ الآراميّة أتت من لهجة ساميّة غربيّة كانت مستعملة في شمال غربيّ بلاد الرافدين في النصف الأوّل للألف الثاني قبل الميلاد. ولم يكتسبوا اسمهم "الآراميّين" حتّى أيّام تغلات فلاسر الأوّل (نحو ١١٠٠ ق.م) حين أقاموا في منطقة الفرات الأوسط حتّى سورية في الغرب. وكانت الهجمات الخاطفة في أوائل القرن السادس عشر على بابل وشماليّ سورية هي التي فتحت الأبواب، كما يبدو، في وجه الحركة الآراميّة وأعطت القادمين الجدد من الصحراء محطًّا ثابتًا في تلك المنطقة. وسهّل القضاء على ميتاني عن يد الحثّيين بعد قرن ونصف حركة الآراميّين من جديد. وتبيّن أنّ هذه الهجرة الآراميّة كانت بعد الهجرتَين الأموريّة والكنعانيّة ثالث حركة ساميّة كبرى أتت من الصحراء.

وكانت جماعات متعدّدة تشكّل أقسامًا من الحركة الآراميّة، ولكنّها لم تكن تُعرف بهذا الإسم. فهناك "الخابيرو"، وهم جماعة من المرتزقة قد اجتاحت البلاد في الجهة الجنوبيّة. وقد اعتبر بعض العلماء كلمة "خابيرو" أكاديّة معادلة للكلمة العبريّة "عبري". ويظهر اسمهم في المدوّنات المصريّة منذ حوالى ١٣٠٠ - ١١٥٠ ق.م بشكل "عبيرو EPIRU"، ممّا يثير الشكّ في صحّة المعادلة بين الخابيرو والعبرانيّين. ويوصَف الخابيرو، في وثائق "نوزي" من القرن الخامس عشر قبل الميلاد، بأنّهم عبيد أصبحوا كذلك باختيارهم. ويظهر الخابيرو لأوّل مرّة في الحوليّات الحثيّة في عهد مرشلش

الأول (حوالى ١٦٠٠ ق.م) الذي استأجرهم. وفي رسائل تلّ العمارنة نرى الخابيرو يتعاونون مع المتمرّدين ضدّ الفراعنة، وفي ١٣٦٧ يستولون على شكيم. وفي جميع الوثائق يبدو الخابيرو كجماعة متعدّدة العناصر وبدون أوصاف مشتركة ومعبّأة بلا شكّ في بلاد الرافدين. وكما يبدو فإنّ الإسم ليس اسمًا عرقيًّا وإنّما تسمية أُطلقت على جماعات من الرحّل والأجانب والأشقياء المستعدّين للإنضمام إلى صفوف أيّ جيش لقاء أجرة أو بدافع الحصول على الغنائم[1].

وبالإضافة إلى الخابيرو كان هناك الـ"أخلامو AKHLAMU"، وهذه التسمية التي تعني "الرفاق"، لم تكن تسمية عرقيّة، وقد أطلقها لأوّل مرّة، على ما يبدو، الأموريّون المقيمون في منطقة الفرات على اتّحاد القبائل. ويخبرنا الملك الأشوري "آدد نيراري الأوّل" (نحو ١٣٠٠ ق.م) أنّ أباه قهر جماعات الأخلامو في شمالي بلاد الرافدين. وفي تحرير أرسله "حتوشلش" حوالى ١٢٧٥ إلى أحد ملوك بابل إشارة إلى الأخلامو المعادين الذين يقيمون على طول الفرات. وفي إحدى رسائل تلّ العمارنة جاء عن الأخلامو في عهد أخناتون أنّهم كانوا يستولون على المدن والأراضي السوريّة برضى حكّام وطنيّين غير مخلصين إن لم يكن تحت قيادتهم. وفي الوثائق التي أتت في ما بعد يبدو الأراميّون والأخلامو مقترنين بصورة وثيقة. فالملك "تغلات فلاسر الأوّل" يقول: "لقد زحفت إلى وسط الأحلامي الآراميّين أعداء الإله أشور سيدي". وكانت هذه القبائل الآراميّة تعيش بجوار كركميش، ولكنّنا نشاهد الآراميّين بعد ذلك في بلاد بابل في الشرق يدعمون "الكلدو"، أي الكلدانيّين والبابليّين الحديثين، الذين كانت لهم صلة وثيقة بهم. ويصف

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١: ١٧٢ ـ ١٧٣.

تغلات فلاسر وخلفاؤه حملاتهم في "مات آريمي MAT ARIMI" أو "بلاد الآراميّين"، وذلك في كتابات أثريّة أخرى[1].

كانت لغة الآراميّين ساميّة غربيّة لا تختلف بكثير أو بقليل عن اللهجات السريانيّة الباقية إلى عهدنا هذا. ولكنّ مصادر تاريخهم قليلة. فإنّهم رغم اتّخاذهم أحرف الهجاء الفينيقيّة ونشرها في العالم المتمدّن آنذاك، لم يخلّفوا لنا آثارًا كتابيّة كثيرة. ولكنّ النقوش القليلة، إلى جانب ما تذكره التوراة من دويلاتهم وحروبهم مع إسرائيل، تعطينا صورة، ولو غير واضحة، عن حضارة الآراميّين.

أسّس الآراميّون في سوريا الكبرى دويلات أو إمارات عديدة، شأنهم في ذلك شأن الموجات الساميّة الأخرى التي لم تستطع أن تتوحّد. فقد كان للطبع الصحراويّ القبليّ أثره العميق في حياتهم السياسيّة. وقد كان من هذه الدويلات "آرام نهرايم" الوارد ذكرها ستّ مرّات في التوراة، وهي التي تكرها المصادر المصريّة باسم: NAHARINA أو NAHARAMA، ومعنى الإسم "القبائل الآراميّة الضاربة عند النهرَين". ولكنّهم اختلفوا في تحديد النهرَين، فمن قائل إنّهما الفرات ودجلة، أو الفرات والخابور، أو الفرات والعاصي. وقد ترجم الإغريق الإسم إلى MESOPOTAMIA أي ما بين النهرَين.

ومن الدويلات الآراميّة "آرام فدّان"، وهي القبائل الضاربة حول مدينتهم المشهورة "حرّان" الواقعة على طريق القوافل بين الشمال والجنوب وبين الشرق والغرب. ولفظة "فدّان" بابليّة معناها النير أو السكّة، سكّة الفلاحة، ثمّ توسّعًا الحقل الزراعيّ، ثمّ الحديقة الزراعيّة المسوّرة، ولفظة فدّان اللبنانيّة هي من أصل بابليّ. ويظهر أنّ التوراة لا تفرّق بين هاتَين الإمارتَين: آرام نهرايم وآرام فدّان، نسبة لتقاربهما الجغرافيّ. وأشهر

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١: ١٧٤ ـ ١٧٥.

الدويلات الآراميّة "آرام دمشق"، وكانوا يلفظونهـا "درمشـق" أو "دمّشـق" بحـذف الـراء والتعويض عنها بتشديد الحـرف الـذي يليهـا. وقـد سُـمّيت هـذه الدولـة باسـم العاصمـة دمشق. وقد كانت هذه الدولة أشهر الدول الآراميّة وأقواها عسكريًّا وأعظمها حضـارة. ونعرف عنها أكثر ما نعرفه عن سائر الدويـلات الآراميّـة، وذلـك بفضـل الـدور الـذي لعبته في حروبها ضدّ الأشوريّين، وبعد ذلك ضدّ اليهوديّة أيـام ملـك اليهـود داود. فقد نجح هذا الأخير بأن يفرض على دمشق الجزية، ولكنّـه لـم يسـتطع تثبيـت قدمَيـه، لأنّ مقاومة الآراميّين كانت شديدة.

ومن هذه الدويلات الآراميّة "آرام صوبـا" أو "صوبـة" الـوارد ذكرهـا فـي التـوراة مرارًا[1]. وقد اختُلف كثيرًا في تحديد البقعة الجغرافيّة التي كانت تُعرف بمملكة صوبـا، فمِن قائل إنّها كانت تقع بين حمص وحماة، ومنهم مَن يجعلها إلى جنوبـيّ هـذه البقعـة، أي في البقاع. ويقول هلفي إنّ عاصمتها كانت عنجر الحاليّـة، واسـمها القديـم "خلقيـس CHALCIS" وهي لفظة إغريقيّة معناها "النحاس الأحمر" وربّما "الذهب". وقسم يرى أنّهـا كانت إمارة بالقرب من بعلبك إذ ورد ذكر مدينة من مدنها "بيروثاي" الوارد ذكرها في صموئيل الثـاني ٨: ٨ وفـي حزقيّال ٤٧: ١٦. وقـد توهّـم بعضهـم أنّ هـذا الإسـم "بيروثاي" أو "بيروثه" ربّما كان بيروت ولكـنّ هـذا أمـر بعيـد الاحتمـال، والأفضـل أن يُقرن هذا الإسم ببلدة "بريتال" قرب بعلبك.

ومن الإمارات الآراميّة إمارة في شمالي فلسطين تُعرف في التوراة بـ"آرام معكة". وقد جاء ذكرها في سفر الأخبار الأول ١٩: ٦. ومعكة الذي تُنسب إليه الإمارة آرامـيّ

---

١ ـ راجع: مز ٦٠: صم الأول ١٤: ٤٧. وقد جاء في صم الثاني ٨: ٦ أنّ ملكها "هدد عـزر" حـارب داود ولكنّـه خسر الحـرب ودفـع الجزية صاغرًا.

من سلالة ناحور أبي الآراميين وأخي إبراهيم كما في سفر التكوين ٢٢: ٢٤. وبالقرب من معكة "آرام جشور" الوارد ذكرها في صموئيل الثاني ١٥: ٨، وفي يشوع ١٣: ١٣. وقد تزوّج داود ابنة ملكها وأصبحت أمّ أبشالوم كما في صموئيل الثاني ٣: ٣.

إنّ التاريخ السياسيّ لهذه الدويلات معقّد، فهو تاريخ لا يخرج عن كونه تاريخ قبائل متجاورة متحاربة. إنّما هناك حقيقتان لا بدّ من الإشارة إليهما، الأولى أنّه كان للآراميّين الفضل في نشر، لا وضع، حروف الهجاء في جميع بلدان الشرق الأدنى القديم، وأصبحت لغتهم، الآراميّة، في حوالى ٥٠٠ قبل الميلاد، اللغة الرسميّة LINGÚA FRANCA. ويظهر من نصّ التوراة سفر التكوين الثاني ١٨: ٢٦، وإشعيا ٣٦: ١١، أنّ الآراميّة كانت لغة دوليّة في القرن الثاني قبل الميلاد. ومن المرجّح كثيرًا أنّ لغة السيّد المسيح كانت الآراميّة لا العبريّة. وعندما احتلّ الفرس بلدان الشرق الأدنى جعلوها اللغة الدبلوماسيّة؛ وثاني الحقيقتَين اللتَين لا بدّ من الإشارة إليهما، هي أنّ هذا الشعوب الآراميّة عندما تنصّرت، غيّرت اسمها إلى شعوب "سوريا" ولغتهم "سوريّة"، أي حسب مصطلحنا اليوم "سريانيّة". ولكنّ هذه التفرقة العربيّة لا تغيّر الحقيقة أنّ "سرياني" معناه سوري، وأنّ "سريانيّة" معناها اللغة السوريّة. وقد غيّر الآراميّون اسمهم الآراميّ الذي كان يذكّرهم بوثنيّتهم. ولقد كان تنصّر الشعوب الآراميّة عاملاً قويًّا في تقريبهم إلى الهلّينيّة. وكانت اللغتان اللاتينيّة والإغريقيّة، من موادّ التدريس في مدارسهم الدينيّة. فكانوا على جانب من الاطّلاع على الفكر الإغريقيّ الفلسفيّ وعلى العلوم الإغريقيّة، وقد ترجموا كثيرًا من الكتب الإغريقيّة واللاتينيّة إلى لسانهم السريانيّ[١].

---

١ ـ فريحة، أسماء المدن والقرى اللبنانيّة وتفسير معانيها، صXXV - XXVIII.

وُجدت أقدم الكتابات الأثريّة الآراميّة المعروفة اليوم في شمالي سورية وتعود إلى بدء القرن التاسع. وتوجد بينها كتابة قصيرة من "تلّ حلف" أو "غوزانه". ثمّ تأتي كتابة اكتُشفت حديثًا نسبيًّا، حيث كُتب، على نصب نذريّ على بعد أربعة أميال ونصف شمالي حلب التي كانت تحت حكم دمشق وترجع إلى نحو عام ٨٥٠ ق.م، كُتب عليها إسم "بنحدد الأول"، ويقول نصّ الكتابة: "النصب الذي أقامه بار حدد بن طاب رمّان حاديان ملك آرام لسيّده ملقارت وقد نذره له لأنّه أصغى إلى صوته". وعلى ذلك فإنّ كتابة ملك حماة "ولَعَش" المشهورة والعائدة إلى نحو ٧٧٥ قبل الميلاد، والتي كانت تُعتبر أقدم كتابة آراميّة أصبحت في الدرجة الثالثة في قدمها. وقد أقيم نصب آخر من قِبَل هذا الملك الآراميّ لتخليد ذكرى إنقاذه من هجوم شنّه عليه سبعة عشر ملكًا بينهم ملوك دمشق وشمأل وعدد من المدن الفينيقيّة. وأتت كتابة أثريّة أخرى تركها الآراميّون من "زنجرلي" أو "شمأل"، وهي مدينتهم الرئيسيّة في الشمال، وفي ما سوى هذه الكتابات على النصب والمباني فإنّ هناك أوزانًا ومستندات كثيرة عليها كتابات آراميّة تتراوح بين القرن الثامن والقرن الخامس قبل الميلاد، وأوراق البردى الآراميّة التي كتبتها جالية يهوديّة في مصر العليا واكتُشفت في "الأفنتين" وهي جزيرة أسوان الحديثة، ترجع إلى ما بين ٥٠٠ و٤٠٠ قبل الميلاد.

ويذكر علماء مؤرّخون[1] أنّ اللغة الآراميّة قد تفرّعت، مع الزمن، إلى مجموعتَين هما المجموعة الشرقيّة في وادي الفرات وتمثّلها المنعيّة والسريانيّة، والمجموعة الغربيّة وتمثّلها الآراميّة التوراتيّة والترجوم ولهجات شمأل وحماة والتدمريّة والنبطيّة. وكانت تتكلّم المندعيّة طائفة غنوصيّة تسكن قرب الفرات بين القرنَين السابع والتاسع

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١: ١٨٤.

للميلاد. وأصبحت السريانيّة، وهي لغة إديسا، لغـة الكنـائس فـي سـورية ولبنـان وبـلاد الرافدين مع بعض الاختلافات المحليّة. واستُعملت بيـن القرنَيـن الثـالث والثـالث عشـر للميلاد ثمّ حلّت العربيّة محلّها.

العبرانيُّون

كان العبرانيّون رابع شعب ساميّ رئيسيّ سكن الهـلال الخصيـب بعـد الأموريّيـن والكنعانيّين والآراميّين. وكانت هجرة هذا الشعب على دفعات، والظنّ السائد أنّها كانت ثلاث هجرات لم يُحدّد تاريخها وظروفها بالضبط. ويُعتقد أنّ الهجرة الأولى التي بدأت من بلاد الرافدين، كانت في القـرن الثـامن عشـر قبـل الميـلاد؛ وأنّ الهجـرة الثانيـة قد اتّصلت بالآراميّين في القرن الرابع عشر قبل الميلاد؛ أمّا الثالثـة فهـي التـي أتـت مـن مصر والجنـوب الشـرقيّ بقيـادة موسـى ويشـوع فـي أواخـر القـرن الثـالث عشـر قبـل الميلاد[١].

ويعتـبر دارسـو تـاريخ الهـلال الخصيـب أنّ "الشـعب الـذي عُـرف فـي مـا بعـد بالعبرانيّ، أتى أفراده بشكل متجولّين ومغـامرين ومرتزقـة وجنـود لا ارتبـاط لهـم، ثمّ استقرّوا بالتدريج بين السكّان الذين سبقوهم، إذ كان الكنعانيّون يشكّلون معظـم السـكّان عندما أتى الروّاد أسلاف الشعب العبرانيّ من بلاد الرافدين، وكان الأموريّون يسـكنون المرتفعات التي لم يحتلّها قبلهم أيّ شعب مستقرّ بصورة كثيفة، وهذا ما أعطى للقادمين الجدد مجالاً للسكن، بينما كانت توجد أقوام أقلّ شأناً فـي أمـاكن متفرّقـة. وكـان هـؤلاء السكّان الذين سبقوا العبرانيّين في سكن المنطقة قد فـاقوا القـادمين الجـدد فـي مدنيّتهـم، فتعلّم هؤلاء منهم حرث الأرض وبناء المنازل وممارسة فنون السلم، وأهمّ مـن ذلـك:

---

١ - راجع: THEOPHILE J. MEEK, *HEBREW ORIGINS* (N.Y. 1936), PP. 3 SEQ.

القراءة والكتابة. وقد ترك العبرانيّون لهجتهم الساميّة القديمة واتّخذوا اللغة الكنعانيّة لغة لهم. وأصبح العبرانيّون القدماء، بوجه الإجمال، ورثة المظاهر الأساسيّة للحضارة الكنعانيّة الماديّة وأتباع كثير من العبادات والصفات الدينيّة الكنعانيّة"[1]..

أمّا قصّة هجرة الروّاد العبرانيّين الأوائل إلى الهلال الخصيب، فتبدأ مع أبي الديانات التي سُمّيت بالسماويّة: إبراهيم. وقد أفردنا جزءًا خاصًّا لهذا الشعب يمكن الرجوع إليه[2].

---

١ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١: ١٩٠ - ١٩١.

٢ - راجع: الجزء السابع من هذه الموسوعة.

الفَصلُ الثَّاني

الدِّيانةُ السومَرِّيَة

مَهدٌ حضَاريّ؛ المُعتَقَدات السُومَرِيَة؛

الرُجُوع الأزَليّ ودَوراتُ الصُعود والهُبوط؛ مركزيَة المكَان والزمَان؛

المَوتُ والخُلود؛ الأسَاطير السُومَرِيَة؛ أساطير تختَصّ بخَلقِ الإنسان؛

الطّوفَان السُّومَريّ؛ المعتَقدات الأكَاديّة؛

المعَتقدات البَابليّة؛ المعتَقدات الآشُوريَة.

مَهدٌ حضاريّ

كان السومريّون الذين أبدعوا حضارة وادي الفرات، يمثّلون طيلة الألف الثالث قبل الميلاد أهمّ جماعة حضاريّة في غربيّ آسيا كلّها. وأصبحت الكتابة المسماريّة التي اخترعوها والأفكار الدينيّة والروحيّة التي طوّروها والآداب التي أنشأوها، جزءاً من تراث سوريا، وذلك بواسطة خلفائهم البابليّين والأشوريّين. وصارت اللغة البابليّة المسماريّة الوسيلة الدوليّة للمراسلات الدبلوماسيّة والتجاريّة في كلّ غربيّ آسيا. ودخلت قصص بلاد الرافدين المتعلّقة بآلهتهم، ومنها قصّة الخليقة والطوفان في الأدب المسيحيّ في سورية. وتحوّلت هذه القصص على يد كتّاب العهد القديم إلى قطع أدبيّة تُعتبر من أجمل الروائع الأدبيّة التي عرفها الإنسان[1].

لذلك فإنّ الحضارات المبكرة في الشرق الأدنى القديم، تُقَدِّم لنا فرصة فريدة لدراسة نشأة الدين وتطوّره في منطقة ذات أجناس وثقافات مختلطة، ظهرت فيها في ما بعد ديانات التوحيد الكبرى: اليهوديّة، والمسيحيّة، والإسلام، التي تدين جميعها ببعض الدَّين للمراحل المبكرة في الفكر الدينيّ في بلاد ما بين النهرَين موطن السومريّين، والبابليّين، والآشوريّين. ولقد كشف علماء الآثار عن بقايا أقدم المستوطنات القرويّة: "جيرمو JARMO" في العراق، و"كاتل هييوك CATAL HUYUK"

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١: ١٤٩.

في تركيا، و"أريحا" في فلسطين، التي كانت موجودة بالفعل في الألف السابع أو السادس قبل الميلاد. وفي الألف الرابع تعلّمت مجموعات كبيرة من الناس في جنوب بلاد ما بين النهرَين، وهي التي تشكّل العراق الحديث، تعلّمت التحكّم في مياه نهر دجلة والفرات، وريّ السهول المحيطة بهما، وهذا التحكّم في البيئة، مكّن المدن من الاستقرار على ضفاف الأنهار والقنوات الرئيسة.

ومنذ عصور ما قبل التاريخ وهؤلاء الناس على وعي بالقوى الروحيّة التي يعتمد عليها وجودهم، وتشهد على ذلك: بقايا المعابد والهياكل، وأماكن التضحية وتقديم القرابين، والتماثيل الرمزيّة الصغيرة، وتماثيل الآلهة، وعادات الدفن. ففي "أوروك URUK" أو "أوراك ERECH"، وهي المسمّاة آراك في التوراة، والمعروفة الآن باسم الوركاء، المدينة القديمة في بلاد ما بين النهرَين على الفرات بالقرب من مدينة "أرو" التي كانت عاصمة بابل السفلى، ظهرت الكتابة التي وُجدت أوّلاً، والعائدة إلى حوالى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد، فنشأ بذلك مصدر جديد من الشواهد التي زوّدتنا بما يقرب من نصف مليون وثيقة مكتوبة على الطين، وكذلك بألواح الكتابة التي استخدمت العلامات المسماريّة، الأمر الذي مكّننا من تتبّع التطوّر الفكريّ لهذا الشعب، حتّى وصول الغزاة من الفرس والإغريق إلى هذه المناطق. وقد كشفت الحفريّات في الوركاء عن معبد "تاتا"، وهو مبنى على قمّة هرم غير منتظم من ثلاث درجات، كان جلجامش هو الملك الخامس عليها بعد الطوفان.

طوّر السومريّون خلال الألف الثالثة قبل الميلاد، وجهات نظر، كان لها تأثير هائل، لا على معاصريهم من السومريّين الأوائل فحسب، بل على خلفائهم أيضًا من البابليّين، والآشوريّين، والحيثيّين، والعيلاميّين، وسكّان فلسطين من الشعوب المجاورة الذين اعتنقوا معتقداتهم الأساسيّة، وكان تصوّرهم الرئيسيّ، في جوهره، هو أنّ الكون

يتّسم بالنظام، وأنّ كلّ ما يمكن أن يدركه الإنسان هو انعكاس لتجلّي العقل الإلهيّ ولنشاط خارق للطبيعة. والعناصر الرئيسيّة التي يتألّف منها الكون عند السومريّين هي: السماء "آن AN"، والأرض "كي KI" وتبدو الإلهة الأخيرة أشبه بقرص الغلاف الجويّ "إنليل LIL" أو الروح. وإسم "آن" في اللغة السومريّة يعني الأعالي أو السماء، ويعني رمزه بالخطّ المسماريّ "الإله" بصفة عامّة، ويسبق هذا الرمز كلّ أسماء الآلهة، وآن هو الإله الرئيسيّ في مجمع الآلهة السومريّ؛ أمّا "كي" فتعني الأرض، أو الأسفل، وهي زوجة الإله آن، ويظهر الزوجان معًا في النصوص البابليّة، وأنجبا ابنهما إنليل، وهو إله الجوّ والعواصف، وسيّد النسيم عند السومريّين. وهم يعتقدون أنّ البحر كان في البدء هو السبب الأوّل الذي انبثق عنه الكون المخلوق وتشكّلت فيه: الشمس، والقمر، والكواكب، والنجوم، وكلّ ما يتحرك في طريقه الإلهيّ المرسوم. وما يحدث في السماء يحدث على الأرض، ثمّ ظهرت النباتات والحيوانات والحياة البشرية. أمّا الكائنات التي تعلو على الإنسان، والموجودات غير المنظورة التي تتحكّم في الكون الكبير، وتتجسّد فيه، فكانت بالضرورة توصف بصفات بشريّة: من ذلك أنّها كالرجال والنساء، لها انفعالاتها الطاغية وجوانب ضعفها، كما أنّها تأكل وتشرب وتتزوّج وتنجب أطفالاً وتقتني خدمًا ومنازل، لكنّها على خلاف البشر: خالدة... "فالآلهة عندما خلقت البشر احتفظت لهم بالموت، وأبقت الحياة في يدها[1]".

---

١ ـ بارندر جفري، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ترجمة إمام عبد الفتّاح إمام ومكاوى د. عبد الغفّار، مكتبة مدبولي، ط٢ (القاهرة،١٩٩٦) ص٣٣ ـ ٣٤.

المُعتَقَدات

السُومَرِيَّة

إعتقد السومريّون، وفقًا لِما تقوله عقيدتهم الدينيّة، وهذا قد بقي قائمًا فـي نصـوص مفصلة منذ فجر العصر البابليّ القديم في حوالى ١٩٠٠ قبل الميلاد، أنّ لكلّ موجود كونيّ أو ثقافيّ قواعده وقوانينه الخاصّة التي تجعله يستمرّ في الوجود إلى الأبد، وفقًا للخطّة التي وضعها الإله الذي خلقه، وهي تُسمّى "مه ME" بالسومريّة. وكلمة "مـه" من أصعب المصطلحات في الديانة السومريّة، فهي تعني "القوى الإلهيّة"، وهي بهذا المعنى تشمل مؤسّسات الوجود، ونظام الكون الدنيويّ والسماويّ، وبواسطتها تتحكّم الآلهة في أمور العالم. والقائمة التي تضمّ مهامّ ووظائف "مه" التي قد تزيد عن المائة، وهي تشمل الطبيعة كالفيضان؛ وظائف الكهنة والملوك مع شعائرهم كالسيادة، والقانون، والحكم، والقضاء، والملك، والألوهيّة، والتاج، والعرش، والقوّة، والأسلحة، والكهانة؛ بالإضافة إلى مصطلحات أخلاقيّة كالعدل، والظلم، والحكمة، والحقيقة، والغنى، والعدوان، والأمانة، والصراع، والسلام، وتدمير المدن، والانتصار؛ ومصطلحات من الحياة الجنسيّة كالمعاشرة الجنسيّة؛ والفنّية كالكتابة، والموسيقى؛ والمهنيّة كالصناعات المعدنيّة، والصناعات الجلديّة، والبناء؛ والأسطوريّة كالهبوط إلى العالم السفليّ، والصعود منه؛ والنفسيّة كالخوف، والرعب، والضجر، والقلب المضطرب... غير أنّ هذه التناقضات الظاهرة في تعدّد الآلهة "POLYTHEISM" لم يكن يثير قلقًا عند رجال الدين السومريّين. وعندما حلّ عصر "فاره FARA" أو " شورباك" في جنوب الرافدين في حوالى ٢٥٠٠ قبل الميلاد، وضع السومريّون مئات الأسماء المقدّسة، وصنّفوا كلاًّ منها على أنّه إله، وكتبوا هذه الأسماء مع تصديرها بعلامة لأحد النجوم. وجعلوا لكلّ إله أو إلهة خاصيّة مميّزة، ومناطق نفوذ محدّدة، رغم أنّ كثيرًا

من تلك الآلهة كانت ثانويّة، لكنّهم جمعوها في أسرة تلتفّ حول إله قويّ بوصفها زوجات، أو أبناء، أو موظّفين، أو خدمًا. والإله في السومريّة هو "دينجر DINGIR"، يقابله "إيل" في الساميّة إيل[1].

تطوّرت العقائد الدينيّة السومريّة تطوّرًا بالغًا منذ الألف الرابع قبل الميلاد، حتّى وصلت إلى شكلها المتماسك الدقيق مع نهاية الألف الثالث قبل الميلاد. وأكسبها هذا التطوّر مرونة كبيرة لاستيعاب التغيّرات السياسيّة والاجتماعيّة والحضاريّة التي حصلت خلال ما يقارب الألفَي سنة ضاجّة بالأحداث. غير أنّ هذا التطوّر في العقائد الدينيّة السومريّة عبر السنين جعلها متناقضة أحيانًا، ذلك أنّ تطوير هذه العقائد لم يلغِ القديمة منها، بل أصبح الجديد متّصلاً بالقديم، ما أوجد بعض الارتباك في المفاهيم لدى عامّة الناس، ولدى الكهنة وأهل النخبة أحيانًا. كما أدّى ذلك التطوير التراكميّ إلى جعل عدد الآلهة يُقدَّر بالآلاف.

إعتبر باحثون أنّ مذهب "إضفاء الروح الحيّة على كلّ الأشياء ANIMISM"، هو أقدم معتقد مارسه الإنسان. ولعلّ الإنسان كان يعتقد قديمًا أنّ "الروح الحيّة" واحدة في جوهرها، تسري في كلّ شيء. وكان السومريّ يرى أنّ الألوهيّة تمثّل هذا المفهوم، فجعل لكلّ شيء إلها خاصًّا. وقد تطوّرت هذه العقيدة عند السومريّين من الإعتبار البدائيّ للعقيدة السحريّة الدينيّة التي مارسها الإنسان القديم نسبيًّا، إلى اعتبار أنّ لكلّ أمر إله يسيّره. وكان السومريّون يرمزون إلى الإله بكلمة "دنكَر DINGIR"، التي تفيد عن الإلوهيّة أو السموّ، بما في ذلك السماء والنجوم والكواكب التي في السماء. وكان رمز "دنكر" يسبق أسماء آلاف الآلهة التي وضعها السومريّون للنباتات والحيوانات ومظاهر الطبيعة. وقد سمّى الأكاديّون هذا الرمز "إلو" بعد سومر.

---

[1] ـ راجع: بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٣٥.

وإذ تصوّر السومريّون آلهتهم في البدايــة علـى صـور مظـاهر الطبيعـة والحيـوان والنبات، إلاّ أنّهـم طـوّروا تلـك الصـور لاحقًا بحيث أعطـوا الآلهـة صـورة الإنسـان، وأعطوها صفاته الكاملــة مـن حيث سـلوكه وخصـائصـه وعاداتـه وأعمالـه، فـأصبحت الآلهة تأكل وتشرب وتتناسل وتفرح وتغضب وتتألم... ولكنّها خالدة لا تموت. وسمّى الأخصّائيّون هذا الفكر الدينيّ بالــ"أنسنة" أو "التشبيهيّة ANTHIPRMORPHISM" . وبما أنّ هذه الآلهة التي تتكاثر عن طريق الولادة ولا تموت، فإنّ هذا المعتقد جعل عدد الآلهة، مرّة أخرى، يتزايد بشـكل تصـاعديّ، فنشأ بذلـك مبـدأ "التعدّديـة POLYTHEISM" للآلهـة. واستمرّ المعتقد على حالـه إلـى أن أخـذت تظهـر لـدى السـومريّين نزعـة الــ"تفريديّة HENOTHEISM " . وكان الدافع إلى هذه النزعة اعتقاد السومريّين بإلــه قومـيّ واحـد لهـم هو الإله "إنليل" الذي كان إله الهـواء والـروح والإلــه المسؤول عـن الأرض والملـوك والسلطة. والتفريد لا يعني التوحيد المطلق، بل إبراز وتضخيم إله واحـد علـى حسـاب الآلهة الآخرين من دون إلغائهم. وقد احتلّ الإله إنليل هذه المرتبـة، وكـانت تُجـرى لـه في كلّ المدن السومريّة طقوس العبادة، أمّا مدينته الرئيسيّة "نفّـر" ومعبـده فيهـا، فكانـا مجال طقوس مقدّســة كبرى، وكـان السـومريّون يحجّـون إليهـا مـن كـل بـلاد سـومر، باعتبارها "المدينة المقدّسة". ولم يستبعد بعض الباحثين[1] أن يكـون السـومريّون الجـدد، أثناء حكم سلالة أور الثالثة، قد استبدلوا إلههم القومي "إنليل" بإله تفريديّ آخر أو جديد هو إله القمر "نانا" أو "نانار" أو "سين" الذي هو ابن الإله "إنليل". فقد كانت سمة الديانــة السومريّة، في هذه المرحلة، مرتبطة بالإله "القمر"، وأصبـح ذكرهـا مرافقًا لذكـر هـذا الإله الذي خُصّصت له أكبر زقـورة سـومريّة فـي "أور". إلاّ أنّ البـاحث نفسـه يقـول:

---

١ ـ الماجدي، الدين السومري، ص٤٤.

"سنحتاج الكثير من الأدلّة لإثبات هذا الأمر الذي يمكن أن يكون مدعاةً لتبدّل جوهريّ في العبادة السومرية". على أنّ "التفريديّة" لا تعني التوحيد على الإطلاق، بل كانت النزعة التوحيديّة MONOTHEISM كامنةً في الدين السومريّ في صيغة إله السماء "آن"، فهو إله عالميّ مطلق عندهم على العكس الإله "إنليل" الذي هو إله السومريّين، الذي كان إلها قوميًّا خاصًّا بشعب محدّد، مثلما كان الإله "إيلو" هو الإله العالميّ الأوحد للأكديّين، والإله "شمش" هو الإله القوميّ لهم. ومثلما كان الإله "ماتور" أو "أمورو" هو الإله القوميّ للأموريّين، والإله "مردوخ" هو الإله القوميّ للبابليّين، والإله "آشور" هو الإله القوميّ للآشوريّين، والإله "بعل" هو الإله القوميّ عند الكنعانيين، والإله "حدد" هو الإله القوميّ عند الآراميّين، والإله "يهوه" هو الإله القوميّ عند العبريّين. وكانت جميع هذه الأقوام الساميّة تعبد الإله العالميّ الأوحد: "إيل"، بالإضافة إلى إلهها القوميّ. ولا يشكّ باحثون مطلقًا في أنّ الإله "إيل"، الذي أصبح رديفًا لـ "الله" عند العرب، كان مستمدًّا من الإله السومريّ "آن"، ذلك أنّ الإلهَين معًا كانا يُرمز لهما بإشارة الـ "دنكَر" الكتابيّة التي تشير إلى الجهات الثمانية، وكأنّها تشير إلى الكون كلّه، وكذلك تدلّ على الأعالي والسماء والنجوم. وقد ظهرت هذه العلامة باكرًا في الحضارة العبيديّة في الألف الرابع قبل الملاد في "تبة كَاورا". وبذلك تكون نزعة التوحيد السومريّة قد عبّرت عن نفسها بهذه الصيغة التي ظلّت تلازم الساميّين، من بعد السومريّين، حيث كانت جميع الديانات الساميّة القديمة تحمل التوحيد في صيغة الإله "إيل"[1].

---

١ ـ الماجدي، الدين السومري، ص٤٤؛ ويقول الماجدي هنا: لقد ورث السومريّون قبل غيرهم التوحيد النيوليثيّ الأنثويّ الذي كان محصورًا بالإلهة الأمّ بعد اكتشاف الزراعة في الشمال العراقيّ، ولكنّهم ورثوا معه الإنقلاب الذكريّ الذي قام به الإله الذكر والذي بدأ يظهر بعد الكالكوليث بشكل واضح، وكان هذا الإله الذكر هو "إله السماء" الذي كان يزخ بمنيه على الإلهة الأمّ الأرض بصيغة المطر، ولمّا تمّت الإطاحة الكليّة بالإلهة الأمّ ظلّت صورة الإله الذكر السماويّ مطلقة تجمع في شكلها نزعة التوحيد الأنثويّة القديمة، لقد كان هذا التراث هو ظهير التوحيد السومريّ الذي ظلّ مشوشًا بفعل كثرة الآلهة وتنوّع اختصاصاتها.

الرُجُـــــوع الأزلِـــــــيّ

ودَورات الصُعود والهُبوط

لعلّ المعتقد السومريّ كان أول مَن قال بفكرة "الرجوع الأزليّ" حيث تكون الطقوس الدينيّة بأكملها وكأنّها نوع من الرجوع إلى نقطة البداية. وبذلك يكون الإنسان الأوّل "لولو"، والإله الأوّل "دنكر"، واليوم الأوّل "أوريّا"، والمكان الأوّل والمدينة الأولى والمعبد الأوّل واللغة الأولى والكون الأوّل "الهيوليّ" كلّها مناطق انطلاق تصبح خارج الزمان وخارج المكان. أي أنّها تنتمي إلى المطلَق. وهذا يعني أنّ السومريّ عندما يمارس طقوس عبادته فكأنّه يحاول استعادة تلك الأوّليّات. ولذلك يقوم في لحظة الإستعادة هذه بإخراجها من الزمان المحدّد، أي أنّها تخرج عن تاريخيّتها وتتحوّل باتّجاه المطلق، وهذا يعني إلغاء الزمان التاريخيّ واستعادة الزمان الميثيّ. وهو ما ندعوه "الرجوع الأزليّ"، وقد سمّي كذلك "العود الأبديّ"[1]. ولا شكّ في أنّ ممارسة هذا النوع من الطقوس الدوريّة وفق فكرة "الرجوع الأزليّ" أو"العود الأبديّ"، كان سببًا واضحًا في رسوخ الأوليّات، أو النماذج الأولى، في لاوعي الإنسان. وإنّ النماذج الأولى التي تعبّر عن نفسها بشكل رموز باطنيّة تتحرّر في الحلم أو الفنّ أو الشعر، هي صدى مفردات "العود الأبديّ" التي كانت قد ترسّخت في اللاوعي الجماعيّ البشريّ منذ العصور الحجريّة وإلى الآن.

وقال باحثون إنّه "يمكن النظر إلى دورات الصعود والهبوط التي كان يقع فيها بعض الآلهة السومريّين مثل "دموزي" و"تنكَشزيدا" و"دامو"..، وهم يلقون في العالم الأسفل ليعاودوا الخروج منه، شرط أن يعودوا إليه دوريًا، يمكن النظر إلى إيقاعات

---

[1] ـ الماجدي، الدين السومري، ص٥١.

الهبوط والصعود هذه وكأنّها إيقاعات هبوط وصعود النفس البشريّة إلى مدارجها، وهذا ما يوحي مباشرة بفكرة الباطن والظاهر والحنين المتناوب بينها. وإنّ هذه الفكرة في الميثولوجيا السومريّة لا تختلف كثيرًا عن فكرة الصعود إلى السماء والهبوط منها إلى الأرض كما حصل مع "آدابا" و"إيتانا" كملكَين، ومع "دموزي" و"تنكَشزيدا" كإلهَين، حيث يجدهما "آدابا" عند بوابّة السماء العليا في خدمة الإله "آن"، خصوصًا أنّ الثابت هو وجود هذَين الإلهَين في العالم الأسفل وحركتهما الدوريّة منه إلى الأرض.. فما الذي رفعهما إلى السماء؟ وما الذي أعادهما إلى الأرض أو العالم الأسفل؟.

"إن حركات الصعود والهبوط هذه تذكّرنا بالنظريّات العرفانيّة "الهرمسيّة" و"الغنوصيّة" التي تشرح هبوط الذات الإلهيّة في مراتب ومدارج كوكبيّة، وصعود الذات البشريّة في مراتب ومدارج كوكبيّة. وهذا يعني الكشف "العرفانيّ"، لا المعرفيّ، عن وجود الإله وتحسّس الإنسان به. فلقد كانت هذه الأفكار السومريّة العرفانيّة هي مصدر العرفان الذي أخذ بُعده الحقيقيّ في الفلسفة الهرمسيّة والغنوصيّة والأفلاطونيّة الجديدة قبل وبعد المسيحية، وقد ظلّت الثقافات التاريخيّة تحتفظ بهذا المفهوم الدائريّ من الغياب والعودة إلى الظهور يتناوبان البشريّة[1].

مركزيّــة

المكَان والزمَان

إتّخذت مركزيّة المكان في المفهومَين العقليّ والروحيّ السومريَّين مكانةً أشارت إليها الأساطير والطقوس السومريّة. فقد كان السومريّون يرون أنّ سومر، هي مركز

---

١ ـ الماجدي، الدين السومري، ص٥١ ـ ٥٢.

العالم الذي يُحاط بمحيطٍ مائيّ مكوّن من البحر الأعلى، وهو البحر المتوسّط، ومحيط أسفل، هو الخليج، وأنّ مركز سومر هو "نفّر" (نيبور) المدينة المقدّسة التي كان يتوسّطها معبد "إنليل" وكان هذا المعبد يمثّل "عماد السماء والأرض"، كما كانت تمثّل "نفّر" هذا العماد. ولأنّ "إكور" كان يُسمّى "بيت الجبل"، لذلك كانت تتلاقى السماء والأرض على قمّة هذا الجبل. وكان في "نفّر" مكان آخر يعبّر عن مركزيّة الكون هو "أوزموا"، الذي كان يُطلق عليه اسم "رباط الأرض والسماء". وتذكره الأساطير على أنّه "سرّة الأرض"، لأنّه آخر منطقة انفصلت فيها السماء عن الأرض بفعل حركة ونموّ الإله "إنليل"، إله "نفّر" وإله الهواء. هذه الأفكار كلّها كانت تعبّر عن المركزيّة المكانيّة التي ترتبط بفكرة المكان الميثولوجيّ المثاليّ الذي "كان"، والذي يجب العودة الدائمة له لأنّه أصبح خارج الزمان والمكان. ولقد كان المكان الميثولوجيّ المعبّر عنه بالـ"منداﻻ المكانيّة"، هاجسًا دينيًّا عميقًا عند السومريّين. فقد كان جبل الكون المسمّى "آن ـ كي"، وهو الذي ظهر من إلهة الهيولى المائيّة "تمّو"، هو مركز الكون كلّه، ولذلك فقد ظهرت الآلهة عليه وبنت مقرّها فيه.

أمّا بشأن مركزيّة الزمان، فقد اعتقد السومريّون أنّ بداية رأس السنة هي بداية دوريّة جديدة للزمان كلّه. وبذلك شكل رأس السنة مركز الزمان المطلق، وكان يذكّر ببدء الزمان، وببدء زمان الخليقة على وجه التحديد. وعلى هذا الأساس كانت احتفاﻻت رأس السنة السومريّة احتفاﻻت دوريّة يُعاد فيها تذكّر الزمان الأوّل. ومن هنا اكتسبت كلمة "عيد" عند السومريّين نفس ما كانت تعنيه كلمة "سنة"، والكلمة السومريّة التي تعني العيد والسنة هي كلمة "إيزن". وقد كان هذا المفهوم السومريّ قائمًا على أساس ملاحظة الإيقاعات الحيويّة ـ الكونيّة، ويدخل في إطار نظام أوسع، هو نظام التطهيرات الدوريّة: النظافة، الصوم، الاعتراف بالذنب... عند نهاية الموسم وتجديد

الحياة دوريًّا. وقد كان هذا التجديد خلقًا جديدًا. أي تكرارًا للحياة يتضمّن إعادة قصّة الخلق وتوسّل آلهة هذه القصّة، وطردًا سنويًّا للعفاريات والأمراض والخطايا[1].

لقد كانت الأعياد إيقافًا فعليًّا لمدّة زمنيّة معيّنة وبدايةً لمدّة أخرى، أي إبطالاً للزمن الماضي وإعادة خلق زمن جديد، وهذا يعني إعادة بناء الزمن الميثيّ والبدئيّ والنقيّ والشروع في الخروج من "العماء CHAOSE" إلى "الكونيّة COSMOSE". ولم يكتفِ السومريّ بهذه الدورة الزمنيّة، بل قسّم الزمان كلّه إلى عدّة دورات منتظمة، وكانت أكبر هذه الدورات تسمّى "شار أو"، وسمّاها البابليّون الـ"سار"، وسمّاها الإغريق الـ"ساروس"، وهي عبارة عن ٣٦٠٠٠ سنة، باعتبارها دورة كونيّة تبدأ بها البشريّة بعصرها الذهبيّ وتنتهي إمّا بالحريق أو الطوفان. ويقودنا استبطان الكتابة المسماريّة التي يكتب بها هذا الرقم إلى أنّها على شكل دائرة مسماريّة (٣٦٠٠) يتوسّطها الرقم (١٠) الذي يشير إلى إله العاصفة "تنورتا" وكوكبه زحل المبشّر بالحريق أو الطوفان. وهناك دورات كونيّة أصغر، مثل دورة الـ"نيراس" التي تدوم ٦٠٠ سنة وتُسمّى بالسومرية "كَيش أو"، ودورة الـ"ساسوس" وقوامها ٦٠ سنة وتُسمّى بالسومريّة "كَيش"[2]...

وفي القرن الثالث قبل المسيح كان "بيروس BEROSE" أو "برعوشا البابليّ" ينشر في جميع أنحاء العالم الهلّينيّ، ومنه شاعت عند الرومان والبيزنطيّين، العقيدة الكلدانيّة المتعلّقة بـ"السنة الكبرى". ولقد كان "برعوشا البابليّ" سليل فكر متحدّرًا من أيّام سومر

---

١ ـ الماجدي، الدين السومريّ، ص٥٠؛ راجع: إلياد مرسيا، أسطورة العود الأبديّ، ترجمة نهاد خيّاطة، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر (دمشق،١٩٨٧) ص ١٠٠ ـ ١٠١.

٢ ـ الماجدي، الدين السومريّ، ص٥٠ ـ ٥١.

وربما قبلها. وفي هذه العقيدة يعتبر الكون خالدًا، لكنّه ينعدم ويُخلق من جديد دوريًّا في كلّ "سنة كبرى"[1].

المَـوتُ والخلُود

لاحظ الفكر السومريّ، كسواه من الشعوب، دورة الطبيعة وما فيها من خلق وفناء وتجدّد، فلاحظ ظهور النباتات الفصليّة واختفاءها، والولادة والموت عند الحيوان والإنسان، فحاك الأساطير الدينيّة حوا الخلق والتجدّد والخلود. وقد اعتقد السومريّون في البدء أنّ الموت هو نهاية كل إنسان، وأنّ الخلود من نصيب الآلهة. ولكنّ موت الإنسان لم يكن يعني فناءً مطلقًا، بل كان جسده يبلى داخل القبر، أمّا روحه فكانت تنفصل عن جسده وتنزل إلى عالم أسفل هو عالم الموتى. فقد اعتقد السومريّون في حياة بعد الموت، وكان الحاكم يُدفن في تابوت يوضع في قبو بُني من الحجر، ويُحاط بعدد من رجالاته وخدمه. وحرص أهل سومر على تزويد الميت بحاجيّاته الشخصيّة سواء بلفّها مع الجثّة أو وضعها بجواره وداخل التابوت. وكانوا يضعون خارج التابوت قاربًا صغيرًا مملوءًا بأواني فخّاريّة مختلفة الأحجام تحوي أنواعًا من القرابين، فقد اعتقدوا بأنّ الميت سوف يضطرّ في رحلته إلى العالم السفليّ إلى استخدام قارب مزوّد بأنواع المآكل والمشارب. ولقد أثبتت الحفريّات أنّ الناس كانوا يدفنون مع ملوكهم عددًا كبيرًا من الحاشية يقتلون في نفس اليوم، وتوضع جثثهم في الحفرة للقيام على خدمة حاكمهم، وكان ذلك حوالى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد في مدينة "آرو"[2].

---

١ ـ راجع: إلياد، أسطورة العود الأبديّ، ص١٥٧.

٢ ـ مظهر سليمان، قصّة الديانات، مكتبة مدبولي (القاهرة،١٩٩٥) ص٦٩ ـ ٧٠.

أطلق السومريّون على عالم الموتى أو العالم السفليّ إسم "كور"[١]، وعلى الروح التي تتحوّل إليه اسم "كَدم"، وصوّروها بما يشبه الطائر الشبحيّ المزوّد بالريش، وجعلوه شبيهًا في شكله لشكل جسد ووجه صاحب الروح. وينزل هذا الطائر إلى عالم "كور" المغبّر المترب ويبقى هناك أبد الدهر دون أن يخرج إلى الأعالي ثانية، وليس في العالم الأسفل "كور" نارٌ أو جحيم ولا عقابٌ أو ثواب. ويقصّ "أنكيدو" أحلامه على جلجامش ويصف العالم السفليّ بأنّ الحياة فيه كئيبة موحشة؛ فهي انعكاس شاحب للحياة على الأرض، ويروي له كيف سيق إلى بيت الظلام:

> ... إلى البيت الذي لا يغادره من يدخله، إلى الطريق الذي لا عودة منه، إلى المكان الذي لا يرى سكانه نورًا ولا ضياء، حيث الغبار طعامهم والطين قوتهم، عليهم أجنحة بدل الملابس، يعيشون في الظلام فلا يرون النور... في بيت التراب شاهدت الملوك، وتيجانهم مطروحة على الأرض، والأمراء الذين حكموا في القرون الخوالي[٢].

لم يفز بالخلود من البشر إلاّ شخصٌ واحدٌ هو "زيو سدرا" بطل الطوفان السومريّ الذي منحته الآلهة الخلود ووضعته في جزيرة "دلمون" حيث لا يصل إليه الناس ولا يتّصل بهم. وقد حاول بعض السومريّين من الملوك والحكماء نيل الخلود، مثل "أنميدار أنّا" و"آدبا" قبل الطوفان، و"إيتانا" و"جلجامش" بعد الطوفان، إلاّ أنّهم فشلوا. وحتّى الملوك الذين تمتّعوا بالألوهيّة في حياتهم لم يكن الخلود من نصيبهم، بل تحوّلوا في

---

١ ـ هناك أسماء كثيرة للعالم السفليّ باللغة السومريّة يبلغ عددها حوالي عشرين اسمًا منها: "كور" أي الجبل أو المكان القفر، و"كي ماخ" أي الأرض الكبيرة، و"كي غَال" أي الأرض العظيمة، و"أبسو" أي مياه الأعماق والعالم الأسفل، و"كي سود" أي الأرض البعيدة، و"أوروغَال" أي المدينة العظيمة، و"إي دموزي" أبي بيت دموزي؛ أمّا مداخل العالم السفليّ أو طرق الدخول إليه فهي: القبر، الحفر العميقة في الأرض، الجهة الغربيّة من أرض وادي الرافدين أي الصحراء الغربيّة، البوّابات الخاصّة مثل بوّابة أوروك، سلّم الآلهة الذي يربط بين العالم الأعلى والعالم الأسفل وهو مخصّص للآلهة فقط.

١ ـ ملحمة جلجامش، اللوح السابع: ٣٤ ـ ٤٢.

أفضل الأحوال أشباحًا محترمة تطوف في العالم الأسفل، حيث لها بعض الامتيازات، مثل سكناها في قصور ولبسها ملابس فاخرة. وحين قرّر جلجامش البطل أن ينتصر على الموت بعد نهاية صديقه أنكيدو التعيسة، كان يعلم أنّه يوجد خالد هو "أوتنابيشتيم"، فقال له هذا الأخير إنّه إذا توصّل إلى السهر ستّة أيّام وسبع ليال، يستطيع أن ينتصر على الموت، لأنّ النوم مشابه للموت. وقد فسّر باحثون هذه الرمزيّة "أن تبقى مستفيقًا" أي "أن تبقى واعيًا"، وكأنّ الوعي الدائم هو الذي يوصل إلى الخلود، لكنّ جلجامش نام. وهكذا يتبيّن أنّ الخلود مخصّص للآلهة، وأنّ البشر، حتّى لو كانوا أبطالاً، لن يحصلوا على الخلود[1].

فقد كان الخلود في معتقد السومريّين إذن حكرًا علىالآلهة، وكان بعض الآلهة موجودًا قبل خلق الكون، وخلق بعضه مع خلق الكون، وولد البعض الآخر في مراحل لاحقة. وفي جميع الأحوال كان الآلهة يتمتّعون إلى الأبد بالخلود. ولم يحدث أن مات إلهٌ موتًا طبيعيًا، وإن كان هناك بعض الحوادث النادرة مثل موت عدد من آلهة البناء "لامكَا" في منطقة "أوزموا" لخلق الإنسان من خلط دم هذه الآلهة المذبوحة بالطين. وهي أسطورة أكديّة تفسّر لماذا كانت روح الإنسان تبقى خالدة في العالم الأسفل، وذلك بسبب أنّها من أصل دم إله معاقب. فلا بدّ أن تبقى خالدة، ولكنّها أيضًا لا بدّ أن تبقى معاقبة في ذلك "الحبس" في عالم "كور" أبد الدهر. أمّا الموت الدوريّ لبعض الآلهة السومريّة فكان هو الظاهرة الأساسيّة في عقيدة الخلود، لأنّ هذا الموت لم يكن أبديًا، فقد ذهب بعض الآلهة إلى العالم الأسفل ولكنّ ذهابها كان موقتًا، وكانت الغايات منه تجديد العالم وإنعاشه بالخصب، وهذا شكل من أشكال الخلود أيضًا. ومن الآلهة

---

١ ـ الدسوقي ناصر، الحياة بعد الموت، جرّوس برس (طرابلس ـ لبنان،١٩٩٣) ص٢٠.

السومريّة التي كانت تموت دوريًّا: "دموزي"، و"تنجشزيدا"، و"دمو"، و"ليل"، و"ساتران"، و"تنكرسو"، و"تشباك"، و"آبو"[1]...

على الرغم من وجود الكثير من الأساطير التي تؤكّد على أهميّة سعي الإنسان وراء الحياة، مثل أسطورة الملك الثاني عشر من الملوك السومريّين بعد الطوفان البابليّ "إتانا ETANA"، الذي وُصف بـ"الراعي الذي صعد إلى السماء"، وكان "إتانا" عقيمًا، فنصحه إله العدالة "شمش"، أن يتوقّف عن بحثه عن نبتة الإنجاب عند حفرة كانت حيّة قد حَبست فيها نسرًا، وبأن يحرّر النسر، وعرفانًا بالجميل يقوم النسر بحمل "إتانا" الذي أعتقه من الأسر على ظهره، وينطلق به تجاه السماء إلى المكان الذي توجد به النبتة المقصودة، وعندما تغيب الأرض عن ناظرَيه، يمتلك "إتانا" الشعور بالخوف والقلق، فيقرّر الكفّ عن البحث والعودة إلى الأرض، إلاّ أنّ النسر و"إتانا" يسقطان على الأرض. وهكذا فقد حاول "إتانا" أن يرقى إلى السماء على أجنحة النسر، ولكنَّ محاولته قد باءت بالفشل، إذ إنّ الموت نصيب البشر رجالاً ونساء. بل إنّ "دموزي DUMUZI" الذي كان في الأصل ملكًا على أوروك، والذي قيل إنّه تزوّج الإلهة "إنانا"، كان لا بدّ أن يموت. وعندما هبط إلى العالم السفليّ راحت حبيبته تبحث عنه بغير جدوى، وبقي "دموزي" ليحكم تلك الأرض التي لا عودة منها. وعلى عكس الإعتقاد الشائع، وأيضًا على عكس الافتراض الذي افترضه باحثون في تفسيرهم للأسطورة وللطقوس الدينيّة بأنّها تمثّل البعث الذي يعبّر عنه الموت الموسميّ للنبات وعودة الحياة إليه، فإنّ "دوموزي" أو "تمّوز"، لم يعد إلى الحياة على الأرض مرّة أخرى، طبقًا لِما ترويه الأسطورة التي تتحدّث عن هبوط "عشتار" إلى العالم السفليّ. فلهذه الأسطورة

---

[1] ـ راجع: الماجدي، الدين السومري، ص٤٧ ـ ٤٩.

الكثير من الصور، فإنّ "دموزي" الراعي الذي تختاره الإلهة "إنانا" عشيقًا وزوجًا لها، يصطحب عروسه إلى أهل بيته، وفي الطريق يلقّنها آداب السلوك وكيف ينبغي عليها أن تتصرّف تجاه والدَيه، فتشعر الإلهة أنّ زوجها قد حطّ من شأنها وقلّل من أهميّتها، فتعاقبه وتتخلّى عنه وهو في العالم السفليّ. وفي النصّ الأكاديّ لملحمة جلجامش، عاقبت "عشتار" "تمّوز" أيضًا. أمّا في أسطورة "أدونيس" و"أفروديت"، فقد كان قرار "زيَوس" هو الذي حكم بأن يقضي أدونيس شطرًا من السنة تحت الأرض، وشطرًا فوقها، وهو شكل آخر من الأسطورة عبّر فيه الإغريق عن احتجاب أدونيس وعودته إلى الظهور مرة أخرى.

وهناك قَدْر من الغموض في نظرة بلاد ما بين النهرَين إلى الموت والحياة الأخرى، فالجحيم المظلم "أرالو ARALLU" أو "الأرض الهائلة"، أو "دار الأشباح"، موجود تحت الأرض، وهو العالم السفليّ أو عالم الأموات، وهو "وطن اللاعودة"، وهو عالم مظلم موحش، وإن كان إله الشمس يقوم برحلة ليليّة إليه عبْر بوّابته بعد أن يفرغ من دورته النهاريّة على الأرض، وأشعّته هي البصيص الوحيد من النور الذي يدخل إلى هذا العالم. وتبلغه أرواح المتوفّين عندما تعبر بالقوارب نهر "خُبرة HABOUR"، حيث تغدو الإقامة في العالم السفليّ جبريّة، لا مفرّ منها، حتّى أنّ العظماء والأبطال من الحكّام الأرضيّين الذين ارتقوا إلى مصافّ الآلهة، يتحوّلون إلى آلهة من آلهة العالم السفليّ، مثل جلجامش وإتانا. وفي ذلك العالم تكون حياة الأموات حياة دائمة مظلمة غير مبهجة ويحمل إله الشمس الضوء والطعام والشراب خلال رحلته الليليّة إليهم. وللعالم السفليّ نهرٌ يشكّل حدوده، وعلى الآلهة أن تعبر سبع بوّابات للوصول إليه. وينعكس هذا الاعتقاد على شكل القوارب التي عُثِرَ عليها في بعض القبور. وفي ذلك العالم تقوم مملكة "إريشكيجال ERISHKIGAL" وزوجها "نرجال NERGAL"،

فـ"إريشكيجال" هي إلهة العالم السفليّ[1]، وزوجها هو الإلـه "ترجـال"، وابنهـا ووزيرهـا الإله "تمتار"، حارس بوّابتها "تتى"، وأمينة سرّها وكاتبتها هي الإلهة "بعلـة صـيرى" أو "بلت صيرى" BELETERSTIM التي تقوم بتسجيل الداخلين كما في الرواية الأكاديّة، ومع "إريشكيجال" حاشيتها من الآلهة والموظّفين من صرعى الحروب بما في ذلك وزيرهما "أشروم" الإله الأكاديّ الذي تذكر الروايات البابليّة أنّـه بطل ومستشار الإلـه "ترجال"، وهو صديق البشر. وهؤلاء جميعًا يحتاجون إلى طعام وملابس وأدوات، شأنهم شأن الآلهة الموجودة على سطح الأرض، والبشر الذين يعيشون فوقهـا، وتعتمد مرتبة المرء في العالم الآخر على نوعيّة نشاطه ومكانتـه إبّان حياتـه، وعلى الشعائر الجنائزيّة التي كان يقيمها الأحياء من أجل روحـه، وعلى عدد أولاده، فكلّما ازداد عددهم ارتفعت مكانته. وفي بعض المعتقدات السومريّة أنّـه يتولّى الحكم على أرواح الموتى إله الشمس الذي يمرّ بالعالم السفليّ في السماء، كما ذكرنا، فيزوّدهم بالضوء الوحيد الموجود لديهم، كما يحكم عليهم أيضًا الإله "تنار" الـذي يقرّر نصيبهم. هؤلاء النزلاء في العالم السفليّ، يُطعمون ويسقون مياهًا باردة من زقاق الماء، وتلك مسؤوليّة الابن الأكبر الذي عليه أن يقوم في أوقات دوريّة بسكب السكائب تكريمًا للآلهة، وتقديم ولائم جنائزية ليقيم أود الأسلاف، فإذا ما رقدت روح "إتيمو ETEMU" في شخصٍ ما، بغير دفن، أو حُرمت من المساندة التي يقدّمها الأحياء، فإنّها تطوف بهم وتعذّبهم. وكانت أرواح الموتى تحصل بين الحين والآخر على الطعام والشراب المقدّم لها في الشعائر الجنائزيّة. وكان انقطاع الطعام والشراب والشعائر عنها يؤدّي إلى اعتمادها

---

١ - تصوّر السومريّون أنّه يحيط بالعالم السفليّ نهر فيه مراكب وملاّح يقوم بنقل أرواح الموتى من فتحات القبور إلى أرض العالم السفليّ الذي يحيط به سبعة أسوار يقف على كلّ سور أمام مدخل بوّابتها حارس جبّار. وفي قلب العالم السفليّ قصر "أريشكيكَال" ويُسمّى "أي كَالكينا" أي قصر العدالة، وهو مصنوع من اللاّزورد، وهناك قصور صغيرة لبعض الأرواح المهمّة، ويسيطر الغبار الكثيف على هذا العالم، ويوجد طينٌ وماءٌ عكرٌ أيضًا.

على الطين طعامًا والماء العكر شرابًا. ولذلك كان استمرار هذا الانقطاع يؤدّي إلى ضجر هذه الروح ثم غضبها وخروجها من العالم السفليّ إلى عالم الأحياء لتأكل من فضلات الشوارع، وتتربّص بالأحياء لتشعرهم بوجوب ذكرها وايفائها حقّها، وذلك بإلحاق الأذى بهم أو بالانتقام منهم لتسبّبهم في حرمانها الراحة في العالم السفليّ[1].

وكان الملوك يُدفنون، كالعامّة، في مقابر، أو في أسفل مساكنهم. وتضمّ القبور الملكيّة في أور (٢٦٠٠ ق.م) ما بين ٧٣ إلى ٧٤ من الأتباع والموسيقيّين، كما تشتمل على هدايا من الجواهر، وأواني، وأدوات موسيقيّة، ومزلجة للمدفن، وحيوانات لتجرّها، كما هي الحال في مقبرة "بو آبي PU - ABI"، وربّما كانت هذه الممارسات من أصول غير ساميّة، استُمدّتْ من خارج بلاد ما بين النهرَين، لأنّها مشابهة لتلك الطقوس المعروفة في مصر، وإن كانت تشير إلى حاجة الإنسان للتزوّد بالمؤن من أجل الحياة في العالم الآخر[2].

شكّلت قيامة الآلهة من العالم السفليّ ركنًا أساسيًّا من عقائد الدين السومريّ. وكان لها مداليل روحيّة وخصبيّة وميثولوجيّة هامّة. أمّا بعث الموتى من البشر فلم يكن واردًا ضمن العقائد السومريّة، وليس هناك ما يشير إلى عودة الأموات إلى عالم الأحياء، أو عودة الـ"كَدم" أي الروح إلى جسد الميت ثمّ نهوضهما في تكوين واحد

---

١ ـ اعتقد السومريّون بأنّه عندما يدفن الميت في القبر، تُسجن روحه على شكل طائر في العالم السفليّ، لكنّها تبقى على صلةٍ بعالم الأحياء لمدّة تتراوح بين سبعة وعشرة أيّام فهي تسمع مَن ينوح عليها وتبكي معه. أمّا عندما لا يُدفن وتبقى جثّته في العراء، فإنّها تتفسّخ. لكنّ الروح تخرج من صدر الإنسان، مع آخر نفس له، على شكل طائر، وتطير باتّجاه مغرب الشمس، ويبدو أنّها تبقى مع الشمس في شروقها وغروبها، لكنّها أثناء النهار بشكل خاصّ، تتحوّل إلى روحٍ شرّيرة تهاجم الأحياء وتسبّب لهم الأذى والمرض وربّما الموت. لذلك كانوا يشدّدون على وجوب دفن الميت؛ راجع: حنون نائل، عقائد ما بعد الموت، دائرة الشؤون الثقافيّة العامّة (بغداد،١٩٨٦) ص١٢٣.

٢ ـ راجع: بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٤٦ ـ ٤٩.

حيّ. أمّا الإشارات الخاصّة بالإلهة "كولا"، إلهة الشفاء في "إيسن" التي كانت توصف بأنّها "الملكة التي تعيد الحياة للموتى"، فهي صفة إعجازيّة لإلهة طبيّة كان همّها شفاء المرضى، ومن أجل المبالغة وُصفت بهذا الوصف[1].

وإذا كان السومريّون غير معنيّين بمفهوم الثواب والعقاب، فإنّ البابليّين، بما لديهم من ولع بالنظام، وضعوا قوائم بجميع أنواع الظواهر الملاحَظة، بما في ذلك الأخطاء التي تستوجب، في ما يبدو، القصاص الإلهيّ، في صورة المرض أو الإضطراب، بل وحتّى الموت. أمّا نتائج الأفعال الحسنة فكانت تسجّل أيضًا. وهناك نصوص من التعاويذ تصف الإثم بأن "يأكل الإنسان ما حَرَّمَهُ عليه إلهه أو آلهته"، وهو "من يقول لا بدلاً من أن يقول نعم، أو يقول نعم بدلاً من لا"، وهو "مَن يشير بإصبعه إلى مواطن باتّهامٍ باطل"، و"هو الذي يقول ما لا يجوز قوله"، و"هو الذي يحتقر إلهه أو يسخر من آلهته"، و"هو الذي ينطق بالباطل ولا يحكم بالحقّ"، و"هو الذي يظلم الضعيف ويباعد بين الإبن وأبيه وبين الصديق وصديقته ولا يعتق الأسير". ويمكن أن تُغفر هذه الخطايا بتلاوة تراتيل التوبة والصلاة، أو التفجّع والنواح. كذلك يمكن التحرّر منها بتقديم قربان التكفير الذي يحلّ فيه الحمل مكان الإنسان، غير أنّ هذا القربان يكلّف كثيرًا بالنسبة لعامّة الشعب الذين يستطيعون عند الحاجة الماسّة استدعاء كاهن متخصّص في طرد الأرواح الشرّيرة لتلاوة التعاويذ المناسبة من كتبه، وعندما يكون سبب المرض مجهولاً، أو عندما تكون حالة المرض ناتجة عن لمسةٍ من يد الإله أو الروح أو الشيطان، فإنّ الطقوس المصاحبة تنصبّ في العادة على تحويل الشرّ إلى شيء جامد، فينقلب إلى شيء لا حول له ولا قوّة بفعل رمزيّ، كربط تمثال صغير من

---

١ ـ الماجدي، الدين السومريّ، ص٥٦ ـ ٥٧؛ راجع: (أنظر LANGDON S.H., SUMERIAN LITURGIES AND PLASM (PHILADELPHIA,1919) P. 3060.

الطحين أو الخشب للمريض المعذّب، أو إذابة تمثال من الشمع أمام النار. كما يستدعى الكاهن كذلك كلّما كان ذلك ضروريًّا للتغلّب على قوّة عدوّ أو السيطرة على أخطار قوى تفوق الطبيعة تتهدّد بناءً ما. أمّا العذاب الجماعيّ، فكان موضوع المرثيّات والطقوس الدينيّة، غير أنّ عذاب الفرد يخلق مشكلة، فأحد نصوص أدب الحكمة المسمّى باسم السطر الأول فيه "لأمتدحنّ ربّ الحكمة لدلول LUDLUL"، يمكن أن يقارن بينه وبين سفر أيّوب، حيث إنّه يصف رجلاً غنيًّا يفقد جميع ممتلكاته، كما يفقد صحّته وربّما عقله أيضًا لسبب مجهول، وهو يحاول عبثًا اكتشاف السبب من خلال كهنة التعاويذ والرقى، وتأويل الأحلام، وغيرهم. ويتعرّض لتوبيخ أصدقائه وأسرته كلّما ناجى نفسه ليعرف الأسباب الغامضة للشر، ثم لا يجد حلاًّ للمشكلة إلاّ بالتوجّه إلى الإله "مردوخ" بالتسبيح والدعاء، وذلك يعني أنّه وجد الجواب في مشيئة هذا الإله وهواه. وتعالج "التيوديسيّة" البابليّة" أي "دراسة التدبير الإلهيّ في الكون"، تعالج الموضوع نفسه في صورة قصيدة من نوع خاصّ على هيئة حوار بين المعذّب وصديقه، فعندما يعرض الأول وجهة نظره في انتشار الظلم، فإنّ الصديق يردّ عليه بالحجّة المعتادة، وهي حجّة ظاهرة التناقض تقول: إنّه ما دام الآلهة ينظّمون الكون ويسيطرون عليه، فإنّ أساليبهم لا يمكن التكهّن بها، غير أنّ التقوى مفيدة باستمرار في نهاية المطاف[1]. غير أنّ هذا لا يؤكّد لنا إذا ما كان البابليّون يعتقدون بفكرة الثواب والعقاب بعد الموت.

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص ٥٥ ـ ٥٦.

الأسَاطيـر
السُومَريَّة

إذا كانت العقائد الدينيّة السومريّة تشكّل الوجه النظريّ للدين السومريّ، والطقوس والشعائر السومريّة تشكّل الوجه العمليّ للعقيدة الدينيّة، فإنّ الأساطير تربط بينهما وتشكّل المتن الحكائيّ لهذه العقيدة الدينيّة. فالمناقشات الفلسفيّة المتعلّقة بأدوار بعض هذه الآلهة وقواها النسبيّة، وجدت تعبيرًا عنها في الأساطير. وقد وُضعت، في الأعمّ الأغلب، لتفسير الوقائع الكوسمولوجيّة والمعتقدات الشائعة.

يعتبر باحثون[1] أنّ المدوّنات السومريّة لا تسعفنا بأسطورة خاصّة عن خلق الكون، ولكنّنا نعرف من مقدّمات القصائد والأساطير الأخرى أنّ الكون في نظر السومريّين ظهر من الإلهة السومريّة الأمّ الأولى "نمو NAMMU"، وهي إلهة هيوليّة تحرّكت فيها إرادة الخلق وتصارعت الحركة مع السكون ونتج عن ذلك تكوّن الكون "آن ـ كي" الذي يعني "السماء ـ الأرض"، وهو جبل كونيّ يعوم وسط مياه "نمو". وكان السومريّون يسمّون الزمان الأوّل الذي بدأ فيه الخلق "أوريا URIA"، وهذا يعني أنّ ثلاثيّ الخلق الأوّل عند السومريّين كان مكمّلاً لبعضه، حيث المادّة الأولى "نمو"، والزمان الأوّل "أوريا"، والمكان الأول "آن - كي"... وبهذا الثالوث التكوينيّ يتحرّك الوجود كلّه وتضيء استعادته الدائمة في الطقوس والشعائر الدينيّة محور هذه الطقوس. فإن "نمّو" تمثّل "العماء CHAOS"، أمّا "آن - كي" فيمثّل "الكون COSMOSE"، وزمن الانتقال من العماء إلى الكون هو الزمن الأوّل "أوريا". وكانت أعياد رأس السنة السومريّة تمثّل محاولة لاستعادة الزمن الأوّل "أوريا"، ولذلك كانت هذه الأعياد تتضمّن

---

١ ـ الماجدي، الدين السومريّ، ص١١١.

استعادة قصّة الخليقة من جديد، بل وتتضمّن ما يشير إلى الخروج من العماء إلى الكون عن طريق عودة العالم إلى الفوضى ثم تدرّجه إلى النظام. وكذلك كان بناء المعابد وتمثيلها بالجبال الكونيّة وإطلاق تسمية "صلة بين الأرض والسماء" عليها تعني استعادة خلق المكان الأوّل. وكانت الزقورات السومريّة إحياء لهذا الجبل الكونيّ "آن ـ كي"، وقد كان ينظر إليها السومريّون على أنّها مركز العالم وسرّ الكون. وإنّ مصطلح "دور ـ آن ـ كي" الذي كان يشير إلى زقورات "نفّر" و"لارسا" و"أور" وغيرها، كان يمثّل هذا التوجّه تمامًا، وكانت المعابد تبنى في الغالب قرب أو فوق المياه، تمثّلاً للحظة الخليقة الأولى واستعادةً لها[1].

وتستكمل عملية الخلق نفسها عندما يمثل "آن" السماء و"كي" الأرض في الجبل الكونيّ "آن ـ كي"، وهما في وضع مضاجعةٍ والتصاق حيث يكون "آن" العنصر الذكريّ و"كي" العنصر الأنثويّ، وينشأ عن ذلك ولدهما "إنليل" ومعناه "سيّد الهواء"، الذي يولد بينهما ويكبر حتّى يقوم بفصلهما تمامًا حيث يرتفع الإله "آن" إله السماء الأعلى وتنخفض الإلهة "كي" إلهة الأرض إلى الأسفل. ثم يقوم الإله "آن" بإخصاب الإلهة "كي" من جديد عن طريق المطر الذي يساهم في تحريكه الهواء، وينتج عن ذلك ولادة الإله "إنكي" وهو إله الماء الذي سيملأ الأرض ويصبح أيضًا إله الأرض مع الإلهة "كي". وبولادة هؤلاء الآلهة الأربعة يكون الكون بمعناه البدئيّ قد اكتمل حيث تميّز الآلهة "آن، كي، إنليل، إنكي"، وأصبح كلّ منهم إلها لواحد من أوجه الطبيعة الأربعة: السماء، الأرض، الهواء، الماء، وهي العناصر الأساسيّة الأربعة للكون كلّه. وهكذا يستمرّ انتظام الكون بتفاصيله، حيث يظهر الكون السومريّ في النهاية طافيًا أو

---

١ ـ الماجدي، الدين السومريّ، ص١١١؛ راجع: إلياد مرسيا، المقدّس والمدنّس، ترجمة عبد الهادي عبّاس، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع (دمشق،١٩٨٨)ص٣٧.

سابحًا فوق بحر هيوليٍّ من الماء، تمثّله الإلهة السومريّة الأمّ "تمّو". أمّا الكون نفسه فيتكوّن من خمسة أقسام أساسيّة هي: العالم الأعلى ANUNNA، وهو الفضاء الذي يعلو السماء، حيث تسكن الآلهة في مقرّها والذي يعني بالسومريّة "بذور الحياة الأميريّة"؛ والسماء AN، وهي سطح صلب على شكل قبّة يحيط قرص الأرض الذي تحتها؛ والقسم الثالث هو الفضاء LIL، وهو الفراغ بين السماء والأرض والذي يمتلئ بمادّة اسمها "ليل" أي الهواء والتي تدلّ على الظلمة، كما أنّها تدلّ على النفس والروح، وتسبح في هذه المادّة الكواكب والنجوم المكوّنة من نفس مادّة الهواء إلاّ أنّها مشرقة ومضيئة؛ والرابعة هي الأرض KI، وهي قرص مدوّر منبسط يطفو على محيط مائيّ حوله وتحته، وكان السومريّون يرون أنّ هذا المحيط المائيّ يمتدّ من الشمال مثل قوس مائيّ ويسمّونه "البحر الأعلى" وهو البحر الأبيض المتوسّط، ومن الجنوب البحر الأسفل وهو الخليج العربيّ، أمّا البحر الذي تحت الأرض فهو البحر العميق ويُسمّى "أبسو" حيث يسكن الإله إنكي؛ يبقى القسم الخامس وهو العالم الأسفل KUR، وهو الفضاء الذي يقع تحت الأرض والأبسو، وتعيش فيه آلهة العالم السفليّ، وتسكنه أرواح الموتى من البشر[1].

بيد أنّ الإجابة عن السؤال حول أصل العالم، جاءت في الدين السومريّ، بحسب باحثين آخرين[2]، في أساطير مختلفة اشتركت فيها الآلهة، فقد كان مولد القمر، مثلاً، موضع قصيدة. في حين أنّ ملحمة التكوين البابلية "إينوما إيليش ENUMA ELISH" التي تعني "عندما في الأعالي"، وهي واحدة من ملاحم الخلق عند البابليّين، وقد سُمّيت بكلمات الافتتاحيّة "عندما في الأعالي"، تعزو خلق السماوات والأرض إلى البطل

---

١ - الماجدي، الدين السومريّ، ص١١٢ - ١١٣.

٢ - بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٤٢ - ٤٣.

"مردوخ" أو "مردوك" الذي حارب "تيمات TIAMAT" تنّين البحر" وقتلها، ثمّ شقّها نصفين فانفتحت كالصدفة، فصنع السماء من نصفها الأول والأرض من نصفها الثاني.

قبل ذلك لم يكن في الوجود سوى المياه الأولى ممثّلة في ثلاثة آلهة هي "أبسيو" و"تيمات" و"ممو"، أمّا أبسيو فهو الماء العذب، وتيمات زوجته هي الماء المالح، وممو هو الأمواج المتلاطمة. فلم يكن لا سماء ولا أرض، لا آلهة ولا بشر، لا شيء من ذلك أبدًا سوى الفضاء والمحيط، أبي كلّ شيء، والمياه الممتدّة إلى ما لا نهاية، بكلّ ما فيها من اضطراب وفوضى، تضرب كلّها الأطناب، وتُخرج من بعد كلّ شيء حيّ. ولم تكن المياه قد تشكّلت بعد في محيطات وبحار، أو بحيرات وأنهار، بل كانت كلّها شيئًا واحدًا واسعًا إلى غير حدود، عميقًا إلى اللانهاية، أمّا المستقبل، فما كان يبدو منه شيء قطّ، لا شيء سوى ظلمة أخرى حالكة، أشدّ سوادًا من أعماق الليل نفسه. وتعاقبت الأزمان حتّى جاء زمن اختلط فيه الماء بالفضاء، ومن اختلاطهما خرجت أشياء أخذت تنمو وتتّخذ لها أشكالاً عديدة غريبة، ثمّ ظلّت ترتفع حتّى استقرّت في أعلى، وكان منها كلّ آلهة النّور. وأطلّت تيمات إلى المخلوقات الجديدة فملأها الفزع، إذ ما كانت قطّ من طينتها، ولا تشكّلت أبدًا بأشكالها، فهي لم تكن تعرف في حياتها سوى الظلام والفوضى والاضطراب، أمّا الذين يعيشون في أعلى، فلا يرون غير النور والنظام والاستقرار، وكان هذا كلّه عكس ما تريد، بل كان هذا كلّه أوّل أسباب الحقد والغضب والثورة على آلهة النور. وقرّرت "تيمات" أن تتخلّص من المخلوقات الجديدة، وأن تشنّ عليهم حربًا لا هوادة فيها. وظلّت تعمل بلا انقطاع، فمن جوفها جاءت الوحوش المخيفة المفترسة وانطلقت الثعابين المهولة ذات السمّ، وعلى سطح الماء برزت رؤوس التنانين بشعة تثير الرعب، وخرجت الكلاب مفترسة لا مثيل لوحشيّتها، والعقارب مخيفة سوداء كالمردة، ومن كلّ مكان انطلقت حيوانات أخرى كسيول

شرّيرة مجنونة تتحرّك تحت إمرة الوحش "كنجو" العملاق، الذي وعدته تيمات بالزواج وإعطائه ملك كلّ شيء إذا تغلّب على آلهة النور وسحقهم بذراعه القويّ الجبّار.

وفوجئ الآلهة بعدوان تيمات، وكان أوّل مَن عرف نواياها هو الإله "آي" الذي ساق الخبر إلى الإله "أنصار". وعجب هذا لموقف تيمات، وامتلأ قلبه حنقًا وسخطًا، يختلط بالخوف والرعدة ممّا قد يحلّ بمجتمع الآلهة. وانطلق أنصار إلى الإله "أونو" فكلّفه الذهاب إلى تيمات يسألها عن سرّ تحدّيها للآلهة. وانطلق أونو إلى مملكة تيمات. غير أنّه ما كاد يقترب حتّى نهض له "كنجو" الوحش المارد المستلقي إلى جوار تيمات، وهاجمه في شدّة وجنون. وتوقّف أونو ثمّ حرّك قدميه إلى الخلف ثمّ أدار ظهره وولّى الإدبار هاربًا يجري من الحيوان الصاخب المهول.

وتوالت مواكب الآلهة واحدًا إثر الآخر، لمقابلة تيمات، ولكنّ أحدًا منهم لم يستطع الوصول إليها أو مناقشتها ولا عرف أحد منهم كيف سيبحث معها سرّ ذلك الغضب العنيف. وجلس الجميع ذات يوم يبحثون الأمر، وكان بينهم الإله "مردك" أو "مردوخ" الذي لم يكن قد جرّب حظّه مع تيمات من قبل، ومن خلال فشل الجميع، أطلّوا على مردك وطلبوا إليه أن ينازل الإلهة المتوحّشة. وبغير خوف انحنى لهم مردك وقد قبل النزال بشرط أن يقرّ له الجميع متى انتصر بأنّه هو الأقوى ولا أحد أقوى منه. ولم يكن أمام آلهة النور بدّ من القبول، ومُنح مردك السلطة السماويّة ليكون له حكم الكون كلّه.

وتطول الأسطورة التي تنتهي بتغلّب مردك على تيمات بقتلها، وبقتل وأسر أعوانها من وحوش بمَن فيهم التنّين الهائل الذي انحنى مردك فوق جثّته وأخذ منها حبوب القضاء والقدر التي أعطتها له تيمات المذبوحة، تلك الحبوب التي تمنح النفوذ والسلطان على المصائر لكلّ من يحملها. وحملت رياح الجنوب دماء تيمات إلى أماكن

سريّة مجهولة حين كان مردك قد انحنى من جديد على جثّتها وشقّها جزءَين مستطيلَين: رفع أحدهما ليكوّن السماوات، وخفض الآخر ليكوّن الأرض. وعندما انتهى مردك من رفع السماء، نثر على صفحاتها الكواكب لتضيء، ولتجري في طريق منتظم مرسوم. وجعلها مكانًا لإقامة الآلهة "أونو" و"بعل" و"آي"، أمّا الآلهة الآخرون فقد قسّم عليهم الكواكب ليكون كلّ كوكب بيتًا لإله. ثمّ قسّم السنة وجعل لكلّ شهر ثلاثة كواكب. كما جعل لإله القمر حكم الليل وإضاءته، ومنحه كلّ شهر يومًا يستريح فيه. أمّا الشبكة الهائلة التي اصطحبها في معركته مع تيمات، فقد جعل لها كوكبًا ومعها قوس، وأمّا الرياح التي ساعدته في القضاء على تيمات فقد جعل لكلّ منها كوكبًا جديدًا. وإذ انتهى مردك من إقرار كلّ إله فوق كوكبه، وضع نفسه هو الآخر في كوكب كان أكبر من كلّ الكواكب الأخرى، وجعله المصدر الرئيس للنور في صفحة السماء، غير أنّ مردك لم ينس الأرض عنما كان يرفع السماء، فقد كانت الأرض التي وضعها في حاجة هي الأخرى إلى معجزة. وأطلّ مردك وهو يفكّر. لقد كانت الآلهة في حاجة إلى من يصلّي لها ويعبدها. إذن، فلتكن المعجزة هي خلق الإنسان. وانحنى مردك على الأرض وشرع يعجن التراب بدمائه، ويصنع من الطين ناسًا تقوم على خدمة الآلهة والصلاة لهم وعبادتهم، وهكذا خلقت البشريّة[1].

وهناك ملحمة أخرى تصف تكوين الأرض بطريقة أكثر واقعيّة، فالإله يربط قصبات بعضها إلى بعض ويبسط الأرض فوقها على طريقة تكوين القرى في المستنقعات الجنوبيّة في بلاد ما بين النهرَين.

وتعود إحدى الأساطير السومريّة، واسمها "أنيمكار وإله أراتا" إلى العصر الذهبيّ، في الفردوس قبل الهبوط إلى الدنيا فتقول:

---

[1] - راجع: مظهر، قصّة الديانات، ص٥٨ - ٦٣.

"في تلك الأيّام لم يكن هناك حيّة ولا عقرب، لم يكن هناك سبع ولا ضبع ولا كلب شرس ولا ذئب، لم يكن هناك خوف ولا رعب، لم يكن للإنسان منافس ولا غريم، كانت بلاد الغرب "مارتو MARTU" آمنة مطمئنة، وكان الكون جميعه والناس كلّهم يمجّدون إنليل بلسان واحد[1]..."

وهناك أسطورة لـ"إنكي"، تتحدّث عن أرض الأحياء الطاهرة المشرقة، فتبدأ بوصف أرض "دلمون DILMUN" على الخليج العربيّ، والتي "هي مكان طاهر، مكان نظيف، أرض دلمون هي الجنّة... ها هنا كلّ شيء في سلام، ليس فيها شرّ ولا قبح ولا شيخوخة ولا مرض، وقد استقرّ فيها الإله إنكي والإله "ننخرساج"، وكان كلّ شيء متوفّرًا فيها إلاّ المياه العذبة التي تخصب أرضها. فتطلب الآلهة من إنكي توفير الماء، ويطلب إنكي من إله الشمس "أوتو" استخراج الماء من الينابيع، فيفعل ذلك وتتفجر الينابيع والآبار وتظهر الأهوار وتستصلح أرض دلمون فأصبح المكان جنّة حقيقيّة، ومرتعًا للآلهة الخالدين[2]. وإكمالاً لخصب الطبيعة هذا يقوم الإله إنكي بإخصاب الإلهة ننخرساج التي تلد بعد تسعة أيّام تعادل تسعة شهور بدون ألم الإلهة "ننسار" سيّدة الخضار والنباتات التي تؤكل". وعندما تكبر ننسار ويراها أبوها تتنزّه يعجب بها ويضاجعها وينجب منها الإلهة "ننمو"، وهي "سيّدة النباتات ذات الألياف"، وتتكرّر الحادثة مع حفيدته الحرام لينجب منها "تنكورا" وهي "سيّدة الأصباغ" التي يضاجعها فينجب منها "أتُو" إلهة النسيج التي يضاجعها بعد إغواءات عدّة وينجب منها ثمانية أنواع من النباتات التي يقرر إنكي أن يعطيها أسماء، فيقوم وزيره "إسمود" بقطع جزء

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٤٤.

٢ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٤٤ ـ ٤٥.

من كلّ نبتة، وعندما يتذوّقها إنكي يطلق على كلّ واحدة اسمًا. ويبدو أنّ هذه النباتات المحرّمة بسبب خطايا إنكي المتكرّرة مع بناته وحفيداته، كانت نباتات سامّة. وبسبب ذلك تقوم "ننخرساج" بترك إنكي لمصيره المحتوم، ويفعل السمّ فعله في جسد إنكي ويصبح إنكي مهدّدًا بالموت، وعند ذاك يحزن مجمع الآلهة، لكنّ الثعلب يذهب إلى "إنليل" ويطلب منه مكافأة مقابل أن يستطيع إقناع ننخرساج بالعودة، فيعده إنليل أن يزرع له شجرة "كشكانو" وهي شجرة إنكي المقدّسة وأن يصبح مشهورًا. وينجح الثعلب بإقناع ننخرساج في عودتها إلى إنكي الذي أصبح مريضًا بثمانية أمراض بسبب أكله من النباتات السامّة المحرّمة، وتبدأ بفحصه وتسأله ما الذي يؤلمه فيعدّد لها ثماني مناطق في جسده أمرضتها النباتات الثمان، فتقوم الإلهة ننخرساج بخلق ثمانية آلهة لكلّ مرض في الأعضاء السابقة، وهكذا يشفى الإله إنكي من أمراضه، ثمّ يقوم بتقرير مصير هذه الآلهة الثمانية لمهمّات أخرى، بالإضافة إلى دورها الطبّيّ والعلاجيّ الذي أثبت جدواه وهذه الآلهة هي: "آبو" لشفاء مرض الرأس وأصبح ملك النباتات؛ "تنسيكَلا" لشفاء مرض الفكّ وأصبحت إلهة "مكَان" أي عُمان والإلهة الحامية لـ "دلمون"؛ "تنكيري" لشفاء مرض الأنف وأصبحت زوجة الإله "تنازو" في العالم الأسفل؛ "تنكاسي" لشفاء مرض الفمّ وأصبحت إلهة الشراب أو "الإلهة التي تُشبع شهوة القلب"؛ "نازي" لشفاء مرض الحنجرة وأصبحت زوجة الإله "تندارا"؛ "آريمو" لشفاء الذراع وأصبحت زوجة الإله "تنكَشزيدا"؛ "إينشاج" لشفاء المتون وأصبحت زوجة الإله "دلمون"؛ "تنتي" لشفاء الضلع، وأصبحت إلهة الشهور، ويقول باحثون إنّ أسطورة هذه الإلهة كانت مصدر الأسطورة التوراتيّة حول حوّاء وخلقها من الضلع[1]. فبما

---

١ ـ الماجدي، الدين السومريّ، ص١١٥ ـ ١١٧؛ راجع: كريمر صموئيل نوح، السومريّون، ترجمة د. فيصل الوائلي، منشورات وكالة المطبوعات (الكويت، لا.ت.) ٢٣٩ ـ ٢٤٩.

أنّ "ننتي" قد اختصّت بعلاج الضلع، اتّخذت اسمًا يمكن أن يعني "سيّدة الضلع" أو "السيّدة التي تُحيي"، وهي تذكّرنا بحوّاء التي أُخذت من ضلع آدم على نحو ما جاء في سفر التكوين[1]. ويرى باحثون أنّ هذه الأسطورة تلقي الضوء على علاقة إنكي وننخرساج، كما أنّها تصف السلالة النباتيّة للإله إنكي، وتتضمّن بعض رموزها إشارات عميقة تخصّ أسرار إنكي[2].

وهناك أسطورة "إنانا" و"إنكى" التي تروي كيف نقلت فنون الحضارة "الـ مه ME" من مدينة "إريدو ERIDU" إلى مدينة "أورورك"، قد حاولت أن تفسّر كيف أصبحت المدينة الأخيرة المركز الروحيّ الأوّل في سومر بفضل الإلهة "إنانا"، وهي الإلهة الأمّ ذات العبادة الواسعة الإنتشار؛ فقد زارت "إنانا" الإله "إنكي" المطّلع على قلب الإلهة ذاتها، في مدينة "أريدو"، فأقام لها وليمة شهيّة حتّى لعبت الخمرة برأسه، فوهبها ألواح القدر "مه" التي تشتهيها، وحملتها "أنانا" مسرعة على سفينة السماء. وعندما أفاق "إنكي" أرسل رسوله "إسيمود ISIMUD" ليخبر "إنانا" أن الإله غيَّر رأيه، وعلى الرغم من الهجمات المتكرّرة التي شنّتها عليها وحوش المثير، فقد وصلت إلى مدينتها "أوروك" بسلام في النهاية بمساعدة وزيرتها "نينشوبور NINSHUBUR"[3].

أساطير تختَصّ بخَلقِ الإنسان

إنّ أساطير خلق الإنسان السومريّة متنوّعة، وهي إشارات لمدى واسع من التصوّر الميثولوجيّ حول نشوء الإنسان وأصله. وتروي النصوص السومريّة أصل

---

١ - بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٤٤.

٢ - الماجدي، الدين السومريّ، ص١١٧.

٣ - بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٤٢.

الرجال والنساء بلغة الميلاد، ففي إحدى الحكايات يعمل "آنو" و"إنليل" سويًّا متعاونَين مع الإلهة الأمّ "ننخرساج" في خلق البشر[١]. على أنّ مراجع أخرى[٢] تعتبر "إنليل" و"إنكي" الأبوَين الكبيرَين للآلهة. وهناك اسطورتان ثيوغونيتان مترابطتان: فالأسطورة الثيوغونيّة الإنليليّة هي أسطورة "إنليل وننليل وولادة الإله نانا إله القمر" التي تبدأ بوصف مدينة "نفّر" ثم تظهر أم الإلهة "ننليل" وتسمّى "ننبار شكونو" وهي الإلهة "نصابا" إلهة الحبوب والمعرفة، والتي تنصح ابنتها بأن لا تخلع ثيابها وتسبح في النهر خوفًا من أن يراها إنليل، لكنّ ننليل تفعل ذلك فيراها إنليل ويفتن بها ثمّ يأمر وزيره "نسكو" بأن يحضرها له في قاربه، فيجلبها ويضاجعها في القارب ويبذر في أحشائها بذرة الإلهة القمر "نانا". لكنّ مجلس الآلهة عندما يعلم بذلك يعتبر ذلك جريمة اغتصاب ويقررّ نفي الإله إنليل إلى العالم الأسفل. وحين يذهب الإله إنليل إلى العالم الأسفل تتبعه ننليل وهي حامل بابنها القمر. وعلى بوّابة العالم الأسفل يجد إنليل حارس البوّابة فيتّخذ هيأته ويأمره بأن يتوارى، ويقف هو مكانه كحارس. وعندما تجيء ننليل يقنعها إنليل المتنكّر بأنّها إذا أرادت أن تنقذ بذرة الإله القمر فلا بدّ لها من قبول مضاجعته لكي تلد إلهًا يكون بديلاً عن الإله القمر، وعند ذاك يمكنها دخول العالم الأسفل دون أن تضحّي بولدها، فتقبل بذلك. ويتكرّر هذا الأمر ثلاث مرّات، وبذلك تلد الإلهة ننليل أربعة أبناء هم الإله القمر "نانا"، والإله "نركَال" أو "مسلامتيا" وهو إله العالم الأسفل، والإله "ننازو" وهو إله الشجرة وإله الطب في العالم الأسفل، والإله "إليجبيل" وهو إله النار السفليّ. وبذلك يبقى الآلهة الثلاثة الآخيرون في العالم الأسفل، ويصبح من الممكن تحرّر الآلهة الثلاثة الكبار إلى العالم الأعلى وهم: إنليل وننليل ونانا، لأنّ أحكام

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٤٣.

٢ ـ الماجدي، الدين السومريّ، ص٤٣.

العالم الأسفل تقضي بأن الآلهة إذا نزلوا إلى العالم الأسفل لا يخرجوا منه إلاّ إذا أتوا ببدائل إلهيّة عنهم يبقونهم مكانهم في العالم الأسفل. وهكذا فإن هذه الأسطورة تلقي الضوء على كيفيّة ولادة أربعة من الآلهة المهمّين في شجرة الآلهة الإنليليّة، وتحمل في داخلها علاقات سببيّة دقيقة وهي أسطورة محمّلة بالرموز والمعاني العميقة.

وفي أسطورة أخرى نجد أنّ الإله "إيا EA" الأكاديّ، وهو نفسه "إنكي" السومريّ، والإلهة "أرورو ARURU"، يخلقان الإنسان من الطين بقوّة الكلمة الإلهيّة، ووصفت الملحمة البابليّة القديمة "أتراحسيس ATRAHASIS"، أي "الرجل الحكيم"، ميلاد البشريّة في شيء من التفصيل، عندما جعلت "إنليل" الإلهة الصغرى تحفر القنوات، وتعمل من أجل ازدهار الزراعة التي يعتمد عليها غذاء الآلهة أنفسهم، فقاموا بالإضراب والامتناع عن هذا العمل الشاقّ، ووصلت شكواهم إلى "آنو ANU" إله السماء وبقيّة الآلهة. فخلقوا البشر من طين ودم بفعل من أفعال الميلاد، مستخدمين الإلهة الأم التي تُسمّى "ماما MAMA" أو "نينتو NINTU". وتقول الأسطورة إنّ إنليل قد غضب بسبب الضجيج الذي يحدثه البشر، فأرسل الطاعون وسبع سنين عجاف، إلا أنّ إتراحسيس يتمكّن بمساعدة إنكي من تجنيب البشر هذه المصائب في كلّ مرة، عندها يقرّر إنليل التخلّص من البشر بواسطة الطوفان. لكن أتراحسيس يبني سفينة بناءً على نصيحة الإله إنكي لحفظ أرواح البشر[1].

وفي بعض تفاصيل الخلق الطينيّة المائيّة هذه التي تجسّدها أسطورة "إنكي ونمّو وننماخ وطين الأبسو"، التي هي الأكثر شهرة في مجال الأساطير السومريّة عن خلق الإنسان، تصف هذه الأسطورة الآلهة الصغار العاملين وهم يضجرون من العمل

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٤٥.

والإرهاق، فيذهبون إلى الإله إنكي عساه يجد حلاً لمعاناتهم، فيقوم الإله إنكي بخلق الإنسان وينصح أمّه الإلهة "تمّو" بأن تشرف هي على هذا الخلق وتساعدها في ذلك الإلهة "ننماخ". أي أنّ الإله إنكي قرّر شكل الإنسان وقرّر منحه شيئًا من حكمة إنكي، أمّا ولادته فتركها أوّلاً لإلهات الولادة السبع وللإلهة "ننماخ" والإلهة "تمّو". وفي حفلة إلهية كبيرة تقوم الإلهة ننماخ بصنع ستّة أنواع من الإنسان، لكنّ إنكي عندما فحصهم وجدهم مشوّهين، فقرّر مصائرهم وجعلهم في خدمة الآلهة والملوك. ثم قام إنكي بصنع مخلوق بشريّ اسمه "أومول" ومعناه "يومي بعيد"، وكان يعاني عدّة عاهات أيضًا ليحرج "ننماخ" في كيفيّة تعيين مصيره، وتفشل "ننماخ" في هذا. ويعتبر باحثون أنّ هذه الأسطورة تبيّن تنافس إنكي وننماخ في خلق الإنسان وتعيين مصيره. ولكنّ مادة الخلق كانت من الطين الذي في مياه الأعماق "الآبسو". وربّما أشارت فكرة التشويه إلى نقص الإنسان الأوّل ومرضه وعدم تكامله[1].

وهناك ملاحم أخرى تحاول أن تفسّر جوانب الشذوذ في عمليّة الخلق، من ذلك مثلاً وجود كائنات بشريّة ناقصة، أو وجود بعض الشخصيّات المتميّزة، أو عادات البدو في أرض "مارتو MARTU"، كما كانت الكوارث والأمراض التي جلبتها رياح الجنوب موضوعًا لقصّة "سيّد الأرض" ابن الإله إنليل الإله "نينورتا NINURATA" وزوجته آلهة الشفاء "جولا"، وهو يجسّد الخصوبة في أقدم مظاهرها، والعفريت "أساغ ASAG" عفريت الأوبئة، الذي يعني اسمه "الذي يضرب الذراع"، وتحوّل هذا الاسم إلى "أسباكو" في اللغة الأكاديّة"، ثم أصبح عفريت "أعداء سومر القاطن في الجبال". والملاحظ أنّ جميع هذه القصص يتكرّر فيها ورود تصوّرات معيّنة خاصّة

---

١ ـ الماجدي، الدين السومريّ، ص١١٧.

بالسفر أو الترحال، والعقاب، وتدخّل الآلهة، ونبتة الحياة، والحاجة إلى التعبّد وخدمة الآلهة[1].

أمّا أسطورة الأصل الإلهي للإنسان فتجسّده أسطورة آلهة العمل "لمكا" حيث تشير إلى أنّ الآلهة بعد أن اتعبهم العمل، قال لهم الإله إنليل ماذا تريدون؟ فأجابوه بأنّهم يريدون ذبح آلهة العمل "لمكا" في منطقة "أوزموا" في "نفّر". ومن دم هذه الآلهة يُصنع الإنسان ليقوم بالعمل بدلاً عن الآلهة، وتشير هذه الأسطورة إلى أنّ آلهة العمل هذه إلهة ثانويّة، إضافة إلى أنّها تعمل لخدمة الآلهة الكبار، وبذلك يحمل دمها فكرة خدمة الآلهة حيث سيكون الإنسان الذي يخلق من هذه الدماء مشابهًا لها. وبذلك تُحَلّ مشكلة عمل الآلهة وتعبهم، فالإنسان هنا مجرّد خادم وعامل من أجل الآلهة. ويرجّح أن تكون هذه الأسطورة ذات أصول أكاديّة[2].

ويرى باحثون أنّ هناك إشارات إلى أن السومريّين قد عرفوا "الأنثروبوغونيا اللوغوسيّة"، أي أنّ الإنسان خُلق بمجرّد أن نطق الآلهة وقالوا: "ليخلق الإنسان"، دون موادّ أوّليّة كالطين والماء والبذور والدم... حيث ترد في إحدى قصص جلجامش السومريّة عبارة: "بعد أن تعيّن اسم الإنسان". وهناك إشارات أُخرى في نفس الاتّجاه، وهذا يعني أنّ فكرة الخلق من الكلمة تكمن في التراث السومريّ عميقة قصيّة[3].

وتناولت الـ"إينوما إيليش" هذا الموضوع ذاته عندما ذهبت إلى أنّ خلق البشر عمل يخدم الآلهة، ولقد قام بهذا الخلق "مردوخ" أو "مردك" بعد انتصاره على تيمات، كما سبق أن ذكرنا، فمزج الطين بدم إله مقتول هو الإله "كينغو KINGU".

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٤٦.

٢ ـ الماجدي، الدين السومريّ، ص١١٨ ـ ١١٩.

٣ ـ الماجدي، الدين السومريّ، ص١١٩.

وجاء في مقدّمة لقصيدة سومريّة ما من شأنه أن يشير إلى الأصل الحيوانيّ للإنسان الذي "خُلق على جبل الآلهة "آن - كي" مثل حيوان يمشي على يدَين ورجلَين"، وتقول مقدّمة القصيدة:

> البشر الأوائل لم يعرفوا أكل الخبز بعد، ولم يعرفوا ارتداء الملابس، وكانوا يسيرون على أيديهم وأرجلهم، وكانوا كالخراف يعلفون الحشيش، ومن القنوات يشربون الماء[١]...

وهكذا فإنّ هذه الأبيات تصوّر الإنسان كأنّه حيوان، لكنّ الآلهة تقوم بعد ذلك بإنزال الإنسان من هذا الجبل الكونيّ إلى الأرض ليتعلّم كيف يكون قادرًا على الانفصال عن الحيوانات والاستفادة منها[٢].

وهناك أسطورة أخرى تجعل أصل الإنسان نباتيًّا، حيث يقوم الإله إنليل بوضع "بذور" البشريّة في شقوق الأرض، وبعدها بدأ البشر بالظهور من هذه الشقوق مثل الحشيش. ورجّح باحثون أن تكون أصول هذه الأسطورة قديمة، وربّما تعود إلى الألف السادس قبل الميلاد، عندما كان أجداد السومريّين في المناطق الشماليّة من وادي الرافدين، حين تعرّفوا، مع نهاية عصر النيوليت، على أهميّة الهواء والأمطار في عمليّات الزراعة، ولذلك اكتسب الإله إنليل الذي يمثّل الهواء آنذاك أهميّة استثنائيّة في خلق العالم والإنسان[٣].

---

١ - رشيد د. فوزي، خلق الإنسان في الملاحم السومريّة البابليّة، مجلّة آفاق عربيّة، العدد٩، السنة٦، أيار - مايو ١٩٨١، ص٢٠.

٢ - الماجدي، الدين السومريّ، ص١١٨.

٣ - الماجدي، الدين السومريّ، ص١١٨؛ راجع: رشيد، خلق الإنسان في الملاحم السومريّة البابليّة، مجلّة آفاق عربيّة، ص٢٠.

الطّوفَـــان
السُّومَريّ

ينعكس التمرّد البشريّ على الآلهة في قصّة البستانيّ "شوكاليتودا SHUKALLETUDA" الذي ارتكب خطيئة قاتلة بأن أوقع "إنانـا" فـي الغوايـة، وتـروي أسـطورة سومريّة أنّ بستانيًّا اسمه "شوكاليتودا" زرع شجرة تعهّدها بالرعاية والعنايـة حتّـى كبرت ونشـرت ظلّها الواسع على معظم أجزاء حقله، وحدث أن دخلت الإلهة "إنانا" البستان متعبة بعد رحلة طويلة قامت بها، وغلبهـا النـوم فرآهـا البسـتانيّ فضاجعهـا... مـا أغضـب الإلـه إنليـل. وطبقًا لمـا جـاء فـي ملحمـة "أتراحسيس ATRAHASIS"، فقد انسـحب النـاس مـن أعمالهم على نحو ما فعلـت الآلهـة الصغرى، وغضـب الإلـه إنليل لأنّ الخـروج عن العمل الإلهيّ الذي يقضي تزويد الآلهة بما تحتاج إليه، مضافًا إلى ذلك مضاجع البشر للآلهة، والضجيج الذي أحدثه تكاثر الأعداد الهائلة من الجنس البشريّ، كلّ ذلك حـرم إنليل من النوم فأراد حلّ المشكلة بالقضاء عليهم، فسلّط عليهم الطـاعون، والمجاعـة، والجفاف، والقحط، ثمّ سلّط عليهم الطوفان. غير أنّ تدخّل الإلـه "إنكـي" مكّن الرجـال والنساء من البقاء، وتجنّب هذه العقوبات المتكرّرة.

تصوّر ملحمتا "أتراحسـيس" و"جلجـامش" الطوفـان علـى أنّـه عقـاب أنزلتـه الآلهـة بالجنس البشريّ. ولقد ظفر البطل، وهو إنسان، في كـلّ ملحمـة منهمـا بـالخلود، وبقـي بفضل ما قدّمه له الإله "إنكي" وهو الإله "إيا EA"، مـن تحذيـرات، وكذلك عن طريـق بنـاء سفينة تهـرب عليهـا عـائلات البشـر والحيوانـات. إنّ "أوتنابشـتيم UTNAPISHTIM الملقّب بالبعيد"، وهو الشخص الذي كان يبحث عنـه جلجـامش بعد عبوره نهر العـالم السفليّ، ليعرف منه سرّ الحياة الأبديّة التي وهبتها له الآلهة، ينبئ جلجامش الـذي كـان قد عبر لتوّه نهر الموت، كيف هرب من الطوفان، وكيف اسـتقرّت سفينته فـي النهايـة

على جبل "تصير NISIR"، بعد أن اختبر انحسار الماء بأن أطلق أنواعًا مختلفة من الطيور. أرسل في البداية حمامة لكنّها عادت، ثمّ أرسل سنونوّة ولكنّها ما لبثت أن عادت، ثمّ جاء بغراب وأطلقه في السماء، فكان الغراب بعيدًا، ولمّا رأى الماء قد انحسر أكل وحطّ ولم يعد[1].

أمّا النصّ السومريّ للطوفان الذي عُثر عليه في مدينة "نفّر" وهو بحالة مهشّمة، فيتحدّث عن أنّ مجلس الآلهة اجتمع لسبب غير واضح وقرّر هلاك ذريّة الإنسان عن طريق الأعاصير والأمطار التي ستتسبّب الطوفان، وأنّه لا بد من إسقاط الملوكيّة التي منحها الآلهة للإنسان. وكانت هذه الملوكيّة قد استقرّت في مدينة "شروباك" في ذلك الزمن، وكان يحكمها ملك حكيم اسمه "زيوسدرا ZIUSUDRA"، ومعنى اسمه "الذي جعل الحياة طويلة". فيقوم الإله إنكي بالاتّصال خفية بزيوسدرا، ربّما عن طريق الحلم، ويخبره بقرار الآلهة تدمير الأرض عن طريق الطوفان وينصحه بصناعة سفينة تنقذه مع أهله ومَن يحب. ثمّ يأتي الطوفان ويدمّر كلّ شيء.

> ... فجاءت كلّ الأعاصير والعواصف المدمّرة، واكتسحت الأعاصير العواصم، وبعد أن اكتسحت الأعاصير البلاد سبعة أيّام وسبع ليال، وجعلت الأعاصير المدمِّرة السفينة تتأرجح في المياه العالية ... وعندما انتهى الطوفان، بزغت الشمس فأنارت الأرض والسماء... وعندئذ فتح زيوسدرا كوّة في الفلك، فدخلت أشعّة الشمس السفينة بأشعّتها إلى الفلك، فركع زيوسدرا أمام إله الشمس، ونحر الملك زيوسدرا أعدادًا كبيرة من الثيران والأغنام[2].

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص١٤٥ قارن ذلك بما جاء في سفر التكوين، الإصحاح الثامن ٦ ـ ١٣.

٢ ـ علي د. فاضل عبد الواحد، الطوفان، جامعة بغداد (بغداد،١٩٧٥) ص١٢١.

بعدها يركع زيوسدرا أمام الإلهين آن وإنليل اللذَين يقومان بمكافأته وإعطائه الحياة الأبديّة أي الخلود، ويسكنانه في بلد على البحر، في "دلمون"، وهو الفردوس الإلهيّ الذي ذكرناه سابقًا[1].

إنّ النسخة البابليّة للطوفان تعتمد جوهريًّا على قصّة الطوفان السومريّة هذه، لكنّ تفاصيلها تزداد وتتشعّب، كما هو حال أغلب الأساطير البابليّة المبنيّة على أصل سومريّ. وفي النسخة البابليّة أنّ الإله إنليل غضب لأنّ إنسانًا استطاع الهرب من الدمار، ثم اقنعته الآلهة بعد جهد أن يهبه الخلود. ويقول أوتنابشتيم لجلجامش: أمّا الآن فمَنْ لأجلك سيدعو الآلهة إلى مجمع مقدّس حتّى تجد سرّ الحياة الذي تسعى وراءه؟ وفي سلسلة من الاختبارات أثبت أنّ الإنسان العاديّ عاجز عن أن يظلّ يقظانًا سبعة أيّام وسبع ليال، أو أن يحافظ على نبتة الحياة إذا ما حصل عليها مرّة، فلم يكتَب له الخلود. وتنهي الأسطورة البابليّة أسطورة، الطوفان التي تنسبُ حدوثها إلى الإله مردك، والسفينة إلى "شمس"، بالقول:

> ... واستسلم مردك آخر الأمر، واقترب من القربان، ثمّ أخذ بيد شمس وزوجته وباركهما، وسوّى لهما مستقرًّا جديدًا عند مداخل أنهار الأرض. وعادت الآلهة إلى السموات، ولكنّها لم تنس قبل عودتها أن تكافئ شمس الذي قدّم لها القربان، وحفظ لها الجنس البشريّ. ومُنح شمس سرّ الخلود، ورفع إلى مرتبة الآلهة، وأصبح عليه أن يقيم في مستقرّه عند مدخل الأرض حتّى الأبد، لا يغادر إلاّ في رحلة طويلة يرافق فيها موكب مردك، ليشرف على أبنائه البشر الذين ينطلقون في الأرض ليعيدوا إليها المجد والحياة، ثمّ يعود آخر اليوم إلى مستقرّه، ليستأنف مع الصباح رحلته الطويلة الخالدة من الشرق إلى الغرب[1].

---

١ ـ الماجدي، الدين السومريّ، ص١١٨.

٢ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٦٧ ـ ٦٨.

من خلال محاولات العلماء لاستقصاء حقيقة ما جاء في هذه الوثـائق الشـعبيّة عـن الطوفان، تأكّد أنّ هذه الوثائق كلّهـا، مـع وجـود بعـض الاختلافـات مـن حيـث وصـف الطوفان ونتائجه ومسبّباته، ترجع إلى أصـل واحـد تناقلتـه الأجيـال وتحدّثـت بـه أفـواه الناس إلى أن تعلّموا الكتابة فسجّلوه في أكـثر مـن وثيقـة. وانتهـى حديـث العلمـاء إلـى تحديد زمن حدوث الطوفـان فـي القـرن الأربعيـن قبـل الميـلاد. والغريـب أنّ الأبحـاث العلميّة التي جرت في أكثر من مكان في بلاد العراق القديمة، قد وصلت إلـى ظواهـر تؤكّد على ثبوت حدوث فيضان كاسح حوالى منتصف القرن العشرين قبل الميلاد[١].

المعتَقدات

الأكَاديّـة

في الشمال من دولة سومر، كانت تقع دولة أكاد حيث قـامت الأسـس الدينيّـة فيهـا على نفس العقائد التي كانت سائدة عند السومريّين، فقد اعتقدوا أنّ العالم في بدء أمـره كان يتكوّن من عنصر واحد هو الماء، يحوي عنصرَين أزليَّين هما المياه العذبة "أبسو" والمياة المالحة "تيمات"، كما جاء فـي أسـطورة الخلـق والطوفـان. وبتزاوجهمـا انبثقـت الخليقة، الآلهة والبشر. وكانت الآلهـة عندهـم مخلوقـات سـماويّة يمتـازون عـن البشـر بحياة أبديّة، وإن كانت تسود بينهم وتربط بين الواحد والآخر نفس الأحاسيس البشـريّة. والآلهة جميعًا محبّون للخير. أمّا البشر فكانت هناك مخلوقات تمثّلهم ليسـوا ببشـر كمـا أنّهم لا يرقون إلى مصاف الآلهة، وبينما عبد الناس الآلهة وقدّموا لهم القرابين، حاولوا الاتّصال بمخلوقات الشرّ عن طريق السحر فقط رغبة في إبعاد أذاها عن أنفسهم.

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٦٧ ـ ٦٨.

وكان العالم ينقسم عندهم إلى ثلاثة أقسام: السماء ويسيطر عليها الإله "آدوم" أو "آنو"؛ الهواء والأرض ويسيطر عليهما الإله "إنليل"؛ والبحار والمحيطات ويسيطر عليها الإله "إنكي". وكانت هناك، عدا هؤلاء، مجموعة كبيرة من الآلهة تمثّل قوّة الطبيعة والعناصر المهمّة في بيئتهم. أمّا الناس فقد خُلقوا من طينة الأرض وشُكّلوا حتّى يشبهوا الآلهة، وما خُلقوا إلاّ ليكونوا خدّامًا مطيعين لهم. لذلك اعتبر الناس أنفسهم ملزمين أمام الآلهة بأمرَين: أولهما خشية الآلهة، وثانيهما العبادة وتقديم القرابين. ويبدو أنّ فكرة الجنّة والنار والنعيم الدائم والعذاب المخلّد لم تكن قد استقرّت في عقولهم بعد. وعلى ذلك ففكرتهم في القيام بالصلاة وتقديم القرابين لم تكن للحصول على الحياة الخالدة بل طمعًا في النعم الماديّة الملموسة في الحياة الدنيا. وعقيدتهم في ذلك هي أنّ الإنسان ما دام يعمل صالحًا فقد استحقّ رضى الإله وعاش متمتّعًا بالسعادة. أمّا إذا أذنب بقصد أو بدون قصد، فإنّ الإله حاميه يتخلّى عنه فتتلقّفه مخلوقات الشرّ ويتردّى في عالم الرذيلة. وإذا أراد الإنسان أن ينجو من عالم الرذيلة فعليه أن يلجأ إلى السحر ويتمتم بتعاويذه التي علّمها الإله "إنكي" للناس فحفظوها عن ظهر قلب. وكان الفرد الذي يتعلّمها يصبح كاهنًا لا عمل له إلاّ مساعدة الناس للتخلّص من أيدي مخلوقات الشرّ والعودة إلى حظيرة الآلهة[1].

المعتَقدات البَابليّـــة

في حوالى عام ٢١٠٥ قبل الميلاد، ظهرت أسرة ساميّة أسّسها رجل اسمه "سمو آبوم" بدأ كفاحه بالقضاء على أمراء الدويلات الجنوبيّة، ثمّ أعلن نفسه ملكًا على بابل

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص ٧٠ ـ ٧١.

بعد أن بسط نفوذه على سومر وأكاد، وبذلك حقّق نهائيًّا وحدة البلدَين تحت صولجان واحد. وعندما جاء حمورابي بعد ذلك بعدّة سنوات، استمرّ في توسّعه نحو الشمال والجنوب ووصل شمالاً إلى أعالي نهر دجلة وضمّ بلاد الآشوريّين إليه، كما وصل بحدوده إلى الخليج الفارسيّ. ولقد بقيت العقائد الدينيّة في عهد أمبراطوريّة بابل على ما كانت عليه في العصور السابقة. واستمرّ عدد الآلهة بعددهم الوافر الذي لا يقلّ عن خمسة وستّين ألف إله. ولا غرابة في ذلك لأنّه كان لكلّ مدينة إله يحميها ثمّ لكلّ قرية ولكلّ جماعة ولكلّ أسرة وأخيرًا لكلّ فرد إله يحميه. هذا غير الآلهة الكبرى التي تمثّل قوى الطبيعة والتي كان الجميع يتعبّدون لها.

عندما استقرّ الأمر لحمورابي جعل من الإله "مردك" معبود مدينة بابل "الإله المحليّ للأمبراطوريّة وسيّد الآلهة أجمعين". واستجاب الكهّان لرغبة حمورابي فأسرعوا بتأليف القصص ونسجوا حول الإله الجديد كثيرًا من الروايات. وكان أهمّها وأبرزها قصّة الخلق البابليّة التي تتحدّث عن بدء الخليقة وكيف استطاع مردك أن يصبح سيّد المجتمع. وأمّا عن الدنيا الثانية فقد آمن البابليّون بأنّ الناس بعد موتهم يذهبون كلّهم، العبقريّ منهم والأبله، القدّيس والمذنب، إلى مكان مظلم في جوف الأرض سمّوه "أرالو" هو بمثابة دار العقاب، حيث تُقيّد فيه أيدي وأرجل الموتى أبد الدهر، وحيث ترتجف أجسادهم من البرد. وإذا لم يتفضّل أبناء الموتى وأقرباؤهم بوضع الطعام لهم على مقابرهم في أوقات معيّنة فسوف يجوعون ويظمأون. وكانت أكثر أجسام الموتى تُدفن في قباب ونادرًا ما كانت الجثّة تُحرق وتوضع بقاياها في قدر. وكانوا يعتقدون أنّ الميت الذي لم يُعنَ بدفن جثّته على أحسن وجه سوف يسبّب العذاب للأحياء. ومن الغريب أنّ التمسّك بأهداب الدين البابليّ لم يكن يتعدّى تقديم القرابين للآلهة. وما دام البابليّ قد قام بما حقّ عليه نحو إلهه من تقديم القرابين، وهي

تذهب بالتالي إلى الكهنة، فقد أصبح في حلّ بعد ذلك من أن يفقأ عين عدوّه المهزوم ويقطع أيدي الأسرى وأرجلهم ويشوي ما بقي من أجسامهم وهم أحياء، دون أن يؤذي بذلك آلهته[1].

المعتَقدات الآشُوريَّة

أمّا عند الآشوريّين فقد بقيت الأصول الدينيّة البابليّة في جوهرها تهيمن عليهم. إلاّ أنّ الدين لم يكن له من السلطان على أصحاب الحكم بقدر ما كان له في بابل. وقد كيّفوا الدين بحيث يصبح ملائمًا للميول الحربيّة والطابع العسكريّ الذي تميّز به الآشوريّون. وكان "آشور" هو إلههم القوميّ وملك الآلهة جميعًا، فهو خالق البشريّة، كما أنّه كان إلهًا حربيًّا لا يشفق بأعدائه. وكانت زوجته "عشتار" المحاربة تحتلّ المكانة الثانية في مجمع الآلهة الآشوريّة الذي يشمل الآلهة: "سن" و"شمس" و"أدد" و"بعل" و"تابو" و"ترجال" و"نسكو".

وتتكوّن الطقوس الآشوريّة الدينيّة من أدعية وصلوات مصحوبة بتقدمات مختلفة، والنقوش الملكيّة مليئة بالدعوات مثل:

> "فلترضَ عنّي الآلهة عندما أرفع يديّ إليها. ولتمنح حكمي أمطارًا غزيرة وأعوامًا كثيرة مليئة بالثروة والرخاء. ولتعاونني على الخروج من الحروب سالمًا آمنًا. ولتُخضع لي كلّ الأقاليم المعادية وكلّ الملوك والأمراء الذين أعلنوا الخصومة ضدّي. ولتسبغ بركاتها عليّ وعلى نسلي".

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص ٧١ ـ ٧٢.

أمّا العقائد الآشوريّة الخاصّة بدنيا الموت، فكانت مثلها عند البابليّين، لا تعطي الفرصة لمَن عمل صالحًا أن يتمتّع فيها بشيء. فلم يبذل الآشوريّ أيّ جهد ليقيم لنفسه مأوى يُمضي فيه حياته الثانية هانئًا سعيدًا. بل كان همّه أن يُرضي الآلهة لتمنحه السعادة والرخاء في الحياة الأولى. ولعلّ أوضح مثل لذلك ما قاله الملك "آشور بني بعل" للآلهة التي رمّم معابدها: "امنحوني، أنا الذي أخشى معبوداتي العظيمة، حياة تمتدّ أيّامًا طويلة وسرور القلب"[١].

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص ٧٣.

الفَصلُ الثَّالِث

المؤسّسَة الدّينيّة السُّومَريّة

المؤسّسة الدينيّة؛ الآلهة عندَ السومريّين؛
شَجَرَة الآلهَة السومَريّة؛ آلهة آشور؛
العَدالَة الإلهيّة.



المؤسَّسة الدينيّة

إفترض البعض أنّ "المؤسّسة الدينيّة السومريّة" ربّما تكون أول مؤسّسة دينيّة متكاملة ومنسجمة في تكوينها ووظائفها. وهي إذ تتكوّن من المؤسّسة الإلهيّة التي تشتمل عددًا كبيرًا من الآلهة المختلفين في مقاماتهم، والمؤسّسة الكهنوتيّة التي تشمل عددًا كبيرًا من الكهنة المختلفين في درجاتهم ووظائفهم، فإنّ المعابد كانت أماكن مشتركة لأعضاء المؤسّستَين السابقتَين، يمارسون فيها حضورهم ووظائفهم، ويؤسّسون فيها لتقاليد وعقائد وطقوس الدين السومريّ، وربّما كانت مسرحًا لتأليف وقراءة وصياغة الأساطير السومريّة أيضًا.

كانت "المؤسّسة الإلهيّة" في "المؤسّسة الدينيّة السومريّة" هي الشكل الأعلى المطلق للدين، فالآلهة هي التي خلقت الكون والإنسان، وهي التي جعلت الكون مسرحًا لحركتها والانسان خادمًا لها ليقوم بدلاً عنها بتنظيم الحياة على الأرض، والعمل، وتهيئة الزرع والطعام وغير ذلك. وكانت طبيعة الإله تحمل جانبَين متلاصقَين، أولهما حسّي مجسّم، ينحدر من جذور تصوّر الإنسان للإله، وثانيهما مجرّد ذهنيّ تولّد من تأمل الإنسان في الإله وطبيعته. وإنّ الصورة الحسيّة للآلهة السومريّة نشأت من الطبيعة. فقد أنسن الإنسان السومريّ الطبيعة في جنوب العراق وورث تقاليد عبادة الإلهة الأمّ، وهي إلهة طبيعيّة من شمال العراق، ولذلك جاءت أول تصوّراتهم الحسيّة عن الآلهة ملتصقة بالطبيعة، لأنّهم كانوا يرون في ذلك استمرار بقاء زرعهم

وقطعانهم ومياههم التي كانت مصدر عيشهم الأول. ولذلك كان لصور الآلهة، وخصوصًا قبل حوالى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد، علاقة أساسيّة بالطبيعة، حيث كان كبار الآلهة السومريّين هم الطبيعة نفسها، فالإله "آن" هو السماء وإلهها، والإله "إنليل" هو الهواء وإلهه، والاله "إنكي" هو الماء وإلهه، والإلهة "كي" هي الأرض وإلهتها. كما تمّ تصوّر الآلهة أيضًا في ذلك الوقت على شكل حيوانات، مثل الإلهة "باو" إلهة الزراعة والشفاء على شكل كلب؛ والإله "أمدوكد" إله الغيوم الممطرة على شكل طائر أسود برأس أسد يزأر وصوته الرعد ويطير بأجنحةٍ هائلة في الجوّ؛ والإله "تنغرسو" إله الحرب وكأنّه أيضًا طير برأس أسد... وتطوّر تصوّر الآلهة بعد ٣٠٠٠ قبل الميلاد، وأصبح أقرب إلى الشكل الإنسانيّ. وظهرت مصوّرات الآلهة بهذا الشكل، لكنّها كانت دائمًا تلبس تاجًا مقرّنًا يشير إلى الألوهيّة، ويميّزها عن الملوك والبشر. لكنّ الصورة الحيوانيّة والطبيعيّة لم تنحسر، بل تحوّلت إلى رموز لهذه الآلهة، فقد كانت رموز الآلهة السومريّة تعتمد على أشكال من الطبيعة أو من عالمَي النبات والحيوان، لتشير إلى طبيعة أو صورة كانت ذات يوم لتلك الآلهة. أمّا التطور الحاسم في تصوّر طبيعة وشكل الآلهة، المهمّة منها بشكل خاصّ، فقد حصل عندما أصبحت الآلهة على شكل كائنات بشريّة مضيئة، أي أنّ الضوء كان يشعّ من أجسادها. أمّا الصورة المجرّدة أو الذهنيّة أو التأمّليّة للآلهة، فقد أخذت تنمو مع ازدياد مدركات الإنسان العقليّة والروحيّة، وصارت فكرة الألوهة حاضرة بشكل دائم في الذهن القديم، فافترض الفكر السومريّ أنّ في كلّ إنسان روح إلهيّة أو إله شخصيّ يرعى شؤونه: "بدون إله لا يستطيع الإنسان أن يكسب عيشه، ولا الشباب يستطيع تحريك يده ببطولة في القتال". ونقرأ في نصٍّ آخر: "عندما تخطّط للمستقبل يكون إلهك إلهك، ولمّا لا تخطّط للمستقبل لا يكون إلهك إلهك". فالألوهة خلال هذَين النصّين عناية دائمة وفعل

مستمرّ الوعي، ولكنّها ليست إنسانيّة، خاضعة لنزوات الفرد وضعفه، بل هي المثاليّة التي يحسّ بها الإنسان[١].

وتطوّرت هذه الصورة المثاليّة بعد ذلك إلى أنّ الألوهة أصبحت تعني التفوّق والحكمة داخل الإنسان، وهذا تطوّر ملحوظ ودقيق وعقلانيّ، كان بإمكانه أن يؤدّي إلى تطوّرات روحيّة وعقليّة مذهلة لو أنّه استمرّ، لكنّه اضمحلّ مع نهاية سومر وصعود الفهم الساميّ الصحراويّ المجرّد للإله، حيث رمى الإله خارج الإنسان بعيدًا عن الأقاصي، وتحوّل الإنسان إلى كائن تافه. ويرى باحثون[٢] أنّ الفهم السومريّ لإحساس الإنسان بالآلهة والألوهيّة كان عميقًا ونادرًا. وهم يعطون مثالاً على ذلك كيفيّة مخاطبة أحد الطلبة السومريّين معلّمه معبّرًا عن فضله عليه:

"أنت إله، وحيث أنّ الإله يصنع الإنسان، فأنت إلهي، لأنك صنعت فيّ الإنسان"[٣].

كما يعطي الباحث نفسه مثالاً آخر هو رقيّة جاءت على لسان أحد الكهنة بعد أن عدّد آلام المريض ومصائبه:

"إلهه ترك جسده.. إلهته تخلت عنه"[٤].

ويرى الباحث "أنّ هذا التأمّل والغوص داخل الذات الإنسانيّة، لم يمنع السومريّ مطلقًا من تصوّر مقابل، ورفع الآلهة إلى أقصى ما في الكون وقد كانت علامة "دنكَر"

---

١ ـ راجع: الحوراني يوسف، البنية الذهنيّة الحضاريّة في الشرق المتوسّطي الآسيويّ القديم، دار النهار للنشر (بيروت، ١٩٧٨) ص١٥٤.

٢ ـ الماجدي، الدين السومريّ، ص٣٢.

٣ ـ راجع: VAN DIJK J.J.A., LA SAGESSE SUMERO ACCADIENNE, ED. BRILL (LEIDEN,1953) P. 24

٤ ـ راجع: REINER ERICA, *SURPU, A COLLECTION OF SUMERIAN AND AKKADIAN IN CANTATIONS*, ED. GRAZ (1958) P. 30.

السومريّة الدالّة على الإله، تشير إلى مثل هذا التصوّر، لأنّها كانت تعني أيضًا السماء أو النجوم. وقد أعتبر السومريّون أنّ كل خاصيّة غير جسديّة وغير مرئيّة أو محسوسة هي قوّة لاهوتيّة. ومن علامة "دنكَر" هذه، نستطيع استشفاف فكرة التجريد اللاهوتيّ خلف كلّ تشخيص، إذ إنّها عندما كانت تُكتب منفردة، كانت تعني الإله الأكبر المطلق. وهنا لا بدّ من الملاحظة أنّ اندماج فكرة الألوهيّة بالعلوّ والسماء في الذهن القديم، حيث كانت إشارة الألوهة تعني العلوّ والسماء كذلك، هذا الاندماج ذو دلالة هامّة على العلاقة المرهفة التي تربط الإنسان بالوجود الكونيّ البعيد، هذه العلاقة التي تعبّر عن ذاتها بالمشاعر اللاهوتيّة المشدودة دائمًا نحو المطلق الكونيّ[1]. أمّا القوّة الإلهيّة، فكان يعبّر عنها بالمخلوقات الإلهيّة والحيّة، كمظاهر الطبيعة والكواكب والنباتات والحيوانات والإنسان... لكنّ جوهر القوّة الإلهيّة، كان يكمن، من وجهة نظر السومريّ، في الكلمة. فكان الإله عندما ينطق بالكلمة تكون الأشياء. وكانت هذه الكلمة، إمّا فكرة "نا" أو كلمة "لو" أو اسمًا "تام"، وتسمّى سمة الشيء أو صفاته "نم" التي يقابلها في الأكديّة كلمة "شمتو" أي سمة الشيء وطبيعته. كذلك كان يتمّ التعبير عن القوّة الإلهيّة بالنواميس الإلهيّة "مي ME"، التي كانت مظاهر الحضارة والتمدّن، ويقترب عددها من المئة، كما سبق وذكرنا آنفًا، الاّ أنّ أسطورة "إنانا" و"أنكي"، ونقل نواميس الحضارة من "أريدو" إلى "أوروك"، أحصت ثمانين منها، واشتملت على كلّ الفنون والآداب والحرف ومراتب الكهانة، والموسيقى والملابس وأشكال الملوكيّة والسلطة. وكذلك تتجسّد القوّة في ما يُسمّى بـ"لوح الأقدار" أو "المصائر" الذي كان يحمله الإله القوميّ السومريّ "إنليل"، والذي كان ضياعه أو اغتصابه يعني فقدان السيطرة على نواميس الطبيعة ودخول العالم في اضطراب شديد.

---

١ ـ راجع: الحوراني، البنية الذهنيّة الحضاريّة في الشرق المتوسّطي الآسيويّ القديم، ص١٥٧.

أمّا "المؤسّسة الكهنوتية" في "المؤسّسة الدينيّة السومريّة"، فتدرج النظام الدينيّ الكهنوتيّ السومريّ في تطوّره، وكان على رأس هذا النظام في بدايات سومر، الملوك الأوائل، الذين كانوا "الكهنة العالين" في الوقت نفسه، وكان الملك ـ الكاهن يسمّى "باتيزي" أو "إنسي"، ثمّ انفصلت هذه العلاقة فأصبح الملك يُسمّى "لوكَال"، والكاهن الأعلى يُسمّى "إين" أي السيّد، وكان هذا الكاهن يقترن بالكاهنة العليا التي تسمّى بالسومريّة "تندنكَر" أي "السيّدة الإلهة" وبالأكديّة "إينتو" أي "السيّدة". أمّا بقيّة المراتب الكهنوتيّة فكانت تنقسم إلى مرتبتَين أساسيّتَين هما: "المرتبة العليا"، وتضمّ: "الكهنة الأعلين" ويسمّون "سانكا" أو "ماخ"؛ و"الكهنة الحرّاس" ويسمّون "أوريكالو"؛ و"الكهنة المتخصّصون"، ويضمّ هؤلاء كهنة يمارس كلّ صنف منهم نوعًا معيّنًا من الأعمال داخل وخارج المعبد ويشتملون على المنظّفين، والمطهّرين، والمعمّدين، والماسحين بالزيت، والمعزّين، والعرّافين، ومفسّري الأحلام، وكهنة الأسرار، والمتدرّبين، والمنشدين. أمّا "المرتبة العاديّة" من مراتب الكهنة فكانت تشمل بدورها ثلاثة أصناف من الكهنة والكاهنات هم: "الكاهنات"، وقد حفلت الحياة الدينيّة السومريّة بظهور الكاهنات، وكان بعضهن يحتلّ مرتبة "الكاهنة العليا" "تندنكَر" التي كانت تقرن بالملك في مناسبات الزواج المقدّس باعتبارها ممثّلة للإلهة "إنانا"، وهناك أيضًا "كاهنات المرتبة العليا" مفسّرات الأحلام بشكل خاصّ. أمّا رتب الكاهنات فهي: "الراهبة" وتُسمّى "لوكور LUKUR"، وهي المرأة التي نُذرت للخدمة في معبد أحد الآلهة، ولم يكن لها الحقّ في الإنجاب؛ و"القدّيسة"، وتُسمّى "نوكك NU.GIG" وقد ترجمها بعض الباحثين بصورة خاطئة بـ "بغيّة المعبد" وصار، على ضوء ذلك، مكانها لممارسة البغاء وسمّوه الماخور، في حين أنّ ترجمته الدقيقة هو "الدير"، واسم هذه الكاهنة يعني "الخالية من الأمراض"؛ ثمّ "المنذورة" واسمها "نوبار NU.BAR"، وهي المكرّسة لإله

معيّن، وتتحدّر عادة من أسرة غنيّة؛ و"المرافقة" واسمها "سوكي SU.GE"، وهي التي لها علاقة بطقوس الزواج المقدّس، وكان لها الحقّ بالإنجاب[1]؛ و"الحاجبة" وتُسمّى "سال زكروم SAL.ZIKKRUM" وتُترجم أحيانًا "المرأة الذكر"، وكانت تقوم بأعمال الخدمة في المعبد؛ أمّا الفئة الثانية من كهنة "المرتبة العاديّة" فكانت فئة "الكهنة الخصيان" أي "المنذورين"، وهم الذين لا يحقّ لهم الزواج مطلقًا، وينقسمون إلى نوعَين: "آسينو"، و"كوركارو"؛ ثمّ "الكهنة العاديّون"، وهم رجال الدين من الرتبة الأوليّة البسيطة وينقسمون إلى نوعين: "سابنغو"، أي عامّة الكهنة، و"أربي بيتي" أي "الداخلين إلى المعبد"[2].

تبقى "المعابد السومريّة" في "المؤسّسة الدينيّة السومريّة". فقد كانت المعابد السومريّة أماكن مشتركة للآلهة والكهنة معًا، كانت البيوت الأرضيّة للآلهة، وكان الكهنة في هذه البيوت بمثابة خدّام الآلهة يؤدّون لهم الطقوس والشعائر ويوفّرون لهم ولتماثيلهم جميع المتطلبات التي كانوا يحتاجون إليها. ولا شكّ في أنّ المعابد السومريّة تطوّرت عن معابد الـ"عُبيد" و"أريدو" التي ظهرت مع بداية الـ"كالكوليت"، أي العصر الحجريّ المعدنيّ. ولعلّ أقدم المعابد التي عُثر عليها في أريدو، كان في "الطبقة السادسة عشر"، التي تعود إلى الألف الخامس قبل الميلاد، وكان ذلك المعبد مخصّصًا لإله الماء والحكمة "إنكي"، وكان معبدًا بسيطًا يتكوّن من رواق، ومكان مقدّس، وقدس

---

١ ـ ينفي الباحث هنا ما شاع ذكره عن "بغايا المعبد" في الحياة الدينيّة السومريّة، ويقول إنّه لم يكن هناك ما يسمّى ببغايا المعبد، بل إنّ البغايا كنّ يمارسن البغاء في بيوت خاصّة بهنّ أو في حانات بيع الخمور، أمّا المعبد فلم يكن يحتوي مطلقًا مثل هؤلاء النساء.. وقد أشاع هيردوتس ذلك عن المعابد العراقيّة القديمة دون أن يزور بابل، بل كان متأثّرًا ببيئته اليونانيّة. وربّما يكون مصدر هذا اللبس ما كان يحصل من ممارسة الجنس المقدّس بين الكاهنة العليا والملك في طقوس الزواج المقدّس التي كانت تجري مطلع العام الجديد وسط احتفالات دينيّة مهيبة.

٢ ـ الماجدي، الدين السومريذ، ص٣٤ ـ ٣٥.

الأقداس. ثمّ توسّع هذا المعبد وأصبح وسطه محاطًا بالغرف الإضافيّة، وقد شُيّد على دكّة أو مصطبة يُصعد إليها بمجموعة من السلالم المؤدّية إلى مدخل المعبد.

تُقسم المعابد السومريّة إجمالاً إلى "معابد بسيطة"، و"معابد ذات مصطبة"، و"معابد ذات مصطبة وأشكال مختلفة" "زقورات". فـ"المعابد البسيطة"هي المعابد العائدة إلى ما بين ٥٠٠٠ و٣٥٠٠ قبل الميلاد، وكانت تتكوّن من مرافق بسيطة للغاية هي الرواق، والمكان المقدّس، وقدس الأقداس، ونماذجها واضحة في معابد "أريدو" في الطبقات ١٨ ـ ٨، ومعبد "تبه كَاروا" في الطبقة ١٨؛ أمّا "المعابد ذات المصطبة"، وأغلبها ينحصر في التاريخ ما بين ٣٥٠٠ و٣٠٠٠ قبل الميلاد، فقد تطوّرت مرفقاتها وأصبح بالإمكان معرفة الآلهة المخصّصة لها، ومنها معابد "إنانا" في الوركاء، و"أريدو" و"خفاجي" للإله القمر "تانا"، ومعبد "تل براك" للإلهة "العين"، ومعبد "تبه كاورا"؛ و"المعابد ذات المصطبة والأشكال المختلفة" قد ظهر أغلبها في مرحلة دول المدن السومريّة العائدة إلى ما بين ٣٠٠٠ و٢٤٧٠ قبل الميلاد، وهي تمتاز بأشكالها الهندسيّة المختلفة، فمنها البيضاويّ والدائريّ والمربّع والمستطيل...، ومنها معبد "تنخرساج" في "تل العُبيد"، ومعبد "إنليل" في "نفّر"، والمعبد المربّع للإله "آبو" في "تل أسمر"، ومعابد "خفاجي" الثلاثة: "البيضوي"، و"تنتو"، و"سين"، ومعبد "شارا" في "تلّ أجرب"، ومعبد "عشتار" في "آشور"، ومعابد "ماري" الستّة: "إنانا"، "تنخرساج"، "أوتو"، "عشتارات"، "تني زازا"، "الزقورة"؛ أمّا "الزقورات"، فهي المعابد التي شيّدت على شكل طبقات تتروح بين ثلاث طبقات وسبع، ويربط بين كلّ طبقتَين مدرّج، وكانت الطبقات تقلّ سعةً كلّما ازداد ارتفاع الزقورة، حتّى أنّ بعضها كان ينتهي بغرفة واحدة كانت مخصّصة لإله ذلك المعبد. وأهمّ هذه الزقورات ظهر في مرحلة سلالة أور الثالثة (٢١٢٤ ـ ٢٠٠٦ ق.م.) في مدن "أور"، "أريدو"، "نفّر"، "أوروك". ولعلّ زاقورة "أور" المخصّصة لعبادة

الإله القمر "تانا" كانت الأكثر شهرة بين هذه الزقورات، والأكثر مقاومة وصمودًا أمام الزمن، فأطلالها ما زالت إلى يومنا شامخة.

كانت المعابد السومريّة تُبنى في مركز المدينة، ما يشير إلى أنّها كانت أماكن للممارسات الدينيّة والدنيويّة أيضًا. فبالإضافة إلى شؤون الطقوس والعبادة، كانت المعابد أماكن اقتصاديّة تمارس فيها عمليّات المقايضة والإقراض الخاصّة بالحبوب والمعادن الثمينة، بالإضافة إلى أنّها كانت الأماكن التي ظهرت منها الكتابة كحاجة عمليّة لتنظيم اقتصاديّات المعبد. كذلك كانت المحاكمات تجري في المعابد، وكانت في الوقت نفسه أشبه بالمستشفيات، إضافة إلى دورها الكبير في شؤون التعليم كمدارس أوليّة. وكان لأغلب المعابد السومريّة أملاك تشمل العقارات والحقول الزراعيّة، وكان الكهنة يقومون بتنظيم أوقاف وأعمال هذه الأراضي المغروسة والتي كانت تنقسم إلى ثلاثة أنواع: "أرض الرب" "جانا ـ تي ـ أين ـ نا"، ويعمل فيها كلّ المجتمع من أجل المعبد؛ و"أرض القوت" "جانا ـ كور ـ را"، وهي من نصيب القائمين على المعبد لإعالتهم؛ و"أرض المحراث" "جانا ـ أبين ـ لا"، وتسلّم للمشتركين بالحصّة التي تتراوح بين ١/٧، و١/٨ من المحصول[١].

---

١ ـ الماجدي، الدين السومريّ، ص٣٥ ـ ٣٧؛ راجع: بشّور د. وديع، الميثولوجيا السوريّة "أساطير آرام"، مؤسّسة فكر للأبحاث والنشر (بيروت،١٩٨١) ص١٩.

الآلهة عندَ السومريِّين

إعتبر بعض الباحثين[1] أنّ "آنو ANU" إله السماء، كان في الأصل، هو الحاكم الأسمى، والإله الرئيسيّ في مجمع الآلهة السومريّ، وكان في البداية مهتمًّا بشؤون الحكم، ويرمز له بغطاء للرأس ذي قرون، علامة على ألوهيّته، وكان معبده الرئيسيّ في "أوروك URUK" وهي التي أصبحت تُعرف بالـ"الوركاء". ولكن عندما هُزمَت مدينة "نيبور NIPPUR" المجاورة لمدينة أوروك، فإنّ إلهها "إنليل ENLIL" أو "إليل ELIL" إله العاصفة عند السومريّين، واسمه يعني في اللغة السومريّة "سيد النسيم"، وهو يأتي في المرتبة الثانية بعد "آنو"، عنما قام بتنظيم الكون وإخراجه من لجة العماء، أصبح له أهميّة كبرى في مجمع الآلهة، فحاز لنفسه ما كان لآنو من هيبة. وزادت أهميّته بعد أن قام بفصل السماء عن الأرض بعد أن كانتا ملتصقتَين، وأصبح معبده الرئيسيّ في "إكور EKUR" موضوع توقير عالٍ. وإنليل هو المحسن، والجدّ الأول الذي يُعزى إليه خلق الشمس، والقمر، والنباتات، والأدوات الضروريّة التي يسيطر الإنسان بواسطتها على الأرض. وتقول بعض النصوص الدينيّة إنّ إنليل هو إبن "آنو"، رغم أنّه في نصوص أخرى يُعتبر من نسل أوّل زوجَين إلهيَّين، وهما "إنكي ENKI" و"نيكي NIKI" سيّد الأرض وسيّدتها.

وعلى الرغم من أن إنليل يرتبط بمدينة نيبور، فإنّه يعدّ الإله الأسمى لكلّ سومر، وهو يمسك بالألواح التي سطّرت فيها أقدار البشر جميعًا، ولقد ظلّت مدينة نيبور مدينة مقدّسة ومركزًا للحجّ طوال مدى التاريخ البابليّ، رغم أنّ الإله "مردك" أو "مردوخ

---

[1] ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٣٥.

MARDUK" إسمه في الأصل "مار ـ دوكو" أي ابن الإله "دوكو" ويذكر حمورابي أنّه الإله إنكي وهو إله مدينة بابل، ثمّ صعد إلى قمّة مجمع الآلهة البابليّة لأسباب سياسيّة خالصة، فبعد أن كان إلهًا هامشيًّا أصبح الإله القوميّ للشعب البابليّ في عهد حمورابي. إستولى في أواسط الألف الثانية على مكانة إنليل ووظيفته داخل بابل. وفي آشور كانت "نيليل NILIL"، زوجة إنليل ورفيقته في ذلك الوقت، متّحدة مع الإلهة العظمى "إنين INNIN" السومريّة التي تُسمّى شعبيًّا "إينانا INANNA"، سيّدة السماء، وكانت إينانا إلهة الحبّ والخصب عند السومريّين، اختارت أن تهبط درجات الموت السبع في العالم السفليّ، فكان في نزولها غياب لمظاهر الخصوبة في التربة، وغرس الأشجار، وموت النبات، وفي صعودها بعد أن قهرت الموت انتعاش لقوى الخصوبة الممثّلة فيها، وانبثاق الخضرة والحياة في مملكة النباتات. وقد اتّخذت الإلهة "إينانا" عند البابليّين اسم "عشتار"، وهي تهبط إلى العالم السفليّ لتحرير زوجها تمّوز الأسير هناك. وذلك عكس "إينانا" السومريّة التي أرسلت زوجها "دوموزي" للموت مكانها بعد أن صعدت من ذلك العالم، وذلك كشرط أساسيّ لتحريرها.

أمّا ثالث قادة مجمع الآلهة، رغم أنّه لم يكن لدى السومريّين أيّ تصوّر عن تثليث الآلهة، فكان "إنكي ENKI"، إله العالم السفليّ، وهو المعروف في الأكاديّة باسم "إيا EA" إله الأعماق، فقد حكم المياه في بدايتها، وتُعزى إليه الحكمة كلّها، وفي مقابل استعلاء "آنو" و"إنليل" وغطرستهما، نجد أنّ "إيا" كان محبوبًا من البشر ومن رفاقه الآلهة في آن واحد. ولمّا كان يعلم جميع الأسرار، فقد علّم الإنسان الأوّل جميع الفنون اللازمة للحياة والتقدّم، وهو الذي عرّفهم بخطط الآلهة، ومن هنا فقد أفشى للإنسان سرّ الطوفان، كما علّم الناس طقوس التعاويذ، ولذلك فقد كان الناس يعودون إليه ليستوضحوه بعض الأسرار اللاّغزة عليهم؛ ولهذا أصبح في ما بعد راعي السحرة

والحرفيّين، وكانت مدينة "إريدو ERIDUK" على الخليج العربيّ هي المركز الرئيسيّ لعبادته. وكان ابنه مردك هو الذي عُهِدَ إليه برئاسة مجمع الآلهة كلّه عند البابليّين عندما كانت مدينة بابل هي مركز الدولة القويّة التي سيطرت على معظم بلاد ما بين النهرَين. وفي ذلك الوقت كان الإله "نابو NABU" إبن مردك، وهو راعي العلم، ولا سيّما الفلك وفنون الكتابة، قد ظفر بمناطق جديدة تحت سيطرته، سواء في بابل أو في المدينة المجاورة لها، التي يوجد فيها معبده وهي مدينة "بورسيبا BORSIPPA"، ويرجع صعود نجم الإله مردك، من ناحية، إلى مدرسة دينيّة ألّفت التراتيل والصلوات لتمجيده، ثمّ أضافت الفصل الثاني عشر والأخير إلى ملحمة الخلق "الكلاسيكيّة"، لكي تجمع له النعوت والألقاب التي يوصف بها الآلهة الخمسون الرئيسيّون جميعًا، وهكذا نجد في قوائم الآلهة إلهًا مثل "حدد ADAD" الذي يُقال عنه إنّه "مردك" الذي ينزل المطر، وإله القمر "سن SIN" على أنّه "مردك الذي يضيء الليل". لقد سعت هذه الجماعة عن طريق عمليّتي التوفيق بين المعتقدات والحماس العالي إلى فرض نوع من "الوحدانيّة MONOTHISM"، ولكنّها لم تنجح قط، لأنّه كان لا يزال للآلهة المحليّة أنصار متعلّقون بهم، رغم توقيرهم "لمردك"بقدر توقيرهم لـ"إنليل" من قبل على أنّه الـ"بعل BEL" أو السيد، ولقد قامت هذه الحركة بدورها في زيادة تبسيط مجمع الآلهة.

وهناك إلهة رابعة هي "تنخرساج NINHURSAG" أو "تينماح NINMAH" السيّدة المبجّلة أو الأمّ الأرض الأصليّة، وهي ترتبط في الفكر السومريّ "بإنليل" و"إيا" في خلق الجنس البشريّ. فإنّ ننرساج هي الأرض ـ الأمّ عند البابليّين، انبثق عنها كلّ الأحياء من نبات وحيوان وبشر، وهي النموذج الأموميّ الأوّل، واسمها السومريّ "كي"، ولها أسماء أخرى منها: "ننماخ"، و "ننتو"، و "مامي"، و "ماما" [1]...

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٣٥ ـ ٣٨.

وكان هناك مجموعة ثانية من الآلهة تتألّف من القمر، وهو "تنار NANNAR" عند السومريّين" وكذلك "سين"، والشمس وهي "أوتو UTU" عند السومريّين و"شاماش" أو "شمش" عند الساميّين. ثمّ هناك الكواكب الرئيسيّة ونجمة الصباح "عشتار ISHTAR"، وهي كوكب الزهرة "فينوس VENUS"، والقمر في قاربه الهلاليّ يعبر السماء المظلمة بانتظام، ويقسم السنة إلى أشهر كلّ منها ثلاثون يومًا. أمّا الإله "تنار NANNAR" فهو ابن "آنو" أو ابن "إنليل" عند آخرين، وزوجته "ننجال NINGAL" "السيّدة الكبيرة"، أمّ إله الشمس، والإلهة الرائعة "إنانا INANNA" ويقع معبدها الرئيسيّ في مدينة "أور UR" ولها معبد أخر في "حرّان". أما "شامان" أو "شمش" أي الشمس، فهو يعبر السماء يوميًا مبدّدًا الظلام والشرّ، بينما يوزّع أشعّته بالتساوي على جميع الموجودات على نحوٍ صارم، وبلا تفرقة. وفي الليل يعبر العالم السفليّ، ويواصل دورته بوصفه القاضي الأكبر، و"إله القرارات"، وكان يُرمز له في بابل بالشمس ذات الأشعّة الأربعة، في حين كانوا يصوّرونه في آشور بقرص الشمس المجنَح، على الرغم من أنّ المراكز الرئيسيّة لعبادته كانت تقع في مدينة "سيبار SIPPAR" و"لارسا LARSA" في بابل على نهر الفرات، وكان هناك هيكل واحد على الأقلّ مخصّص لعبادته في كلّ مدينة من المدن الرئيسيّة. ولقد استولت الإلهة العظيمة "عشتار" بالتدريج على وظائف كثيرة من الإلهات الإناث السابقات، وأصبح اسمها مرادفًا للفظ "الإلهة"، في حين أنّها كانت هي نفسها راعية الحرب والحبّ في آن واحد. ويمكن أن نراها في تعبير الفنون عنها وهي تقف سيّدة لمعركة مسلّحة بالقوس والرمح، وترتدي قلادتها اللاّزورديّة وهي تضع قدمها على رمزها: الأسد. أمّا بوصفها إلهة الحبّ، فقد كانت في العبادة الشعبيّة تُعبد في جميع أنحاء البلاد وتحت صور محليّة مختلفة. أمّا معبدها الرئيسيّ ففي مدينة نينوى، كما انتشرت عبادتها من هذه المدينة تجاه الغرب، حيث عُرفت إلهة الحبّ والخصب باسم

"عشتار إربيل"، وكان يُنظر إليها على أنّها ملكة السماء، وبهذا الإسم جذبت نساء اليهود[1]، وهي تُعبد عند السومريّين باسم "عناة ANAT، وعُبدت عند عرب الجنوب في اليمن كإله ذكر باسم "عثتر ATAR" أو "إله نجم الصباح"، وقد ذُكرت أيضًا في أسفار العهد القديم باسمها العربيّ. وعند اليونان باسم "أفروديت APHRODITE"، ويرى بعض الباحثين أنّ الإسم تحريف يونانيّ للاسم الساميّ عشتروت، وهي ربّة الخصب عند الفينيقيّين وبالتالي ربّة الحبّ. وعُبدت عند المصريّين باسم "إزيس ISIS". ولقد كان في بابل وحدها مائة وثمانون معبدًا على جانب الطريق في الهواء الطلق حيث كان من الممكن التوجّه إليها بالصلاة أو تقديم النذور. ووفقًا لما ترويه نصوص التراث البابليّة، فقد هبطت عشتار ذات مرّة إلى العالم السفليّ وهي تبحث عن حبيبها المفقود "دموزي DUMMUZI" أو "تمّوز TAMMUZ" ونتيجة لهبوطها هذا توقّف الخصب والإخصاب في البلاد، وكانوا يربطون في علم التنجيم بينها وبين نجمة السماء ونجمة الصباح "فينوس VENUS".

ويخلص الباحث إلى القول بأنّ هذه الآلهة السبعة الرئيسيّة كان يخصّص لها حجرة داخليّة صغيرة في مجمع الآلهة، وهي الآلهة السبعة التي تحدّد مصائر البشر جميعًا، يساعدها خمسون روحًا عظيمًا، وهم آلهة السماء السبعة العظام المسمّاة بآلهة

---

١ ـ أنظر العهد القديم حيث جاء: الأبناء يلتقطون حطبًا، والآباء يوقدون النار. النساء يعجنّ العجين ليصنعن كعكًا لملكة السماوات" إرميا ٧: ١٨، ٤٤: ١٩.وبما أنّها كانت إلهة الحبّ والحرب معًا، فقد ذكرتها أسفار العهد القديم بالصفتَين، الأولى حيث تُوضع أسلحة شاؤول وأبنائه التي غنموها في الحرب في معبد الإلهة، "ووضعوا سلاحه في بيت عشتاروت وسمروا جسده" ـ صموئيل الأول ٣١: ١٠؛ وكان سليمان يقدّسها بالصفة الثانية وبنى لها معبدًا شرق القدس، فقد "أحبّ الملك سليمان نساء غريبّة كثيرة، فأمالت نساؤه قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الربّ. فذهب سليمان وراء عشتاروت فغضب الربّ على سليمان لأنّ قلبه مال عن الربّ إله إسرائيل... لأنّهم تركوني وسجدوا لعشتاروت" ـ سفر الملوك الأوّل، ١١: ١، ٤ و٥ و٣٣؛ كذلك: "المرتفعات التي بناها سليمان ملك إسرائيل لعشتاروت" ـ الملوك الثاني ٢٣، ١١.

المصير "أجيجي IGIGI، وإلهة العالم السفليّ "آنوناكي ANNUNAKI" الذين يحدّدون، مجتمعين، القوى الروحيّة التي تعمل فوق الأرض وتحتها[1].

شَجَرَةَ الآلهَة السومَريَّــة

حاول الباحث خزعل الماجدي[2] تنظيم خلاصة لشجرة أنساب الآلهة السومريّة، وقال: تتكوّن الشجرة من مستويات عدّة، يضمّ كلّ مستوى مجموعة من الآلهة التي يربطها في الغالب نسبٌ واحدٌ، وأحياناً طبيعة واحدة، وهي كما يلي:

١. آلهة الهيولى والخليقة الأولى (آلهة الجذور): وهي الآلهة البدئيّة التي تشكّل منها الكون، وهي قديمة وأزليّة في الوقت نفسه، لأنّ أجسادها تشكّل الكون والعالم. والإلهة "نمو NAMMU" هي أمّ الآلهة السومريّة والآلهة الهيوليّة الأولى، والتي نتج عن حركتها تكوّن جبل الكون الأوّل "آن ـ كي AN-KI" الذي يتضمّن السماء والأرض في حالة تلاصق أو اندماج.

٢. آلهة العناصر الأربعة: وهي الآلهة التي كوّنت مادة العالم ثم كوّنت الحياة، وتشمل آلهة المصائر الكبرى (آن، كي، إنليل، إنكي) وتقابل (السماء، الأرض، الهواء، الماء). "آن AN" هو إله السماء، ويظهر لنا في الأساطير السومريّة على أنّه الإبن المباشر للإلهة "نمّو"، الذي تسلّم مقاليد الكون بعدها، وكأنّه يذكّرنا بالانقلاب الذكوريّ الذي حصل في عصر "الكالكوليت" "الحجريّ المعدنيّ" عندما انتزع الرجل مقاليد الحياة من المرأة التي سيطرت علىالألوهيّة والحياة منذ اكتشاف الزراعة. والإله "آن"

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٣٩ ـ ٤٠.

٢ ـ الماجدي، الدين السومريّ، ص٦٦ وما بعدها.

في العقيدة السومريّة إله عالميّ مسؤول عن البشر أجمعين وعن الأرض والسماء. وللإله "آن" معبد رئيسيّ في أوروك اسمه "اي - أنّا" أي "بيت السماء"، وزوجته الإلهة "كي" التي هي الأرض. ومن تزاوجهما أنجبا "إنليل" إله الهواء، و"إنكي" إله الماء، و"تسكو" إله النار، و"تنخرساج" إلهة الأرض. وهذه هي آلهة العناصر الأربعة. وله أيضًا سبع بنات مسؤولات عن الزراعة والشفاء هنّ (باو، ننسينا، كولا، ننكارك، جتومدو (مزب)، ناناي، ننتي نوجّا) وللإله "آن" أبناءٌ شياطين في العالم الأسفل وأبناء ملائكة في السماء.

إنليل ENLIL: وهو إله الهواء، الذي أصبح الإله القوميّ السومريّ الذي وُضعت في صفاته كلّ أشكال القوّة والسلطة والجبروت والحزم، وهناك ما يشير إلى أنّه أخذ سلطات أبيه الكونيّة وفاز بها، ويظهر إنليل على رأس مجمع "الأنونا" (الخمسين) الذي يضمّ أغلب الآلهة المسؤولين عن شؤون الأرض، ويعَدّ إنليل وشجرته الهوائيّة مصدرًا للموت والظلام والعالم الأسفل والهواء ووالد الكواكب المنيرة، إذ إنّ الصفات الأساسيّة لإنليل وشجرته تعكس مبادئ الحزم والقوّة والموت. والإله إنليل أب لأربع مجاميع من الآلهة هم الفصول: "إيميش" أي الصيف، و"أنتين" أي "الشتاء"؛ والعالم الأسفل: "ميسلام تاي" أو "تركَال"، و"إليجبيل" أي كَيبل" إله النار، و"تنازو" إله الشجرة والطبّ، و"بابيل سانج" إله البوّابة؛ والمجموعة الثالثة هي العاصفة ممثّلة بإلهَيها "تنكَرسو" و"تنورتا". أمّا المجموعة الرابعة فتضمّ الإله الوريث له وهو الإله "نانا" إله القمر. وزوجة الإله إنليل هي الإلهة "سود" التي صار اسمها بعد زواجه منها "ننليل".

إنكي ENKI: وهو إله الماء، وإله الحياة، وشجرته تحمل كلّ الآلهة الذين يمثّلون مظاهر الحياة، ويوصف أيضًا بأنّه الأرض لارتباط الماء بالأرض وإنجابهما للحياة. مدينة الإله إنكي هي أريدو، ومعبده فيها يُسمّى معبد الغور "إي – إنغورا"، ويسمّى

أيضًا معبد الأعماق "إي - أبسو". وللإله إنكي وزير اسمه "أسيمو" أو "إيسمود"، وهو في الحقيقة ابنه وله علاقة بالمياه والزوارق والقصب ويظهر برأس بشريّ وله وجهان. والإله إنكي هو الذي خلق الإنسان وأحبّه وأعطاه نواميس الحكمة والآلهة وبعث بكائنه السمكي "أونيس" ليعلّمه فنون الحضارة والكتابة، وهو الذي أنقذ الإنسان من الطوفان. وتبدو للإله إنكي ثمانية مجاميع من الآلهة، جميعها يرتبط بالحياة واستمرارها ولا أثر في سلالته للموت مطلقًا، بل إن أغلب الإلهات من نسله صرن في ما بعد زوجات لآلهة النسل الإنليلي، وهذا أيضًا من صفات الحياة لأنّه مانح الأنوثة.

كي KI: وهي إلهة الأرض، وتبدو إلهةً قديمة، ولكنّ شخصيّتها تختلط بالإلهة "ننخرساج" التي تسمّى "ننكي" أي سيّدة الأرض، وربّما كانت ننكي ابنتها، وفي جميع الأحوال يمكننا القول إنّ الإلهة "ننخرساج" هي رديفة "كي"، وهي بذلك زوجة الإله إنكي، ولها عدّة ألقاب هي: "دامكَال نونا" أي زوجة الأمير الكبيرة، و"ننماخ" أي السيّدة الكبيرة، و"ننتو" أي سيّدة الولادة، و"ما مي" أو "ماما" وهي الأمّ، و"ماري" وهي العذراء، و"كَاتوم دوك" أي إلهة الأطفال، و"بيليتي" أي آلهة النسل، و"أوراش" أي الأرض، و"أرورو" أي التي تُخرج الطفل من الرحم، و"دنكَيرما" أي الإلهة الأمّ، و"ننمينا" أي سيّدة القبّعات الإلهيّة. وحقيقة الأمر أنّ الإلهة "ننخرساج" هي الإلهة السومريّة الأمّ، وهي إلهة الاخصاب، أمّا "إنانا" فهي شابّة لعوب تمارس الحبّ الطائش، وقد استحوذت في ما بعد على صفات ننخرساج زورًا. وربّما حصل هذا مع "دموزي" الذي هو حصرًا إله المراعي والحظائر، لكنّ صفات إنكي الخصيبة أُسبغت عليه. وهناك زوج آخر لننخرساج يظهر كإله في العالم الأسفل هو "شولبي" الذي أنجبت منه إلهَين هما "موليل" ولعلّه "ليل" الذي يموت ويُبعث مثل دموزي، والآخر هو "اشَرجي"، وإلهة واحدة هي "أغيم".

٣. سلالة إنليل: تمتلئ شجرة إنليل الإلهية بآلهة يمثّلون في الغالب عناصر الهواء والظلام والكواكب والفصول والرياح والموت (العالم الأسفل) وهي شجرة جافّة تفتقد إلى الحياة والمرونة، ولذلك تسود صفات القسوة والحزم والسلطة والقوة على آلهتها، وهم:

إلاها الفصول وهما: "إيمش" أي الصيف، و"إنتين" أي الشتاء، وهذان الفصلان يعبّران عن أهمّ موسمَين في سومر حيث الربيع يندغم بالشتاء والخريف بالصيف. وهناك قطعة من أدب المناظرة السومريّ، وتُسمّى بالسومريّة "أدمندوكَا ADMANDUGA"، تروي قصّة خلق "إيمش" و"إنتين" والمنافسة بينهما أمام أبيهما "إنليل" حيث يوصف إيمش (الصيف) بأنّه خلق الأشجار والحقول ووسّع الحظائر والزرائب وأزاد المحصول في المزارع، أمّا إنتين (الشتاء) فيوصف بأنّه جعل النعاج تلد الحملان والماعز تلد الجداء وكاثر الأبقار والعجول وزاد اللبن وأفرح الماعز المتوحّش والنعاج والحمير والطيور والأسماك ووفّر العسل، ثمّ ينتصر الإله إنليل إلى الشتاء ويعطيه لقب "فلاّح الآلهة".

إلاها العاصفة وهما" "تنورتا" إله الإعصار، و"تنكَرسو" إله مدينة كَرسو، وهما يمثّلان العاصفة القويّة وعلاقتهما تتّصل بالحروب والموت والدمار، لكنّ ننورتا يظهر بعض صفات الإخصاب الزراعيّة بحكم ارتباطه بزوجته "باو" أو "بابا"، وهي ابنة "آن" وإلهة الزراعة ثمّ صارت إلهة الطبّ والشفاء ورمزها الكلب. أما الإله ننكَرسو فقد عُبد في "لكَش" وكان يُطلق على معبده اسم "بيت البجّارا" وتقدّم له نذور كثيرة، وكان يُرمز له بطير الصاعقة "أمدوكّد" أو "زو" الذي يظهر برأس أسد وجناحَي نسر. وكان للإله ننكَرسو ولدان هما "كَال أليم" وهو إله الحقّ وصدّ الشر وإله الملوكيّة. والآخر "شول شاكَا" إله السكائب والقرابين وإله الحياة أو الحيويّة لارتباطه بالدم.

آلهة العالم الأسفل: وهم أربعة آلهة، ذكرت أسطورة إنليل وننليل كيفيّة إنجاب ثلاثة منهم هم "ميسلام تاي" وهو "تركَال" الذي كان إلهًا شمسيًا لكنّه هبط في ما بعد إلى العالم الأسفل وتزوّج "أرشكيكَال" وبقي معها إلى الأبد يحكمان العالم الأسفل وله عدّة أسماء أخرى (لوكَالجيرا، لوكَال جودوا، لوكَال أبياك)؛ والثاني هو الإله "جيّرا" أو "جيّرو"، ويمكن أن يكون هذا الإله مصدر خير أو شرّ للناس وفقًا للتأثير الذي تحدثه النار نفسها، إذ بإمكانه أن يقدّم الضوء والدفء بواسطة النار أو يسبّب الحرائق والمصائب، وتذكر بعض المصادر أنّه إبن "إنكي" إلاّ أنّ هذا غير دقيق. وفي نصوص "الاوتّوكو"، وهي العفاريت الشرّيرة بالسومريّة والأكاديّة، يظهر "جبيل" مع الإله إنكي يصعدان إلى السماء ليكتشفا سرّ العفاريت الشرّيرة السبعة: "سبيتو"، وهي مخلوقات الإله "آن" التي تمّ خلقها دون معرفة إنكي، وعند ذاك يرسل إنكي جبيل إلى ابنه "أسارلوحي" الذي يزوّده بالتعاويذ اللاّزمة لمجابهة الـ"سبيتو"؛ أمّا الإله الثالث فهو الإله "تنازو" ويعني اسمه بالسومريّة "السيّد الطبيب"، ويظهر هذه الإله دائمًا على أنّه ابن "أرشيكيكَال" و"تركَال" وليس ابنًا لإنليل كما تذكره الأسطورة، وهو إله الشفاء والاغتسال في العالم الأسفل، وكانت عبادته منتشرة في منطقة "ديالى" حتّى سلالة أور الثالثة، وحلّ محله في ما بعد الإله "تشباك"؛ أمّا الإله الرابع فهو إله عتيق جدًّا اسمه "بابيل سانج"، ويُعتقد أنّه كان إله مدينة "لاراك" قبل الطوفان كما جاء في الرواية السومريّة، وهو زوج إلهة الشفاء "تينسينا" التي كانت تلقّب أحيانًا بـ "سيّدة لاراك".

إله القمر "نانا": وكان له اسم قديم هو "سواين" أصبح في ما بعد الجذر الساميّ "سين"، ومن ألقابه السومرية "أشيم بابار" الذي يعني صاحب الشروق المشعّ، وكان يلقّب أيضًا بـ "نور إنليل". وزوجة الإله القمر هي "ننكَال" أي السيّدة الكبيرة. وكان "نانا" يُعبد في معبد أور المسمّى "أكيشنوكَال"، وفي معبد "الهلهول" في حرّان حيث كان

يُعبد الإله "توسكو" إله الضوء والنار ابنًا له. وقد صُوّر على شكل ثور لــه قرنـان همـا الهلال، وصوّر على شكل "سفينة السماء" أو "سفينة شحن بضائع السـماء". واتّخذ منـه السومريّون مصدرًا لمعرفة الزمن، لأنّ أطواره الأربعة التي تبدأ بالهلال "شمباتارا" ثمّ "تارخ"، ثمّ نصف البدر "تكر" أو "إنسون" أي الثور البرّي، ثم البدر "سين" أو "شين"، ثمّ نصف البدر، ثمّ الهلال، ثمّ المحاق "بوبولو". وكانت مراحل ظهور الهلال الأربعـة تستغرق كلّ واحدة أسبوعًا كـاملاً، ومن هنا ظهر مقياس الأسبوع بسبعة أيّام، أمّا المرحلة الأخيرة أو المحاق فكانت تستغرق من يومَين إلى ثلاثة، وبذلك يكون الشهر القمريّ قد اكتمل. وهكذا أصبح القمر مقياسًا للتقويم السومريّ، ولم تؤخذ الشمس بسبب ثباتها الدائم، وقد ظلّ هذا في الإسم الساميّ الآخر للقمر وهو "ورخ" أو "تارخ" الذي يشير إلى التاريخ. وكان خسوف القمر يعلَّل بأسطورة تقول إنّ الآلهة الشرّيرة "سبيتو" تسرق وتصرع الإله القمر وتحجبه. وكذلك يُفسّر غيابه لمدّة ثلاثة أيّام في نهاية كلّ شهر في مرحلة المحاق التي كانت تُسمّى "بوبولو" بأنّ الشياطين من العالم الأسفل تقوم باحتجازه وأسره والذهاب به إلى هناك موقّتًا، وكانت تجري بعض الطقوس لفكّ أسره. ونرى أن كلمة "تنسون" التي هي الإلهة المسمّاة بالبقرة الوحشيّة لها علاقة بتسمية نصف البدر "إنسون" التي تعني الثور الوحشيّ. وربّما كانت ننسون قرينة إنسون في هذه المرحلة رغم أن الإلهة ننسون تظهر قرينة لإله الشمس أب كَلكَامش الإلهي لأنّها كانت أمّه.

أبناء الإله القمر: للقمر ولدان أحدهما كوكب "أُوتو" إله الشمس، والآخر إله "كَزالو" أو "نوموشدا". وله ابنتان إحداهما تمثّل كوكب الزهرة وهي "إنانا" إلهة الحبّ والجمال، والأخرى إلهة العالم الأسفل "أرشكيكَال" وهي إلهة الظلام والموت. والإلهة "إنانا" لعبت أعظم دور بين الآلهة، فقد طغت أساطيرها وقصصها وقدرتها على بقيّة

الآلهة، وهي التي أسماها الأكاديّون ثمّ البابليّون "عشتار". وقد ظهرت عبادتها مبكّرة في أوروك في الألف الرابع قبل الميلاد. ولها معابد في أوروك وماري ونوزي، ويمكن أن نحدّد لها بدقّة ثلاث صفات ثابتة: الأولى أنّها إلهة الحبّ والإغواء والجنس والجمال، والثانية أنّها إلهة الحرب ونزعات التدمير والقتال، والثالثة أنّها إلهة نجم الزهرة الذي يُسمّى بنجمة الصباح أو نجمة العشاء، أمّا الصفة التي يعطيها بعض الباحثين حين ينسبون لها صفات الخصوبة والإلهة الأمّ فهي غير أصيلة فيها، فقد أُسبغت عليها من الإلهة السومريّة الأمّ "تنخرساج" التي بدأ ذكرها بالخفوت بعد السومريّين. ولعلّ أكثر القصص التي اشتهرت بها "إنانا" أساطيرها مع الإله "دموزي" عشيقها وزوجها وقتيلها في الوقت نفسه، وهو الإله الراعي المسؤول عن حظائر الأغنام والماعز، وقد أخذ صفات الخصب من الإله إنكي خصوصًا عند الأكاديّين عندما تحوّل إلى "تموز". كذلك يرد ذكره على أنّه أحد سكّان العالم الأعلى (السماء) حارسًا لبوّابة "آن" مع الإله "تنكشزيدا"، وكذلك أحد سكّان العالم الأسفل مع نفس هذا الإله[1]. وهناك خمسة أبناء للإلهة "إنانا" من "دموزي"، وربّما من غيره، وهم: الإلهة "إشخارا" التي ذُكرت في عيلام وعصر أور الثالث، وهي الإلهة المختصّة بضمان تنفيذ العهود المقطوعة أمام الآلهة، ولذلك تُسمّى سيّدة القضاء والأضاحي، ولها صفات حربيّة، ورمزها هو العقرب، ولها سبعة أبناء أو عفاريت، يبدو أنّها ورثت صفات "إنانا". أمّا الأبناء الأربعة الباقون لها فهم "شارا" الذي يختلط أحيانًا بصفات "إشخارا"

---

١ ـ يقول الماجدي: لنا رأي خاص في الأسباب العميقة التي أدّت إلى موت دموزي ونفيه إلى العالم الأسفل مفاده أنّ هذا الإله هوالإله الذكريّ الوحيد من سلالة إنكي (هو ابن إنكي) الذي تزوّج إلهة أنثى من سلالة إنليل، في حين أنّ أغلب بنات إنكي كنّ زوجات للذكور من سلالة إنليل، على اعتبار أن سلالة إنليل كانت تمثّل القوّة والبطش والذكورة والموت، وسلالة إنكي كانت تتمثّل باللين واللطف والأنوثة والحياة، وأنّ الذي حصل بين دموزي وإنانا هو الشذوذ الوحيد في تلك القاعدة ولذلك كان لا بدّ من عقاب دموزي وموته.

وهو إله مدينة أوما، إله الحرب، وربّما كانت له علاقة بـ "الزواج"، والإله "لـولال" إلـه "لتراك"، والإله "تنخار" إله الرعد والعواصف، والإله "إشكر" إله البرق الذي ظهرت من صفاته شخصيّة الإلـه "أدد" السومريّ ثمّ "هدد" أو "حدد" السـاميّ، وهناك ختم أسطوانيّ من تلّ الرماح من القرن الثامن عشر ق.م. يذكر الإله "إشكور ـ أدو" كإسم مركّب من اسمَين لإله العاصفة، وهو زوج الإلهة "شـالا" أو "شلش" أو "أمجرو" إلهة النار. وهكذا حافظت سلالة "إنانا" على صفات السلالة الإنليليّة الهوائيّة الناريّة المميتة.

أمّا أبناء الإله "أوتو" إله الشمس من زوجتـه "آيـة" فهم ستّة أبنـاء، أولّهم "بونينه" وزير وسائق عربة الشمس، ثمّ "خار" راعي الحيوانات البرّيّة، و"سموكَان" راعي النباتات، و"سيسكَال" إله العاصفة، و"تكَجينا" إله الصدق والحقّ، و"مامو" إلهة الأحلام. وكان الإلهان "إشكر" و"أوتو" يُعتبران إلاها العرافة وتفسير الأحلام. والإلهة "ارشكيكَال" إلهة الموت والعالم الأسفل ويعني اسمها "سيّدة الأرض الكبيرة"، وتذكر الروايات السومريّة لها زوجَين هما "كَوكَال أنّا" أي ثور السماء الكبير، و"نركَال"، ولها من الأخير ثلاثة أبناء، اثنان منهما بمثابة الوزيرَين لها ولنركَال وهما "نمتار" مقدّر المصير وإله الستّين مرضًا ووزيرها، والثاني "خيندر ساك" إله الموت وزير نركَال. أمّا الإبن الثالث فهو الإله "تنازو" الذي ظهر في رواية أخرى على أنّه إبن إنليل ونتليل. وهو إله الطبّ وإله الشجرة، وابنه الإله "ننشكَزيدا" حامل العرش، ومعنى اسمه "سيّد شجرة العدل" وربّما المقصود منها "شجرة الحياة"، ويلقّب في المدائح الإلهيّة بـ "خادم الأرض الواسعة" و"محرّك كرسي الأرض الواسعة"، وهو زوج الإلهة "آزيموا" إلهة مقاطعة في "لكَش"، ولهما ابن هو "دامو" إله النسغ الصاعد في النباتات، والذي تذكره نصوص أخرى على أنّه ابن إلهة الشفاء "ننسينا" من زوجها "بابيل سانج"، وكانت علاقته بالطبّ والشفاء واضحة.

سلالة "إنكي": وهي السلالة الكبيرة الثانية في شجرة أنساب الآلهة السومريّة التي تعبّر عن الحياة والماء، وتشير إلى الجانب المعاكس تمامًا لسلالة إنليل، فهي تحفل بآلهة لهم وظائف مرتبطة بالأنوثة والولادة والخصب والنبات والحيوان والإنسان. وقد رأى الباحث أنّ من الأنسب تصنيف هذه الآلهة التي هي من نسل إنكي وزوجته ننخرساج إلى ثمانية أصناف هي:

ـ الإلهان عديما الجنس المخنثان "كوركالا" و"كولاتور" اللذان صنعهما إنكي من الوسخ الذي تحت أظافره، لانقاذ "إنانا" من العالم الأسفل.

ـ آلهة المياه وهم: "دموزي أبسو"، وهو غير الإله "دموزي"، فهو إله المياه العميقة، وعلى الأغلب هو إلهة أُنثى من محيط لكَش، إلهة مدينة "كينرشا" وترتبط بإله المحيطات العذبة "أبسو"، وقد فقدت أهمّيتها بعد العصر البابليّ القديم لتضاؤل دور مدينة لكَش السياسيّ؛ "أنبيللو"، وهو إله المياه والحقول وكان معنيًّا بالأقنية والسدود والترع بالإضافة إلى المطر، وقد اختاره الاله إنكي للإشراف على دجلة والفرات، وله شكل أنثويّ، هو الإلهة السومريّة "بيللو" المرموز لها بقربة الماء والمعروفة بعداوتها للإله دموزي؛ "سيرار"، وهو إله الخليج العربيّ، ويُعتقد أنّه حفيد "بيلّلو" المسمّى "سرو"؛ "إيسمود"، وهو الإله "إسمو" ذو الوجهَين وزير الإله إنكي؛ و"تندارا" وهو جابي البحر وزوج "تانشة" و"نازي".

ـ آلهة النباتات وهم: "آبو"، وهو ملك النباتات وإلهها ويعنى بالخضرة والحشائش الصغيرة، وقد حظي بالعبادة في مملكة "أشنونا" في منطقة "ديالى"، وعُثر في "تل أسمر" على تمثال له ولزوجته وما يشير لولده؛ "دموزي أمّا أشموكَال أنّا"، وهو القوّة المخصبة التي تكمن في النخيل وتسبّب الطلع والخصب لها، وهو غير الإله الراعي دموزي؛ "أنكمدو"، وهو الإله الفلاّح؛ "نصابا" إلهة الحبوب ثمّ إلهة الكتابة والأعداد في

سومر؛ "أشنان" إلهة الغلّة؛ "تنموخ"، إلهة الغابات؛ "تنغيردا" أو"تنكيري" أو "تنسوتو"، زوجة الإله ننازو؛ "كَشتن أنّا" سيّدة دالية الكروم وأخت الإله دموزي؛ "تازي" زوجة الإله ننداراا؛ "آزيموا" زوجة الإله ننكشزيدا؛ "تنكيري أوتو" وهي إلهة نباتية؛ "تنسار" سيّدة الخضار والنباتات التي تؤكل؛ "تنمو" سيّدة النباتات ذات الألياف؛ "إيمر" إله الحبوب؛ "أزينو" إله أو إلهة الحبوب والزمن؛ "كوسو" و"باسيكيل" إلاها الحبوب.

- آلهة الحيوان، وهم: "دموزي" وهو راعي الأغنام والماعز، وهو أكثر الآلهة شهرة على المستوى الشعبيّ حيث كانت تُمارَس شعائر وطقوس عبادته بشكل واسع، ويرى بعضهم أنّ دموزي وعقيدته الدينيّة أساس العقيدة الدينيّة السومريّة وأساس المواضيع الخالدة فيها، ولعلّ أساطير دموزي مع "إنانا" من أشهر أساطير الحب والجمال، وكذلك طقوس الزواج المقدّس؛ ثمّ "لهار" أو "لخار"، وهو إله الأغنام والحظائر ومنتوجاتها؛ "تنسون" وهي البقرة الوحشية أمّ الإله دموزي أحيانًا، وتُسمّى "سرتور" وأُم "كَلكَامش" والأمير "كَوديا"؛ "تانشة" إلهة الأسماك؛ "تنمار" إلهة الطيور؛ "زبابا" إله الأغنام وحقولها والمسؤول عن ذبحها وهو إله الحرب في "كيش"؛ "بليلي" وهي الوجه المؤنّث لـ" "إنبيليلو" وتظهر قاطنة حظائر الماشية.

- آلهة العمران: "ممو" إلهة الحرف والمهارات؛ "تنتي" إلهة الشهور وراعية الزمن وهي الإلهة التي تحيي، وقد كانت مصدر فكرة حوّاء في الديانة العبريّة، لأنّها إلهة الضلع أيضًا؛ "إنشاج" إله "دلمون" ويسمى أيضًا "إنزاك"؛ "تنسيكَلا" إلهة "دلمون" ومكَان "عُمان"؛ "تنكاسي" إلهة الخمرة أو إلهة الكأس؛ "كَبتا" إلهة الفأس والقرميد؛ "كولا" إلهة الطابوق وصناعته؛ "مشدما" إلهة المساكن؛ "هايا" إله الصوامع زوج "نصابا"؛ "تندوب" إله المعمار ومصمّم المعابد؛ "تنكورا" إلهة الأصباغ؛ "أتو" إلهة النسيج؛ "أشموكَال كَلاما" إله الموسيقى والقيثارة؛ "تيبال" أو "تابيرا" إله المعادن؛ "ميرسو" إله الريّ؛

"طقطوق" إله الصناعة؛ "ساتران" إله مدينة "دير"؛ "نيراح" أو "نيراه" القوّة الحامية للبشر ويصوّر كثعبان؛

ـ "أسلّوحي ASALLUHE": هو الإبن الوريث للإله إنكي، ويمثّل الغيوم المرعدة، وهو الجذر السومريّ للإله "مردك" أو "مردوخ" "ابن أيا الأكاديّ" لأنّه يحمل نفس صفاته، ولكنّ اشتقاق إسم مردوخ أتى من المقطعَين السومريَّين "أمار أوتو AMAR-UTU" اللذَين يعنيان "عجل الشمس" أو "طفل الشمس"، وكان هذا المصطلح يشير إلى كوكب المشتري الذي يمثّله مردوخ، وقد كان "أسلّوحي" أو "أساروخي" إله للسحر والتعاويذ التي ورثها عن أبيه إنكي.

ـ آلهات الولادة السبع: وهنّ سبع آلهات ثانويّات مخصّصات للولادة ويساعدن الإلهة "ننماخ" ساعة ولادة الآلهة أو الإنسان وهنّ: "نن ـ إما"، "نن ـ مادا"، "نن ـ بارا"، "نن ـ مُكَك"، "نن ـ كَونا"، "سوزي ـ أنّا"، و"موسار ـ غابا".

ـ الإنسان "لولّو LULLU" الإله الميت أو الضعيف: يوصف الإنسان في التراث الدينيّ السومريّ بأنّه إله، وهو تحديدًا إبن الإله "إنكي"، ولكنّ هذا الإنسان هو إله ميت أو ضعيف، أي محكوم عليه بالموت. وكلمة "لولّو" مأخوذة من المقاطع السومريّة "LU-UX-LU" التي تعني حرفيًّا "الإنسان البعيد أو السحيق" أو "الإنسان العاديّ". ومرادفتها الأكاديّة "أويلو AWELU" التي ترتبط بإسم الإله "وي ـ ايلا WE-ILA" ومعناه الحرفيّ "الإله الذي كانت له شخصيّة"، وهو الإله الذي ذُبح في "أوزموا" في "نفّر" وصُنع من دمه مع الطين الإنسان، وهي أسطورة أكاديّة ذات أصول مكانيّة سومريّة.

آلهـــة

آشور

أمّا آشور، فقد كانت لديَها آلهــة أخـرى موضـع توقير وتبجيـل. فإلـه الجـوّ "حـدد" يركب العاصفة، مطيّته الرمزيّة، وهـو يرعـد كـالثور، ممسكًا فـي يـده بشـوكة البـرق الثلاثيّة، وعلى الرغم من أنّه كان يجلب الخراب والدمار عن طريـق المطـر، ومـع أنّ عبادته كانت في بابل وآشور، فإنّه كان أكثر شعبيّة في المدن السوريّة الكثيرة التـلال حيث كـان يُسمّى رامـان "RAMMAN" أو "ريمـون RIMMON" أي "المرعـد"، أو يُعـرف باسم "حدد"، أو "آدو ADDU" أو باسمه الحيثيّ "تشوب TESHUB".

ويذكـر بـاحثون[1] أنّ آشـور قــد احتــاجت باســتمرار، لتــأكيد وضعهــا السياســيّ والاقتصاديّ، أن تقوم بحملات عسكريّة مستمرّة لتُبقي علـى طـرق تجارتها مفتوحـة عبر التلال والصحـارى المحيطـة؛ ولهـذا لا يدهشـنا أن نـرى آلهتهـا تتّسم فـي الأعـمّ الأغلب بسمات عسكريّة، وذلك مثـل "نينورتـا NINURTA" "سيّد الأرض" إلـه الحـرب والصيد، وهو ابن الإله إنليل، اكتسب شخصيّته القتاليّة عندما بدأت شعوب جبليّة تهدّد أمن الدولة البابليّة واستقرارها، وربّما كان هـو نفسـه "تمـرود NIMROD" الجبّـار الـذي ذكرته التوراة[2]، وهو أيضًا "جيرسو GIRSU" عند السومريّين، و"نوسكو NUSKU" الإلـه السومريّ القديم المعروف بوصفه ابن الإله إنليل، وهو يظهر فـي النصـوص الأكاديّـة إلهًا للضوء والنار. و"جبيل GIBIL" إله النار الذي يمكن أن يكون مصــدر خـير أو شـر وفق التأثير الذي تحدثه النار نفسها. ويضيف الساميّون الفارّون إلى الغرب آلهة أخرى

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٤٠.

٢ ـ سفر التكوين، الإصحاح العاشر، ٨ ـ ١٠.

إلى مجمع الآلهة البابليّ مثل "أمورو AMURRU"، وهو أيضًا "مارتو"، الإسم السومريّ لإله البدو القاطن في الصحراء، وهو أيضًا إله الطقس الذي يعصف بالمدن والقرى مسبّبًا الخراب، وكان السومريّون يشبّهون هجوم البدو بالصاعقة. و"دجن DAGAN" إله الشمس عند البابليّين، وقد كان إلهًا للعدل أيضًا، وهو الذي أوحى إلى حمورابي بشريعته. وكان الأشوريّون يبتهلون للإلهَين الأخيرَين بإسمَيهما الشخصيَّين.

العَدالَة

الإلهيَّة

يرى خزعل الماجدي أنّ السومريّين[1] تصوّروا الكون مثل دولة عادلة تحكمها الآلهة، وكان للآلهة نظام ترابيّ تتّضح فيه موازين المسؤوليّات والواجبات واضحة. بل لقد انعكس في هرمها الذي عرفناه من شجرة أنساب الآلهة نوع من التوازن العميق بين الطبيعة وأسرارها وبين المفاهيم المناسبة لهذه الطبيعة معبّرًا عنها بالآلهة.

فعندما كان "آن" إله السماء في مكانه الرفيع يطلّ على ما يجري في الكون بأكمله، فإنّه لم يكن يدخل في واجبات إنليل الذي كان يمسك بسلطات الفضاء المحيط بالأرض، وينظّم الطبيعة والكواكب والظلام والرياح ويشرف على العالم الأسفل ويعيّن من نسله آلهةً لكلّ هذه القطاعات، وكان بسبب إمساكه بالسلطة مصدر سلطة الملوك، ولذلك كان يرهبه الناس لأنّهم يعتبرونه الحاكم المطلق والذي يتّسم بالعدالة، ولم تكن العدالة هي الميزان المرهف بين الحقوق والواجبات فقط، بل تشمل السلطة والتلميح بالقسوة حتّى لا يزلّ الملوك ولا يخطئ الناس.

---

١ ـ الماجدي، الدين السومريّ، ص١٧٥ ـ ١٧٨.

أما "إنكي" فقد تعهّد الأرض تحديدًا ورعى بالخير والحياة والعمران سومر، حيث أضاءت أسطورة تنظيم إنكي لسومر كيف أنّ هذا الإله وضع بلاد سومر في حالة سير، وكانت هذه البلاد تُعدّ آنذاك مركز العالم. فكان قد سلّم إلى الإله "انبيلولو" سير النهرين، وإلى "تانا" سير المستنقعات الزاخرة بالأسماك والواقعة جنوبي البلاد، وإلى "تانشة" سير المنطقة البحريّة، وإلى "ايشكور" نظام الأمطار، وإلى "كولاّ" مصنع الطابوق، وإلى "مشداما" بناية العمارات، وإلى "سموقان" الحيوانات البريّة، وإلى "دموزي" تربية المواشي، وإلى "أتو" قطاع الثياب بكامله، وإلى "أرورو" كلّ ما يهمّ نتاج الجنس البشريّ، وإلى "تنموخ" عمل الغاب، وهلمّ جرًّا. فالعالم كلّه، حسب هذا التعليم، كان يسير بدقّةٍ مثل المملكة وحسب النظام الهرميّ للسلطة. وقد كان جان بوتيرو موفّقًا عند وصف عمل هؤلاء الآلهة بأنّ كلّ واحد منهم يعزف بآلته في موضعه في هذه السمفونيّة الشاملة، تحت مخصرة الماسكين بزمام السلطة[1].

ويقول الماجدي: لقد كانت العدالة الأرضيّة والميزان الأرضيّ مشتقّين من العدالة الإلهيّة، وهذا التناسق المدهش في عمل الآلهة. ولذلك كانت الأخطاء التي تُرتكب ضدّ هذا الناموس الشامل هي بمثابة محاولة ثلم هذا الناموس وإيذاء الطبيعة التي تحميه، وتحت هذا الفهم نمت الأخلاق السومريّة بهدوءٍ وطمأنينة وسلام. ولم يعكّر صفوها إلاّ تدخّل الأقوام المجاورين لها والذين كانت تنتابهم غرائز المركزيّة والتوسّع والحكم.

كان السومريّون يميّزون بين الخطيئة الدينيّة التي تثير غضب الآلهة وتوصم الضمير ويسمّونها "سيبيدا SE.BI.DA."، ويفرّقونها عن الخطيئة السياسيّة

---

١ ـ راجع: بوتيرو جان، بلاد الرافدين ـ الكتابة. العقل. الآلهة، ترجمة ألبير أبونا، مراجعة د. وليد الجادر، دائرة الشؤون الثقافيّة العامّة (بغداد، ١٩٩٠) ص٢٦٢.

والأخلاقيّة التي يسمّونها "تام تاك .NAM.TAG" التي تعني المعصية المرتكبة ضدّ قوانين المدينة[1].

وكان السومريّون يعتقدون أنّ الخطيئة وُجدت مع وجود الإنسان، فهو معرّض لها دائمًا، حيث يذكر أحد النصوص السومريّة:

> يقول الحكماء كلامًا صادقًا: ما وُلد لأمٍّ طفلٌ بلا خطيئة قطّ، وما وُجد طفل بلا خطيئة منذ الأزل[2].

والآلهة فقط هي التي تعرف بهذه الخطايا كاملة، أمّا الإنسان فيدرك بعضها، ولذلك يقع في العقاب لأسباب يجهلها هو وتعرف بها الآلهة. حيث تذكر إحدى التعاويذ السومريّة:

> أيّها الإله، إنّ أخطائي فادحة وذنوبي كثيرة، الناس صامتون لا يعرفون ماذا يجري والإنسان، مهما كان، ماذا يعرف؟ إنّه لا يعرف إذا ما قام بعملٍ إذا كان خيرًا أم شرًا[3].

هذا هو الإنسان في العرف السومريّ، إنّه إنسان معرّضٌ للخطيئة، وإنسان لا يعرف خطاياه، والآلهة عنده هي التي تعرف كلّ شيء. فإذا ما ارتكب خطيئة، بعلمٍ أو دون علم، فإنّه سيعرّض نفسه لعقاب الآلهة لأنه أخلّ بناموسها. وعقاب الآلهة متنوّع يبدأ من الأذى البسيط وينتهي بالأمراض والموت. ولكنّ المخطئ إذا اعترف بخطيئته أمام إلهه فإنّ عقابه سيخفّ. وإذا أدّى القرابين لها، وإذا بنى معبدًا لها فإنّه سيخفّ أو

---

١ - راجع: LANGDON S. H., ENCYCLOPEDIA OF RELIGION AND ETHICHS (ERE) (N.Y.,1958) P. 532.

٢ - KRAMER S. N., THE SUMERIANS, (CHICAGHO, 1964) P.128.

٣ - LANGDON, OP. CIT., P.518.

يزول. ويعتقد أنّ المعبد كان البؤرة التي تلتقي فيها خيوط العدالة سواء كـانت إلهيّـة أو ملكيّة أو عامّة، لأنّ المعبد السومريّ يُعـدّ أكبر مؤسّسـة روحيّـة وأخلاقيّـة وتشريعيّة، ومن شأن هذه المؤسّسة ضبـط الحقوق والواجبـات للملـوك والبشر أمـام الآلهـة، ولـم يزاحم القصـر المعبـد إلاّ حيـن ألّـه بعـض الملـوك الأكـاديّين أنفسـهم، فـأدّى ذلـك إلـى اضطراب هذا العرف السومريّ المنشأ[1].

---

١ ـ الماجدي، الدين السومريّ، ص١٧٥ ـ ١٧٨.



الفَصلُ الرَّابع

الشَّعَائر الدِّينيَّة السُّومَرِّيَة

رُموزُ الآلهة السُومَرِيَّة؛ رُموز آلهة آشور؛

المعَابــدُ والزَّقورات؛ المُلوكُ والكَهَنة؛

الشعَائــر والطُقوس؛ الأعياد؛

التنبُّؤ بالغَيب والتَّنجيــم.



رُموزُ الآلهةِ السُّومَريَّة

يذكر الماجدي[1] أنّ رموز الآلهة السومريّة قد ظهرت في وادي الرافدين في وقت مبكّر، فلعلّها ظهرت في حضارة سامرّاء حوالى ٥١١١ ـ ٤٩٠٠ قبل الميلاد، وربّما في حضارة حسّونة التي سبقتها[2]. ويقول إنّ هذه الرموز في غالبيّتها كانت دينيّة الطابع، وقد تطوّرت في عصر الكالكوليت. أما في العصر السومريّ فقد ظهرت رموز الآلهة على نطاق واسع ومتطوّر، وقد عدّدها الماجدي على الشكل التالي:

ـ رمز إله السماء "آن": وهو الرمز المهمّ للآلهة، والذي أصبح في ما بعد علامة "دنكَر DINGER" التي تشير إلى الآلهة عامة، وقد تطوّر عن رمز الإلـه "آن" الذي يدلّ على ثماني جهات. وكان ذلك في حدود ٣٢٠٠ قبل الميلاد، ثمّ أحيطت أذرع الجهات بما يشكّل نجمة ثمانيّة تنبثق في داخلها خطوط الجهات. وقد حافظت الكتابة المسماريّة السومريّة على شكل قريب من هذا عندما خطّت بأربعة مسامير متقاطعة تشير إلى الجهات الثمانية أيضًا. وكان العدد الرمزيّ للإله "آن" هو "٦٠"، ويُكتب بعلامة مسمار واقف، وهذا رقم مقدّس عند السومريّين لأنّه يعبّر عن الكمال، وقد سُمّيت الرياضيّات السومريّة بالرياضيّات الستّينيّة التي أصبحت أساس الرياضيّات الفلكيّة والهندسيّة إلى يومنا هذا.

---

١ ـ الماجدي، الدين السومريّ، ص٨٩.

٢ ـ راجع: الماجدي خزعل، أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، منشورات الشروق (عمّان،١٩٩٧) ص١٠١.

ـ رمز الإله "إنليل": الذي يعود إلى نهاية الألف الخامس قبل الميلاد، حين مُثّل هذا الإله على شكل مثلّثين متقابلَين متّصلَين، أو على شكل فأسٍ مزدوجة. وكان ذلك يشير إلى أسطورة خلق الفأس لإنليل، حيث يُعتبر ربّ العمل الذي أعطى لشعب سومر الفأس ليبني حضارته بها، ولتدلّ على القوّة والبأس. والعدد الرمزيّ لإنليل هو "٥٠" الذي كان يعني أيضًا أنّ إنليل يترأس خمسين إلهًا أرضيًّا هم أعضاء مجلس الأنوناكي السومريّ، وقد ورث هذا العدد كلٌّ من ولدَيه "ننورتا" و"ننجرسو".

ـ رمز الإله "إنكي": وقد عُبّر عنه بالإناء الفوّار الذي يشبه ثمرة الإجاص أو الكمثري، وتخرج منه خطوط المياه العشر من الجانبَين، فهو إله المياه، وقد عبّرت شجرة "الكشكانو"، وهي "شجرة الحياة" التي كانت تسمّى بإسم إنكي، عن هذا الإله لأنّه إله الحياة وإله الخصب. أمّا عدده الرمزيّ فهو "٤٠"، وقد كان هذا الرقم يحمل معاني عديدة منها النضج والحكمة والنبوّة وغير ذلك.

ـ رمز الإله "نانا" أي القمر: وقد كان رمزه المبكّر في العصر السومريّ عبارة عن هلال وفي وسطه نجمة ذات إثنَي عشر شعاعًا، ستّة من الأشعّة على شكل مدبّب والستّة الأخرى على شكل شريط شعاعيّ مكوّن من ثلاثة خطوط. كما تدلّ قرون الهلال على قرون الثور باعتبار أنّه كان يسمّى "ثور السماء"، وكذلك "على حافّتَي سفينة السماء". والعدد الرمزيّ للإله نانا هو "٣٠"، وهو يشير إلى أيّام الشهر الذي كان يُقاس بدورة القمر الشهريّة، ويشير إلى فكرة جعله مصدر التاريخ والزمن.

ـ رمز الإله "أوتو": كان رمز الإله الشمس قد ظهر مبكرًا في الرسوم الرافدينيّة، فقد ظهر في الألف الخامس على شكل صليب وصليب مالطيّ، وعلى شكل الرمح والنجمة المعلّقة به، ثمّ ظهر في العصر الأكاديّ على شكل "المنشار" الذي يقصّ الظلام، وعلى شكل النجمة ذات الأشعّة الستّة عشر، التي كان ثمانية منها على شكل

مثلّثات مدبّبة والثمانية الأخرى على شكل أشرطة أشعّة متماوجة. وإنّ ظهور الرمز بهذا الشكل المميّز في العصر الأكاديّ يؤكّد على مكانة الإله "أوتو" عند الأكاديّين، باعتباره الإله القوميّ لهم. وكان العدد الرمزيّ له "٢٠".

ـ رموز الإلهة "إنانا": فقد كان للإلهة إنانا ثلاثة رموز سومريّة أساسيّة ظهرت في عصر الوركاء، الرمز الأوّل هو رمزها الكتابيّ وهو عبارة عن قصبتَين متتابعتَين باتّجاه واحد معقوفتَين ويتدلّى من رقبة كلّ منهما شريط حريريّ. أمّا الرمز الثاني فهو عبارة عن قصبة مدبّبة ذات ستّ حلقات على جانبيها. والرمز الثالث هو زهرة الأقحوان المؤلّفة من ثماني أوراق مدبّبة على شكل معيّنات مصفوفة باتّجاه مركز مدوّر، وكان هذا الرمز يشير إلى شجرة حياة إنكي أيضًا. أمّا العدد الرمزيّ للإلهة إنانا فهو "١٥"، وهو نصف عدد أبيها القمر، وكأنّه يشير إلى البدر التمام، وهو مؤشّر لصفة الجمال لإنانا، وكذلك يُضمر هذا العدد أصل اسمها اللاحق "عشتار" من التسمية السومريّة "كَشدار"، الذي يضمّ معنى الشقّ والقضيب، وهما رمزا الأنوثة والذكورة الدالاّن أيضًا على الحبّ والحرب[١].

ـ رمز الإله "دموزي": رغم شيوع عبادة الإله دموزي وأساطيره وطقوس الزواج المقدّس والحزن عليه، إلاّ أنّ هناك رمزًا واحدًا يرجّح أن يكون خاصًّا، به وهو عبارة عن جذع نخلة يشير إلى الإله "دموزي" (أما أشمكَال أنّا) وهو مخصب النخيل وطلعها، وفي أعلى هذا الجذع رمز الألوهيّة الذي هو عبارة عن عجلة في داخلها نجمة ثمانيّة مدبّبة الأشعّة وذات مركز. ولم يكن للإله دموزي عدد رمزيّ.

ـ رمز الإلهة "إشخارا": ظهر رمز العقرب في وقت مبكر جدًا، فقد كان من الرموز الأولى لحضارة سامرّاء النيوليثيّة في الألف السادس قبل الميلاد، وكان يشير

---

١ ـ راجع: الماجدي خزعل، أقنعة عشتار التي لا تنتهي، مجلّة "عمّان"، العدد ١٢، (عمّان،١٩٩٥).

إلى الإلهة الأمّ، وقد ظهر في الأطباق الفخّاريّة السامرائيّة ليشير إلى علامة الصليب المعقوف "السواستيكا" التي كانت رمزًا للإلهة الأمّ، وظهر أيضًا في رقصة استنزال المطر أو الاستسقاء "أكيتو"، ليشير إلى الإلهة الأمّ، لأنّ من صفات العقرب ولادة أبنائها من البيوض داخل جسدها، ولذلك فحين كانت العقارب المولودة تخرج بعد التفقيس الداخليّ، تضطرّ إلى تمزيق ظهر أمّها والعيش على بقايا جيفتها، في حين تموت العقرب الأمّ، ويُعتبر هذا الرمز واحدًا من أوّل رموز التضحية والأمومة، ويبدو أنّ الإلهة "إشخارا" كانت تمثّل بالعقرب استمرارًا لحفظ تقليد الإلهة الأمّ، رغم أنّ هذا الرمز كان يدلّ علىالإله "شارا" الذي كان يختلط مع الإلهة "إشخارا" بسبب اقتراب اسميهما وكونهما أبناء الإلهة "إنانا". وكان أحد مداليل العقرب هو "الزواج" الذي كانت "إشخارا" تمثّله.

ـ رمز الإله "إشكر": ظهر رمز هذا الإله الدالّ على الصاعقة والبرق مبكّرًا في حضارة سامرّاء النيوليثيّة على شكل الحرف U المتعرّج الذراعَين[1]، ثم تطوّر في العصر السومريّ في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد إلى شكل شوكة مزدوجة ذات مقبض وسطيّ، وأصبح يدلّ على البرق والصاعقة كسلاح في يد الإله "إشكر" الذي صار الإله "أدد" في ما بعد. والعدد الرمزيّ للإله "إشكر" هو "٦".

ـ رمز الإلهة "باو" أو "بابا": ظهر رمز الوزّة الدالّ على الإلهة "باو" باكرًا في حضارة "حلف"، ولكنّه مع ظهور الحضارة السومريّة أصبح دالاً على هذه الإلهة التي تهتمّ بالزراعة، لكنّ الوجه الآخر لـ"باو" هو الوجه الطبّي، حيث سُمّيت "بابا" (طبيبة ذوي الرؤوس السود) وهي تجسّد في رمز الكلب، الذي كان بسبب لعقه للجروح يُعتبر

---

١ ـ راجع: الماجدي، أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، ص ١١١.

عامل شفاء، وكان هذا الرمز يشير إلى جميع إلهات الشفاء والزراعة السبع بنات الإله "آن" في الوقت نفسه، أمّا الوزّة فهي رمز "باو" حصرًا.

- رمز الإله "تنكَرسو": وهو إبن "إنليل" الذي يحمل صفاته، فهو إله العاصفة التي يمثّلها أيضًا الإله "تنورتا"، إلاّ أنّه حصرًا إله مدينة "كَرسو". وقد كان رمزه في بداية عصر ميسلم في حوالي ٣٠٠٠ قبل الميلاد، على شكل عصًا مزدوجة ذات نهاية منتفخة ومحزّزة الرقبة، وهي تدلّ على السلطة والقوّة، أمّا في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد، فقد أصبح شكل "أمدوجد" إله الريح الكاسحة الذي يمثّل برأس أسد وجناحَي نسر هو رمز الإله "تنكَرسو". والعدد السرّي للإله "تنكَرسو" هو "٥٠" مثل والده الإله إنليل.

- رمز الإله "تنكَشزيدا": وهو إبن "تنازو" إله الطبّ الذي يحمل صفاته، وقد رُمز إليه بثعبانَين ملتفَّين على غصن شجرة أو عصا في أواسط الألف الثالث قبل الميلاد. وكان الثعبانان متصلَي الذيلَين ويتقابل وجهاهما وتتلاقى حلقتان أنفيّتان لكلٍّ منهما. ومعروف أنّ الأفعى أو الثعبان مثّلت رمزًا من رموز الشفاء والخلود، ففي سمّها ترياق طبيّ، وفي تجدّد جلدها ما يشير إلى الخلود وتجدّد الشباب. وقد أصبح رمز "تنكَشزيدا" هذا رمزًا عالميًّا للطبّ، فقد أصبح شعار الطبّ السومريّ "ألكاديكيوس" الذي انتشر شرقًا وغربًا وترسّخ في اليونان وصار رمزًا لإله الطبّ اليونانيّ "أسكليبيوس"، وشعارًا للطبّ اليونانيّ. وارتبط عند الرومان بسنابل القمح كرمز للخصب وأسماه اليونان والرومان "ألكاديكيوس". ونستطيع ملاحظة وجود هذا الرمز واستمراره حيًّا في الشرق القديم من خلال حكاية "حيّة النحاس" التي رفعها موسى على جبل "نبو" رمزًا للشفاء، وقد كانت حيّة ملتفّةً على عصا. وفي عصرنا الحديث ما زال رمز الطبّ حيّتَين ملتفّتَين على عصا. ورمز الصيدلة حيّة ملتفّة على

كأس وهي تضع رأسها عند فوهتها، وهو الشعار الذي نراه على أبواب الصيدليّات ولافتاتها[1].

- رمز الإلهة "أشنان": كانت السنبلة رمزًا قديمًا من رموز الإلهة الأمّ في عصر النيوليت والكالكوليت، ولكنّها أصبحت، حصرًا، في العصر السومريّ، دالّة على الإلهة "أشنان" إلهة الغلّة والنبات، وهي سنبلة مميّزة تتكوّن من ساق بثلاثة أغصان تشبه ثنية الكفّ، وكأنّها تمثّل العطاء، والسنبلة مكوّنة من ستّة فروع بارزة يتوسّطها شكل هندسيّ مكوّن من تسعة مربّعات، لعلّها إشارة لأشهُر الولادة والخصب، وواضح أنّ العدد "ثلاثة" يتكرّر في شكل هذه النبتة، وهو عدد يرمز إلى الكثرة والوفرة.

- رمز الإلهة "تانشة": كانت السمكة رمزًا نيوليتيًّا ظهر في حضارة سامرّاء ليشير إلى الإلهة الأمّ في أوان فخاريّة التي كانت تحمل صورة ثماني سمكات تدور باتّجاه معاكس لعقرب الساعة حول أربع سمكات مطعونة وبمركز سواستيكيّ. وفي العصر السومريّ أصبح هذا الرمز يشير إلى الإلهة "تانشة" إلهة الأسماك وابنة "آنكي".

- رمز الإلهة "تنمار": كانت الطيور عمومًا تشير إلى الإلهة الأمّ النيوليثيّة، وحتّى النسور الكاسرة كانت رمزًا لها كما في "شتال حيوك" في الأناضول النيوليثيّة، لكنّ النسور والعقبان أصبحت تدلّ على الإله الأب الذكر القويّ الممثّل بإله الهواء في بداية الكالكوليت، وأصبحت الطيور الأليفة حصرًا هي التي تدلّ على الإلهة الأمّ. والإلهة "تنمار" كانت إلهة الطيور التي كانت رمزًا لها في المرحلة السومريّة.

- رمز الإلهة "لهار" أو "لخار": وهي إلهة الماشية بشكل عام، وربّما أصبحت تدلّ على الخراف بشكل خاصّ، ولذلك كان رمزها النعجة، وإذا ظهرت النعجة مع الغلّة أو

---

[1] - راجع: الماجدي خزعل، الطبّ وعلاقته بالسحر والأسطورة والدين في تراث وادي الرافدين، رسالة دكتوراه بإشراف فوزي رشيد، معهد التاريخ العربيّ والتراث العمليّ للدراسات العليا (بغداد،١٩٩٦) ص١٥٠.

السنابل فإنّ ذلك يدلّ على تلازم الإلهتَين الأختَين "لهار" النعجة و"أشنان" الغلّة، حيث تصف قصيدة مناظرة سومريّة تلازمهما وتنافسهما في الوقت نفسه.

ـ رمز إلهة العين "المضادّة للحسد": لم تكن هذه الإلهة شائعة ضمن البانثيون السومريّ، ولكنّها كانت شائعة في مناطق غرب وأعالي الفرات، فقد عُثر لها في معبد العين، في "تلّ براك" على الخابور، على آلاف التماثيل الحجريّة المنحوتة بزوج من العيون المحدّقة، وعلى رمزها "العين المحدّقة"، باعتبارها إلهة طاردة للحسد والشرّ.

ـ رمز الحمامة السماويّة "أياهو": هذا الرمز له أهميّة خاصّة، فهو يشير إلى الحمامة السماويّة التي كانت طيرًا مقدّسًا، واعتُبرت من رسل السماء، وتُدعى بالسومريّة "أياهو IAHU"، ونرى أنّ هذا الإسم هو مصدر الإله العبريّ "يهوه". وقد حصل ذلك من خلال الإله "إنليل" الذي رجّح الماجدي أن يكون مصدر الحمامة السماويّة، أو أنّها شكل من أشكال ظهوره أو مبعوثته من السماء، وقد اقترنت بها عند العبريّين ثمّ اليهود صفات "يهوه" الذي يناظر تمامًا في صفاته الإله "إنليل"، كإله يرمز إلى العاصفة والغضب والقوّة، خصوصًا أنّ "إنليل" هو الإله القوميّ السومريّ و"يهوه" هو الإله القوميّ العبريّ.

ـ رمز الفأس "العمل": وهو أحد رموز الآلهة أيضًا الذي جسّدته أسطورة الفأس الخاصّة به، فهو هديّة الإله "إنليل" إلى الشعب السومريّ ليبنوا سومر بالعمل، كما جسّد المحراث فكرة العمل أيضًا.

ـ رمز البناء: وهو رمز مكوّن من عصا وبجانبها حبل مطويّ على شكل حلقة تتهدّل منه قطعة حبل مطويّة. وقد ظهر هذا الرمز في القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد.

ـ رمز السلطة: وهو رمز قديم يظهر مرافقًا للإله "آن" ثمّ للإله "إنليل" ثمّ يظهر مع الملوك، وهو مكوّن من عصا وبجانبها حلقة دائريّة.

ـ رمز "بوّابة المعبد": الذي يظهر على شكل عمودَين مدبّبَي النهاية من خلال قبّة صغيرة تعلو كلاً منهما، وهناك نصف حلقة جانبيّة على ثلثهما الأعلى. وقد ظهر هذا الرمز حوالي ٢٤٧٥ قبل الميلاد.

ـ رمز الماء المقدّس: وهو إناء سكب الماء المقدّس الذي يظهر بشكل كأس مخصورة تتدلّى على جانبَيها ثمرتان وتتبع منها سعفة مكوّنة من أوراق جانبيّة صغيرة. وربّما كان هذا الشكل عبارة عن الكأس والنخلة.

ـ رمز الموقد المقدّس: وهو عبارة عن إناء طويل تخرج منها ألسنة لهب، وهو أحد رموز المعبد، ولكنّ هذا الرمز أشار في العصر الأكاديّ إلى الإله "نسكو" إله النار والإله "تنكَشزيدا" إله الطبّ[1].

رُمـــــوز

آلهة آشور

كان في آشور لكلّ إله من الآلهة الكبرى صفات خاصّة يبتهل له عُبَّاده بها أثناء الصلاة، وهي في مجملها تشعّ بهاءً وروعة، وتخلق جوًّا من الرهبة يجعل الأنصار قبل الأعداء يرضخون. وقد كان لكلّ من الآلهة تمثاله ورمزه الذي أُنْفِق على زينته بسخاء ليحلّ محلّ الإله نفسه. ويُعرف الإله في الأعمال الفنيّة، بغطاء للرأس ذي قرون، حتّى لا يبدو منظره عاديًا كأيّ رجل أو امرأة. ولا بدّ لكلّ إله من أن يحمل

---

١ ـ الماجدي، الدين السومريّ، ص٨٩ ـ ١٠٥، حيث رتّب هذه الرموز وأوردها مع رسوم تفصيليّة لها.

رمزًا يعيّن هويّته، مثل إله الشمس "شاماش" أو "شمش SHAMSH" الذي يحمل في يده منشار البتر والقطع، أو تراه واقفًا فوق حيوان رمزيّ أو بجواره. كما نجد "مردوخ" يقف فوق نسر له رأس حيّة أو أسد. والإلهة "جولا GULA" إلهة الشفاء يمكن تمييزها في الآثار الفنيّة من وجود كلبها الذي كانوا يصوّرونه أحيانًا مجنّحًا بجوارها. ويمكن كذلك تمييز الآلهة الرئيسيّة بعدد معيّن يرمز إلى كلّ منهم، يمكن استخدامه في كتابة أسمائهم، فيُرمز إلى "آنو" بالعدد ٦٠، وإلى "إنليل" بالعدد ٥٠، وإلى "إيا" بالعدد ٤٠، وإلى "سين" بالعدد ٣٠، وإلى "شمش" بالعدد ٢٠، وإلى "عشتار" بالعدد ١٥[١].

المعَابِـــــــدُ والزّقّورات

المعبد هو مركز النشاط الدينيّ عند السومريّين، ويُعدّ معبد الإله "إنكي ENKI" في مدينة "إريدو ERIDO" أقدم ما وصلت إليه أعمال التنقيب، وهو بناء على شكل مستطيل، في حائطه كوّة يوضع فيها تمثال صغير للإله، أو شعار مقدّس، وأمامها منضدة للقربان. وكان يقوم البناء على نموذج أقدم طراز للهياكل من أعواد القصب، ثمّ أعقبته مبانٍ أرحب وأضخم، وفي مبنى صومعة "CELLA" حيث يُرفع الإله فوق منبر أو قاعدة في محراب داخليّ مظلم، يوضع أمامه المذبح أو المنضدة، وتوجد مغسلة أو بئر ماء في الساحة الرئيسيّة للمعبد بعد مدخله الرئيسيّ، كما يضمّ المبنى أماكن جانبيّة للعبادة وغرفًا للتخزين، وفي بعض الأحيان يقوم المدخل الرئيسيّ للمعبد على زوايا قائمة بالنسبة للمحراب الداخليّ، كيما تضفي مزيدًا من الخصوصيّة.

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٤٠.

وأوسع المعابد وأشهرها هـو معبـد الإلـه "مـردوخ" فـي بـابل المُسـمّى الــ"إيزاكيـل ESAGILA" أي "المعبد الذي تناطح ذروته السحاب". ها هنا يقف تمثال مردوخ الضخم وأريكته التي تزن خمسين وزنة من الذهـب. وبداخل المعبد قاعـةٌ ذات أعمـدة تغطّـى جدرانها بالألواح الخشبيّة، وكلّ منها داخل إطار خـاصّ، كمـا توجـد خمس وخمسـون حجرة صغيرة للعبادة منخفضة الإرتفاع مخصّصة لبقيّة آلهة المجمع. ولقد اهتمّ الملوك المتعاقبون بتجديد هذا المعبد وزخرفته، كما فعلوا نفس الشـيء فـي جميـع المـدن التـي كانت تخضع لحكمهم.

وفي "أوروك" أي "الوركـاء" أقيـم معبـد الإلـه "آنـو ANU"، فـي حولـى ٣٠٠٠ قبـل الميلاد، فوق تلٍّ اصطناعيّ، وهو يتألف من سلسلة من المنصّات المبنيّ بالطوب النيّـئ تتناقص في أحجامها، ويمكن الوصول إليها بواسطة سلّم. ويتطوّر هذا النوع من البنـاء من مزار صغير مقام على منصّة صغيرة كتلك الموجودة في "أوكاير UQUAIR"، وهـي ترتفع خمسة عشر قدمًا فوق السهل المحيط بهـا، وعلـى هـذا النحـو تطـورّت الزقـورة السومريّة "ZIGGURAT" كما تطوّر برج المعبـد. وكـانت الزقـورة التـي بناهـا "أورنـامو UR- NAMMU" في مدينة "أور" عام ٢١٠٠ قبل الميلاد، وهـي أقـدم بـرج مـدرّج شـيّد لعبادة الإله العظيم "إنليـل"، كـانت تتـألّف مـن ثـلاث طبقـات، حجـم القـاعدة ٦٠ × ٣٠ مترًا، وارتفاع مجمل الزقورة ٢١ مترًا، وكان لكلّ طبقـة لـون مختلـف، وعلـى القمّـة مزار إله القمر "ننار NANNAR" بلونه الفضيّ. ويروي "هيرودوت" أنّ برج المعبد فـي بـابل المسـمّى "إتمنـانكي ETEMENANKI" أي "المبنـى الـذي هـو أسـاس السـموات والأرض"، كان يتكوّن من سبع طبقات سـطوحها الخارجيّـة مائلـة، تلتـفّ صـاعدة مـن طبقة إلى طبقة. وقد أمكن التعرّف على أكثر من ثلاثين "زقورة"، تكوين بعضهـا غير عاديّ، كبناء "آنو ـ حدد" المزدوج الأبراج في آشور. ولقد اختلف الباحثون فـي تحديـد

الغرض من بناء هذه الزقورات، فذهب بعضهم إلى أنّها تجسيد لجيلٍ كونيّ، أو مذبح عملاق، أو عرض إلهي. ولقد قيل إنّ الإله هبط على الأرض في هذه البقعة، وفي قمّة المعبد تتمّ زخرفة عريشة خضراء تُقام فيها احتفالات الزواج المقدّس التي يُعتمد عليها في إخصاب الأرض[1].

المُلوكُ والكَهنَة

تقول الغالبيّة العظمى من النصوص التي تروي عن دور الملك الرسميّ في العبادة: إنّه مثل الآلهة على الأرض أو هو ينوب عنها، فقد منحته الآلهة السلطة لكي يتصرّف نيابة عنها، وهي تتوقّع منه أن يعامل الناس بالعدل، وبلا محاباة، بحيث يدافع عن الضعيف أمام القويّ، وأن يكون نصيرًا لليتامى والأرامل. وقد كان يحافظ على الاعتبارات الأخلاقيّة لِما تجلبه من رضا الآلهة وبركاتها كما أنّها تمنع لعناتها. ولقد تداولت الأجيال طرائق الحياة والحكم السليمة، وأيّدتها بالنصوص التي تقدّم التعليمات والنصائح. لقد كانوا يعتقدون أنّ سلامة الملك تقوم عليها سلامة الجماعة، ولهذا كانت تُتَّخذ إجراءات صارمة لضمان ذلك، كما أنّ ضمان استمرار الإنجاب يجعل الملك، بوصفه خليفة "ديموزي"، يعيد ممارسة طقوس الزواج المقدّس مرّة أو أكثر في عهده، أمّا دور الآلهة فيُعهد به إلى كاهنة منتقاة.

وما يقوم به الملك طوال حياته من أعمال، تحكمه طقوس دينيّة واحتفالات تضمن طهارته وتحرس شخصه، وفي حالات معيّنة، كحالة ترقّب نذير مشؤوم، يوضع على العرش ملك بديل يتلقّى الفأل السيّء أو حتّى الموت إذا كانت النبوءة تقول به. ولقد

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص ٥٠ ـ ٥٢.

حدث ذلك مرّة على الأقلّ في عهد "أسرحدون ESARHADDOPN" الآشوريّ (٦٨٠ ـ ٦٦٩ ق.م). وليس ثمّة دليل على أنّ الملك كان يعدّ نفسه إلهًا، رغم أنّ هناك بعض الملوك، وهم أساسًا من الأسرة الثالثة في سلالة "أور UR"، الذين كانت توجّه إليهم الصلوات والتراتيل، وربّما كان ذلك جزءًا من حفلات التأبين التي تُقام لهم كلّ عام.

ويمكن للأفراد، إلى حدٍّ ما، أن يتحكّموا في حياتهم كما يفعل الملك، كما أنّه لا بدّ لهم من توجيه صلواتهم إلى إلهٍ بعينه، يعبدونه ويتلون التراتيل التي تمجّد صفاته الإلهيّة ومنجزاته، وتنتهي بتسبيحة نمطيّة للشكر، وتشمل المزامير السومريّة والأكاديّة تراتيل موجّهة إلى المعابد والمدن المقدسة. ويمكن أن تتّجه الناس إلى الإلهة الشفيعة "لاما LAMA" التي تأخذ بيد المتعبّد إلى حضرة الإله، كما يؤخذ المرء إلى حضرة الملك الجالس على عرشه، ويمكن كذلك الابتهال إلى الأرواح الحارسة "شيدو SHEDU" "ولاماسو LAMASU"، لكنّه من الواضح أنّ المسؤوليّة الفرديّة ضروريّة في الدين. ومن وصاياهم:

إعبد إلهك كلّ يوم، وقدّم له القرابين والصلوات التي تتمّ على أكمل وجه مع تقديم البخور... قدّم قربانك طائعًا لإلهك، لأنّ ذلك يتناسب مع الآلهة... قدّم له الصلاة والضراعة والسجود كلّ يوم، وسوف تثاب على ما تفعل... عندئذ سيكون بينك وبين الله اتّصال كامل. إنّ التبجيل يولّد الحظوة، والقربان يطيل الحياة، والصلاة تكفّر عن الذنب[1].

ويستطيع المتعبّد الثريّ، بدلاً من القيام بنفسه بالصلاة والنواح، أن يودع المعبد شيئًا مناسبًا على سبيل الهديّة، كتمثال صغير، أو بعض الأواني النحاسيّة، أو شاهد أو

١ ـ "نصائح الحكمة" ١٣٥ ـ ١٤٥.

حجر تذكاريّ "STELAO"، أو خاتم، أو قطعة من المجوهرات، أو نموذج مصغّر... وتوضع هذه الأشياء على مقربة من تمثال الإله لتذكّره بالطلب، أو لتشكره على نعمه. وقد تُكتب الصلوات كذلك على هيئة رسائل توجّه بطريقة مناسبة، وتُكتب، عادة، في شيء من التفصيل، عارضة الشكوى أو الإلتماس أو الإحتجاج أو الصلاة، وإيماءات الصلاة، بالإضافة إلى الركوع والسجود، وهي: رفع اليدَين معًا إلى أعلى، أو وضع يد واحدة أمام الفم على أن تكون راحتها تجاه الوجه[1].

وتحتاج العبادة إلى مجموعة كبيرة من الموظّفين المدرّبين للقيام على شؤونها. وكان رئيس الجماعة "إين EN" في البداية يقوم بدور الملك والكاهن، ويسكن في جناح من المعبد يُسمّى "جيبارو GIPARU"، ويكون هذا الرئيس رجلاً أو أمرأة تبعًا لجنس الإله المخصّص له المعبد، وهكذا نجد الإلهة "إنانا" في أوروك يخصّص لطقوسها رئيسٌ ذكر، أمّا إله القمر "ننار" في أور فتقوم على خدمته مجموعة من بنات حكّام بلاد ما بين النهرَين. وعندما انتقل الرئيس EN إلى قصر ديني وأصبح الـ"إنسي ENSI" أي "الملك" في ما بعد، ارتبط الدور الروحيّ بوظيفة حاكم المدينة الذي كان يتولّى إدارة شؤون الأراضي الزراعيّة التابعة للمعبد نيابة عن الإله، وقد كان عليه أن يحافظ على التأدية الصحيحة للطقوس والاحتفالات، وهي التي يعتمد عليها انسجام العلاقة مع الإله. لكنّ الملك سرعان ما عهد إلى كهنة مختصّين اسمهم الـ "شانغو SHANGU" ببعض الواجبات الخاصّة تحت إشراف رئيس لهم، ومن يدخل المحراب "أريبّيتي ERIBBITI"، يصحبه أولئك الذين يقومون بتقديم القرابين، وصبّ السكائب، والتطهير، والمسح بالزيت، في حين ينشغل آخرون بتهدئة إله غاضب عن طريق تلاوة التعاويذ والرقيّ،

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص ٤٩ ـ ٥١.

أو عن طريق الغناء والإنشاد والموسيقى. ويعمل كهنة التعاويذ والعرّافون داخل المعبد وخارجه، وكثيرًا ما يذهبون إلى المنازل الخاصّة.

وهنالك حول المعبد بيوت الخصيان، وعبيد المعبد، والمقدّسات، فضلاً عن جيش ضخم من التجّار، والحرفيّين، والجزّارين، والخبّازين، وعمّال المعادن والفضة والخشب الذين يقومون بإعاداد القرابين وصيانة المبنى وما يحتوي عليه من تماثيل. كما يقوم الرعاة بالعناية بقطعان المعبد، والفلاّحون بالحقول. وقد تناقص عددهم بشكل ملحوظ مع ازدياد النزعة الدنيويّة بعد العصر البابليّ القديم. كما كان لبعض المعابد مجموعة من الكاهنات أو الراهبات يعشن في أديرة، ويساند هذا النشاط كلّه هيئة إداريّة كبيرة من الكتبة وأمناء المخازن والحرّاس. والوصول إلى طبقات الكهنة العليا يحدّده الكهنة الكبار، ويتطلّب أن يكون المرشّح سليمًا من الناحية الصحيّة صحيح البدن، جيّد التعليم.

وتحتاج الآلهة، كالبشر، إلى مؤن منتظمة من الطعام والشراب، توضع أمامها على الموائد في الصباح والمساء، واللحوم المفضّلة عندها هي لحوم القرابين "نيكو NIQU". ولا بدّ من أن يُصبّ الدّم أوّلاً في فناجين، ثمّ تُختار الأجزاء الممتازة كالرئتَين والكبد لمعرفة الطالع. وتقدّم إلى الآلهة الفاكهة والسمك والطيور والعسل والزبد واللبن إلى جانب الأطعمة الرئيسيّة كخبز الشعير والبصل والبلح، أمّا الزيت والخمور والبخور فهي تقدّم بسخاء، وكلّ شيء يسجّله الكتبة بدقّة شديدة، ثمّ تودع تقاريرهم في أرشيف المعبد، وتحظى التماثيل بزينات جديدة وزخارف حديثة في العيد الخاصّ بها[1].

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٥٢ ـ ٥٣.

الشعَائـــر والطُقوس

تتقسم الشعائر السومريّة في مجملها إلى ثلاثة أنواع أساسيّة هي: الشـعائر اليوميّـة التقليديـة التـي يقـوم بهـا الإنسـان السـومري كـالصلاة والصـوم والاغتسـال والـترتيل والتطهير وإحراق البخور وسكب السوائل وطقس فتح فم الإلـه وغسـله وطقس إطعـام الآلهة وطقس "الفوهو" أي "البديل"؛ وشعائر المناسبات التي تخصّ الولادة وبناء البيت والزواج والموت، والشعائر الدوريّة التي هـي الأعيـاد والاحتفـالات السـومريّة. ولكلّ صنف ونوع من هذه الشعائر مرجعيّات لاهوتيّة وميثولوجيّة في الدين السومريّ. وقـد مارس الشعائر اليومية كلّ من الإنسان العاديّ والإنسان المتعبّد والكـاهن، وكـانت هـذه الشعائر من الناحية العمليّة هي التي تنظّم حياة الإنسان الدينيّة وتنعكس علـى أخلاقيّاتـه الاجتماعيّة والدنيويّة، وكانت تشمل الاغتسال والوضوء، أمّا الصلاة فكـانت نوعًـا مـن النصوص الدينيّة الإبتهاليّة المرفوعة لإله محدّد، وكان الإنسان يردّدهـا متـى كـان فـي المعبد أو أمام تمثال إلهه في البيت أو في القصـر أو فـي أيّ مكـان آخـر، أمّـا الصـوم فكان يستند إلى أساس تحريم نوع معيّـن مـن المـأكولات الحيوانيّـة أو النباتيّـة لأسـباب ظاهريّة دينيّة ترتبـط بأسـطورة معيّنـة. وكـانت الـتراتيل السـومريّة كنايـة عـن أناشـيد طقسيّة روحيّـة ومدائـح إلهيّـة تـؤدّى مـع الموسـيقى، وكـانت الأدعيـة توسّـلات للإلـه، والتعاويذ تقوم على أسـاس طـرد الشـياطين، والـتراتيل فـي مجملهـا لهـا نظـام إيقـاعيّ خاصّ. وكان إحراق البخور أحد الوسائل التطهيريّة في المعابد أو البيوت أو القصور، وكان يقوم به الكهنة المطهّرون. أمّا شعائر المناسبات فكانت تختصّ بالولادة والـزواج والبناء والأعياد والزواج المقدّس والموت والحداد... وكانت الشعائر الدوريّة تُعتبر من أهمّ الشعائر الجماعيّة التي كانت تضع الجماعة في حزمةٍ طقسيّةٍ مغلفةٍ بإيقـاع روحـيّ

واحد. وكان مجتمع المدن السومريّة يستعيد في هذه الشعائر دوريًّا زمان ومكان الخلق الأول[1].

الأعياد

لقد كانت الأعياد تمثّل من الناحية الليتورجيّة (الطقسيّة) والميثولوجيّة (الأسطوريّة) مركز الزمان المطلق، ولذلك كانت مضامينها مقدّسة كالزواج المقدّس وطرد الشياطين والصلوات وغير ذلك. بل وقد كانت هذه الأعياد إيقافًا فعليًّا لحقبة زمنيّة معيّنة وبدايةً لحقبة أخرى، أي إبطالاً لزمن مضى وإعادة خلق لزمن جديد[2].

فقد كانت تُقام احتفالات خاصّة وتقدّم القرابين في الأيّام المقدّسة عند إله معيّن، وذلك بالإضافة إلى أيّام الأعياد الشهريّة المنتظمة في اليوم الأوّل من الشهر القمريّ، أي عندما يولد القمر الجديد، وفي اليوم السابع، والخامس عشر، ثمّ أصبح في ما بعد اليوم الخامس والعشرين، وكذلك يوم اكتمال القمر في شهر شباط (فبراير) ويوم اختفائه في تمّوز (يوليو) وفي السومريّة (بوبيلو BUBBULU). ولمّا كان التقويم السومريّ يختلف في المدن الكبرى من مدينة إلى أخرى، ففي "لغش LAGASH"، كان الشهر الأوّل "آذار ـ نيسان" (مارس ـ إبريل) عيد تناول شعير الإله "نينجوسو NINGIRSU "، والشهر السادس هو عيد "دموزي". وفي هذه الأماكن وغيرها كانت مواسم الحصاد وجَزّ صوف الغنم ترتبط بإقامة المهرجانات والمواكب. أمّا العيد الرئيسيّ فهو عيد السنة الجديدة "AKITA"، عندما يُحتفل، على الأقلّ في بابل وأوروك وآشور، بدعوة جميع آلهة المناطق المحيطة للحضور، ولقد ظلّت الطقوس التفصيليّة

---

١ ـ للاطلاع على مضمون كامل هذه الشعائر راجع: الماجدي، الدين السومريّ، ص١٥١ ـ ١٦٣.

٢ ـ الماجدي، الدين السومريّ، ص٥٠.

باقية، ومنها طقوس معظم عمليّات العبادة كالقيام بعمل تمثال وكسوته، أو وضع الأساس في بناءٍ ما، وتبدأ الشعائر في بابل وقت الفجر في اليوم الأوّل، ثمّ يتبعها تقديم القرابين ثمّ صناعة التماثيل الصغيرة ثمّ يعقب ذلك، في اليوم الرابع، تلاوة ملحمة الخلق وصلوات خاصّة لمردوخ، وينهض الملك في اليوم التالي ليغتسل في مياه النهر الطاهرة قبل أن يدخل المعبد مرتديًا كساء كتّانيًّا جميلاً، وبعد الصلاة يفتح الباب للكهنة ويشرف على تقديم قرابين الصباح، وينخرط الملك في صلاةٍ طويلة مظهرًا براعته وحسن إدارته. وفي نهاية اليوم يقترب الكاهن الأكبر من الملك وينتزع عنه الشارة الملكيّة، ثمّ يصفعه على خدّه، فإذا انسكبت الدموع كان معنى ذلك أنّ كلّ شيء على ما يرام وأنّ "مردوخ" أبدى سروره، فكلُّ شيءٍ في البلاد يسير سيرًا حسنًا، عندئذٍ يسجد الملك وهو يصلّي، ثمّ يستعيد الشارة الملكيّة قبل أن يقدّم قربان المساء. وفي اليوم الثامن يتناول الملك يد "بعل" ليقود الإله إلى خارج المعبد في موكب مقدّس يسير خلفه الآلهة الزائرون والكهنة وعامّة الشعب. ويقع المنزل الذي يُقام فيه الاحتفال بالسنة الجديدة خارج المدينة على ضفّة النهر عند المنبع، وهم يصلون إليه عن طريق بوّابة "عشتار"، ويقطعون الرحلة في سفينة كبيرة مزدانة. وهنا تقرّر الآلهة مصير البلاد في السنة القادمة، ويعيدون تمثيل انتصار مردوخ على قوى الشرّ، وينتهي العيد بالاحتفال بالزواج المقدّس بين "مردوخ" وزوجته "صربنيتو SARPANIT" مصحوبًا بمهرجانٍ شعبيّ كبير[1].

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص ٥٣ ـ ٥٤؛ راجع: الماجدي خزعل، تاريخ الفلك والتنجيم في العراق، كتاب مقدم إلى معهد التاريخ العربيّ للدراسات العليا (بغداد، لا.ت.)

التنبُّؤ بالغَيب والتَّنجيـــــم

على الرغم من إيمان المعذّب بالقضاء والقدر، فـإنّ وجهـة النظـر الأكثر انتشـارًا عند المفكّر البابليّ القديم هي: أنّ النّاس يمكنهم أن يتحقّقوا من إرادة الإله ما دام كلّ ما يجري في السماء يتكرّر حدوثه على الأرض، فما عليهم إلاّ ملاحظـة الأدلّة وفحصها حتّى يعثروا على الجواب.. ولقد أدّى ذلك منذ وقت مبكّر، إلى حصر الظواهر الأرضيّة وربطها بمواقع الكواكب في السماء، وعندما يتكرّر الحدث نفسه، فإنّه إذا أحسن تفسير التقارير أخصّائيّ كفؤ، من شأنها أن تعطينا الحدث المصاحب الذي لا بدّ لنا أن نتوقّعه سواء كان حربًا أو طوفانًا أو ثورة أو موت ملك أو ما شابه. وعلم التنجيم الذي لم يشمل خريطة الـ"بروج HOROSCOPES" حتّى القرن الرابع قبل الميلاد في بابل، هو الذي أدّى إلى ظهور علم الفلك في وقت مبكّر، وهو العلم الذي برع فيه البابليّون.

وكان هناك طرق أخرى للتنبّؤ بالغيب، منها ملاحظة خصائص الكبد وغرائبه HEPATOSCOPY والرئة في الحيوان المذبوح. وكانت هذه الطريقة شائعة الاستخدام عندما تكون الدولة على وشك إصدار قرارات خاصّة، كالاتّفاقات الدوليّة، أو شنّ حرب... وقد كان الإعتقاد السائد في الأمم القديمة أنّ الكبد هو مركز العقل في الإنسان والحيوان عمومًا، ومن هنا كانت دراسته أساسيّة في التنبّؤ بالغيب، ولم يكن الملك يجرؤ على شنّ حرب أو الاشتباك مع جيرانه في قتال، إلاّ إذا استعان بكاهن أو عرّاف يقرأ طالعه. بل لم يكن المواطن البابليّ العاديّ يجرؤ على البتّ في أمر من الأمور إلاّ إذا أقدم على الإجراء نفسه، وهي عبادة قديمة وُجدت في معظم الحضارات القديمة، وبرزت عند اليونان أيضًا.

وكان الأطبّاء، وكهنة التعاويذ، على حدّ سواء، يسجّلون الفأل السيّء من المواليد المشوّهة، ومن علم الفراسة الذي يشمل دراسة ملامح الوجه، كالندبة على الوجه، أو الطريقة المميّزة في الكلام أو المشي. أو عن طريق الفحص التفصيليّ للمرضى الذي يؤدّي إلى تشخيص المرض وتطورّاته المحتملة. وقد كشفت مناهج البحث المستخدمة عن طرق تجريبيّة هي التي وضعت الأساس في الخطوات الأولى على طريق التقدّم العلميّ الحقيقيّ. كما يلاحظ العرّافون أيضًا نماذج الزيت على الماء أو تحليق الطير أو حركات الحيوان. وهناك مجموعة كاملة من الألواح تزيد عن مائة لوح من سجلاّت التفاؤل والتشاؤم المأخوذة من الأحداث العامة، تطوّر عنها علم التاريخ HISTORIOGRAPHY أو علم "تدوين الوقائع التاريخيّة". وكما هي الحال في معظم الممارسات الدينيّة فقد ارتبطت هذه الأحداث في البداية بالملك، وجميع القرارات التشريعيّة والاتفاقيّات القانونيّة يتمّ التصديق عليها عن طريق القَسَم أمام الآلهة، كما أنّها تخضع للجزاءات الإلهيّة في حالة انتهاكها. وما دام القانون والنظام يتّحدان في هويّة واحدة مع الحقّ والعدل "كيتوم وميشاروم KITTUM & MESHARUM"، وهما من مسؤوليّة الآلهة والملك والبشر العاديّين رجالاً ونساء، فقد ساد الاعتقاد بأنّ الحياة في مجموعها تجربة دينيّة موحّدة[1].

***

كان أوّل "برلمان" سياسيّ معروف في تاريخ الإنسانيّة المدوّن سومريًّا، حيث "التأم في جلسة خطيرة في حدود ٣٠٠٠ قبل الميلاد، وقد كان مثل برلمان اليوم مؤلّفًا من مجلسَين: مجلس الأعيان أي مجلس الشيوخ، ومجلس العموم أي النوّاب وقوامه

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٥٥ ـ ٥٧.

المواطنون الذكور القادرون على حمل السلاح. وكان برلمان حرب، دعي للانعقاد ليتّخذ قرارًا في أمر خطير يخصّ الحرب والسلم، وكان عليه أن يختار بين السلم بأيّ ثمن كان، وبين الحرب مع الإستقلال، أمّا مجلس الأعيان الذي كان مؤلّفًا من الشيوخ المحافظين، فإنّه أعلن قراره بأنّه إلى جانب السلم مهما كان الثمن. ولكنّ الملك اعترض على هذا القرار، ثمّ عرض الأمر بعد ذلك على مجلس العموم الذي أعلن الحرب من أجل الحريّة، وصادق الملك على قراره[1].

إكتسب الكنعانيّون الفينيقيّون من الحضارة السومريّة وبالتالي الأشوريّة والبابليّة عناصر كثيرة جدًّا من ماديّة ودينيّة ولغويّة، ونقلوها أخيرًا بطريق اليونان إلى سكّان غربيّ أوروبّا. ولا يزال تقسيم أولئك السكّان للزمن إلى سنة مؤلّفة من اثنَي عشر شهرًا وإلى أسبوع مؤلّف من سبعة أيّام باقيًا حتّى اليوم. وأوّل يوم في الأسبوع يُسمّى SUNDAY بالإنكليزيّة لأنّهم كانوا يكرّسونه لعبادة الشمس. واليوم الثاني MONDAY سُمّي كذلك بسبب تكريسه للإله القمر. ويوم السبت SATURDAY لأنّه اكتسب اسمه من زحل واسمه SATURN. وتاريخ الاحتفال بعيد الفصح لا يزال متّصلاً بالتقويم القمريّ لهؤلاء الأقدمين. ونقل الفينيقيّون إلى اليونان مع تقسيم الزمن قضبان الظلّ والساعات الشمسيّة لقياس مرور الساعات، ونظمًا للتنبّؤ عن الخسوف والكسوف. وعلامات الأبراج الإثنَي عشر الموجودة لدَينا الآن هي تقريبًا نفس العلامات الأشوريّة. وكثير من أنظمة الموازين والمقاييس قد أتى من البابليّين بواسطة الفينيقيّين[2].

---

١ ـ كريمر صموئيل نوح، من ألواح السومر، ترجمة طه باقر، تقديم ومراجعة د. أحمد فخري، مكتبة المثنى (بغداد، لا.ت.) ص٢٨.

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١: ١٥٦.

الفَصلُ الخَامِس

ديانات الأُموريّين والكَنعانيّين - الفينيقيّين

الأُموريّون؛ الدّيانـة الأموريّة؛

المُعتقدات الكَنعانيّة - الفينيقيّة؛ قصّة الخَلق عند الفينيقيّين؛

عبـادة الخَصب؛ معبَد أفقا؛ قبرُ أدونيس في الغِينـة؛

هيكَل صربا؛ بعلَة جبيل؛ الآلهة؛ الهَياكل والنُصُب والأصنَـام؛

عَادات الدّفـن.

الأموريّون

إنّ أولّ شعب ساميّ هامّ بحث عن موطن لـه فـي البـلاد السـوريّة وأقـام فيهـا هـو الشعب الذي سمّاه جيرانه السومريّون في الشرق بـ"الأموريّين"، ولا ندري الإسم الـذي كان يطلقه على نفسه. فكلمة "أموريّين" سومريّة وتعني "الغربيّين". والعاصمة الأموريّة "ماري" الواقعة جنوبيّ مصبّ الخابور، هي أيضًا سـومريّة، وهـي مـن جهـة الاشـتقاق شبيهة باسم البلاد "أمورو" و"مارتو" أي بلاد الغرب، وكان هذا أيضًا إسم إلههم القديـم، وهو إله الحرب والصيد. ووسّع البابليّون في ما بعد مدلول الإسم فصار يشمل سـورية كلّها وسمّوا البحـر المتوسّـط "بحـر أمـورّو العظيـم". وتظهـر أولّ إشـارة إلـى أرض الأموريّين منـذ عصـر سـرجون (حوالـى ٢٢٥٠ق.م)، وهـو أولّ شـخصيّة كبرى فـي تاريخ السـاميّين[١]. وأخـذ الأموريّـون يظهـرون بـالتدريج فـي سـورية الوسـطى ولبنـان وحتّى في فلسطين في الجنوب. ويُقـال إنّ "لبنـان" و"صيـدون" و"عسـقلان" أموريّـة فـي نهايـة أسـمائها. وفـي اسـم مدينـة "عمريـت" الحديثـة نسـبيًّا، وهـي مدينــة "مراثـوس MARATHUS" الكلاسيكيّة، وتقع على الساحل الفينيقيّ الشماليّ، ما يخلّد اسـم الأموريّيـن. وفي ذلك العهد أصبحت سورية ساميّة لأولّ مرّة، باستثناء بعض الجيوب التـي سـكنها الحوريّون وآخرون من غـير السـاميّين، واحتفظـت بصيغتهـا السـاميّة خـلال العصـور حتّى الوقت الحاضر. وقبل أن يجتاح سرجون بلاد آمور، كانت عاصمتها ماري قاعدة

---

١ - راجع: POEBEL ARNO, HISTORICAL TEXTS (PHILADELPHIA,1914) P.177.

إحدى السلالات السومريّة القديمة. وقد عزل سرجون الفاتح السومريّ "لوكال زاكيزي LUGGAL-ZAGGISI" صاحب "إرك" الذي ادّعى في إحدى كتاباته الأثريّة أنّه "فتح البلاد من مطلع الشمس حتّى مغرب الشمس"، وأنّه "تقدّم من البحر الأدنى، من الفرات والدجلة، حتّى البحر الأعلى"[1]. وفي خلال القرن العشرين قبل الميلاد أصبحت مدينة ماري والبلاد المحيطة بها أموريّة في سكّانها وحضارتها وحكومتها.

والأموريّون لم يقتصروا على تأسيس دولة في منطقة الفرات الأوسط واجتياح سورية بل اجتاحوا بلاد ما بين النهرَين أيضًا وحكموها. وقد أسّسوا عدّة سلالات من أشور في الشمال حتّى لارسا في الجنوب بين ٢١٠٠ و١٨٠٠ قبل الميلاد. وأهمّ هذه كانت سلالة بابل، وهي أوّل سلالة ظهرت في هذه المدينة وانتسب إليها حمورابي المتوفّي حوالى ١٧٠٠ قبل الميلاد، وهو أوّل مشرّع عظيم في العصور القديمة. وحمورابي هو الذي فتح بلاد آمور وأضافها إلى أمبراطوريّته البابليّة. وقد أدّى هذا الفتح إلى القضاء على مدينة ماري وأدخلها في عالم النسيان حتّى زمن قريب حين جرت تنقيبات في موقع تلّ الحريري، واتّضح أنّه ماري القديمة. وكانت الإكتشافات التي عُثر عليها من أعظم ما كشفته أعمال التنقيب في العصور الحديثة. فقد تضمّنت أكثر من ٢٠ ألف لوح مسماريّ، وهو عدد لم يخرجه أيّ موقع آخر باستثناء نينوى. واللغة في معظم الأحيان أكاديّة، غير أنّ المفردات والمميّزات الصرفيّة والنحويّة لا تترك مجالاً للشكّ بأنّ الذين كتبوا تلك الألواح تكلّموا الأموريّة واللغة الساميّة الغربيّة المختلفة عن الأكاديّة والساميّة الشرقيّة. وتمثّل الألواح محفوظات "زمري ليم" (حوالى

١ - راجع: TUREAU-DANGIN F., *DIE SUMERISCHEN UND AKKADISCHEN KONIGSINSCHRIFTEN* (LEIPZIG,1907): P.155.

١٧٣٠ ـ ١٧٠٠) آخر ملوك ماري الذي قضى على دولته أعظم ملوك ذلك العصر وهو حمورابي[1].

الدِّيَانَــــة

الأموريَّة

ذكر مؤرّخون أنّ الديانة الأموريّة في شكلها البدائيّ لم تختلف غالبًا عن عبادة قوى الطبيعة عند الساميّين التي كانت شائعة بين الرحّل في بادية الشام وبلاد العرب. وكان يوجد بجانب إله القبيلة "أمورو"، وهو إله الحرب، عدد من الآلهة التي لا تُعرف صفاتها بالضبط، ويظهر كثير منها في عداد الآلهة الكنعانيّة لاحقًا. وكان أهمّها "حدد" وهو "آدد" أو "آدو" الأكاديّ المعروف أيضًا باسم "رمّامو" أو "رمّانو" صانع الصواعق، وهو إله مطر وعواصف يمثّل نوعًا شائعًا في غربيّ آسية ويظهر عادة مع الثور والصاعقة، وقد تحدّثنا عنه في مجال تعداد الآلهة السومريّة، ثمّ أصبح بعد ذلك البعل الأعظم. وبصفته إله رئيسيّ في الغرب عُرف باسم "مارتو".

وقد أجمع الباحثون حول أنّ أصل اسم بلدة برمّانا في قضاء المتن من لبنان، هو BET RAMMÂNA : أي بيت الإله الأموريّ RIMMON، و RAMMÂNü في الأشوريّة. وليس لشجر الرمّان أيّة علاقة باسم برمّانا كما يعتقد البعض، غير أنّ شجر الرمّان وزهره، الجلنار، هما رمز هذا الإله، ربّما سُميت الشجرة نسبة اليه. ولا تزال آثار أولئك الأموريّين الذين سكنوا برمّانا في قديم الزمان ظاهرة في منطقة عرنتا بالقرب من دير مارشعيا الشهير بقرب برمّانا.

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١:٧٠ ـ ٧٢.

وهناك إله آخر ذو شأن وهو "رشف"، وربّما كان له بعض الصلة بالنار. واقتبسه المصريّون في عهد الملكيّة الحديثة من الكنعانيّين. ونجد أوّل ما نجد من آثار للعبادة الجبيليّة القديمة، هيكلاً للإله "رشف بعل"، وقد وُجدت آثار هذا الهيكل في الطبقة الثانية من الحفريّات التي تعود إلى ما بين ٣٨٠٠ و٣٢٠٠ قبل الميلاد.

وكان "دجن" الذي عبده الأموريّون الذين فتحوا بابل إله غذاء بالأصل. وقد أجريت حفريّات في معبد مكرّس له في مدينة أوغاريت. واقتبسه الفلسطينيّون كإله السمك وكان يُعبد خاصّة في غزّة. وجميع هذه الآلهة قد ذُكرت في ألواح ماري. وكان للإله آمورّو شريكة نسمّى "عاشيرة ASHIRAT"، وتتّصف بحبّ المسرّات والنشاط وتشبه نموذج عشتار المعروف. وقد كانت الإلهة الرئيسيّة. وعبادة الأفعى التي سبقت قدوم الإسرائيليّين كانت متّصلة، على ما يبدو، بآلهة أنثى وربّما كان قد أدخلها الأموريّون. وفي عدد آلهة جنوبيّ بلاد العرب نجد أنّ هذه الإلهة متّصلة بالإله القمر، واسمها يقابل ASHERAH بالعبريّة وهي العمود المقدّس أو جذع الشجرة وتُستعمل في الطقوس الدينيّة.

ومن الطقوس البارزة التي أدخلها الأموريّون إلى جنوب سورية العمود المقدّس، وكان يمثّل على ما يظهر إله القبيلة وعادة يقام في مكان مطهّر في مغارة إلى جانبها مذبح من الحجر الكلسيّ لا تدنّسه أيّة آلة. والساميّون الذين حلّوا في جزر محلّ السكّان الأقدمين ومارسوا تضحية أوّل مولود، وكذلك قاموا بالتضحية عند تأسيس الأماكن، وبنوا الأماكن المرتفعة للعبادة من الصخور الكبرى، كانوا أموريّين[1].

وتحدّث باحثون[2] عن إله قوميّ للأموريّين أو العموريّين هو الإله "مارتو" حسب اللفظ السومريّ، ويقابله في الأكديّة "عمورو"، وهو إله طقس يتمتّع بصفات

---

١ ـ حتّي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ١: ٨٣ ـ ٨٤.

٢ ـ الماجدي خزعل، المعتقدات الآراميّة، الكتاب الرابع من سلسلة التراث الروحيّ للإنسان، دار الشروق، (عمّان ٢,٠٠٠)

الخراب والدمار. وعن الإله "إنرومر" الذي يُعتقد أنّه إله الطقس الفعليّ الذي يشبه الإله "حدد" الآراميّ في جميع الأوجه، ويُنظر له في بعض الأحيان على أنّه ابن الإله "دجن"، الذي يُنظر له هو الآخر كإله طقس قديم. أمّا زوجات هؤلاء الآلهة الطقسيّين العموريّين الثلاثة فهنّ: "مارتو" زوجة "بلت صيري" إلهة البادية، و"أشراتو" أو "عشراتو إنزومر" زوجة "مرتوم"، و"شالا" زوجة "دجن"، وهي زوجة الإله "أدد" السومريّة، إذ لا يوجد إله باسم أدد" أو "حدد" عند العموريّين، ولذلك رجّح الباحث أنّ الاتّصال القبليّ القديم بين الآراميّين والعموريّين، كان قد نقل في بداية الأمر الإله "إنزومر" الذي لُفظ عند الآراميّين بلفظتَي "ور" و"مر"، قبل أن يتعرّف الآراميّون على الإله "أدد" الذي حلّ محلّ "مر" وأصبح بالتصويت الآراميّ "حدد" ثمّ "هدد".

ومن أقدم الإشارات إلى التضحية عند التأسيس إشارة واردة في شعر سومريّ حيث يذكر أنّ الأموريّ كان يبني باحة معبده "على رجل ميت". والجرار الخزفيّة التي وُجدت في أساسات البيوت في فلسطين وفي أساسات المعابد والهيكل المختلفة كان مدفونًا فيها أولاد صغار قُدّموا قرابين للآلهة. وقد تابع الكنعانيّون النظم والعادات الدينيّة التي كان يتّبعها أبناء جنسهم الأموريّون الذين أتوا قبلهم. وإنّ استبدال الذبائح البشريّة بذبائح من الحيوان تمثّل تغييرًا حضاريًّا عند الشعوب الساميّة. فقد أصبح الساميّون يدركون بأنّ الإله لا يرضى عن الذبيحة البشريّة[1].

---

١ ـ حتّي د. فيليب، لبنان في التاريخ منذ أقدم العصور التاريخيّة إلى عصرنا الحاضر، نشر مؤسّسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر (بيروت ـ نيويورك، ١٩٥٩) ص١٦٤.

المُعتقدَات الكنَعانيّة - الفينيقيَّة

يستحيل الفصل بين المعتقدات الكنعانيّة والفينيقيّة، فالكنعانيّون والفينيقيّون شعب واحد لغة وحضارة. أمّا الكنعانيّون، فقد كانوا سكّان فلسطين، والفينيقيّون سكّان الساحل، ولم يُعرف هؤلاء بالفينيقيّين إلاّ بعد القرن الثاني عشر والحادي عشر قبل الميلاد. وفي زكريّا ١٤: ٢١ لفظة كنعانيّ مرادفة للفينيقيّ، ولفظة فينيقيّ ذاتها أصبحت، على مرّ الأيّام، مرادفة لكلمة تاجر. ويستنتج باحثون من هذه الملاحظات الواردة في التوراة أنّ الكنعانيّين والفينيقيّين كانوا شعبًا واحدًا لغةً ودينًا وحضارة. غير أنّ اللبنانيّين القدماء عُرفوا بالفينيقيّين بعد القرن الثاني أو الحادي عشر. أمّا المصريّون فكانوا يطلقون لفظة كنعان على كلّ غربي سورية. ويذكر ستي الأوّل في نقش له أنّه حارب قبائل البدو في تارو (صور) التي في كنعان. ويقول رعمسيس الثالث إنّه بنى للإله "أمن" أي "أمون" هيكلاً في كنعان أي في فلسطين. أمّا الإغريق ولا سيّما فيلو، فإنّهم يستعملون لفظة XNA بمعنى فينيقيا. وبلّيني يتكلّم عن "يافا JOPPA" التي للفينيقيّين[1].

قصَّة الخلق

عندَ الفينيقيِّين

في الحقبة الرومانيّة شهدت المدن الفينيقيّة تطوّرًا ملحوظًا على الصعيد الفكريّ، وإذا كانت جبيل لم تنجب مثلما أنجبته صور وصيدا من فلاسفة وبلغاء، فهي قد أهدت

---

١ - فريحة، أسماء المدن والقرى اللبنانيّة وتفسير معانيها، صXXI - XXII؛ راجع: الفصل الأوّل من هذا الكتاب.

العالم مؤرّخًا رائدًا كان له الفضل في حفظ معلومات نادرة ودقيقة عن حضارة المنطقة في حقب مظلمة من التاريخ، إنّه "فيلو الجبيلي" الذي عُرف عند الغربيّين بإسم PHILO OF BYBLOS والذي عاش بين ٦٤ و ١٦١م.، فقد وضع هذا الجبيليّ الشهير مؤلّفًا قيّمًا بموضوع ميثولوجيّ تضمّن القصص التي كانت تدور حول خلق العالم وحول الدين الفينيقيّ ونشوء المدن الفينيقيّة، معتمدًا مصدرًا بالغ الأهميّة، هو "سنكون ياتون SANCHUNIATON" البيروتيّ الفينيقيّ، وبقي الباحثون يعتقدون طيلة قرون أنّ مرجع فيلو الجبيليّ، سينكون ياتون هذا، هو شخصيّة خياليّة وهميّة اخترعها الجبيليّ لتعزيز قيمة مؤلّفه، إلى أن جاءت اكتشافات أوغاريت سنة ١٩٢٣ لتبيّن أنّ سنكون ياتون شخصيّة حقيقيّة فينيقيّة من بيروت، عاش في القرن السادس قبل الميلاد. وقد دلّت النقوش الأوغاريتيّة على أنّ التاريخ الذي وضعه فيلو الجبيلي فيه كثير من الصحّة.

لقد وصلنا النصّ المنسوب إلى سينكون ياتون كقطعة يتيمة من تراث ضائع، فكان بذلك ككسرة صغيرة من إناء ضخم فُقدت بقاياه الأساسيّة. ولهذا نشأت الشكوك حوله واتّهم بعضهم فيلون الجبيليّ باختراع الإسم وتدبيج نصوص ميثولوجيّة بنحلها. وكانت حجج هذا البعض في التقارب بين مرويّاته وأسمائها وما لدى الإغريق. لكنّ أبحاثًا بمستوى المغامرة لدى بعض العنيدين كشفت ملامح العملاق المفقود من التاريخ. وبدا أنّ فيلون الجبيليّ كان يحاول التوفيق بين الأسماء الفينيقيّة واليونانيّة. ومعلوماته كان يجمعها ويربطها بمعابد كانت معروفة في زمانه قرب جبيل[1].

وضع فيلون أو فيلو الجبيليّ، بالاستناد إلى سنكون ياتون، خلاصة لاهوت الفينيقيّين القدماء. فافترض في أصل الكون ريحًا كثيفة عاصفة، أو عصفة هواء كثيف، مع خواء موحل مظلم. هذه العناصر كانت دون نهايات وبقيت دون حدود،

---

١ ـ الحوراني د. يوسف، مجاهل تاريخ الفينيقيّين، دار الثقافة (بيروت،١٩٩٩) ص١٣ ـ ١٥.

خلال زمن طويل. لكن، لمّا وقعت هذه الريح في حبّ مبادئها الخاصّة نتج عن ذلك مزيج، فدُعي هذا المزيج الرغبة "بوثوس". ذلك هو مبدأ خلق جميع الأشياء. ولكن هي ذاتها لم تكن تعرف خلقها الخاص. ومن الاندماج لعصفة الهواء مع ذاتها وُلد "موت".

إنّه حسب رأي البعض "العجينة"، وحسب رأي الآخرين "التخمّر" لخليط من الهلام. من ذلك نتجت كلّ بذرة للخلق وتكوين الكون. كانت هناك حيوانات محرومة من المشاعر ولدت منها كائنات متميّزة بالعقل دُعيت "شوف سمين"، أي "المتأهّلة في السماء، أشكالها مصنوعة بشكل بيضة، ونفث فيها "موت" نيرانه. وكذلك هي الشمس والقمر والكواكب الكبرى. وعندما غدا الهواء ملتهبًا حرّكت النار فوق اليابسة والبحر الرياح والغيوم وزخّات غامرة من مياه السماء. وبفعل حرارة الشمس افترقت العناصر عن بعضها وابتعدت عن أمكنتها الخاصّة، ثمّ عادت من جديد متصادمة في الهواء ببعضها، بحيث تحدث الرعود والبروق، وعلى قصف الرعد استيقظت الحيوانات العاقلة مذعورة من الضجيج. وأخذت الذكور والإناث تتنقّل فوق اليابسة وفي البحر.

وبعد أن أعطى أسماء الرياح: نوتس وبوريه والأخريات، قال: ولد "أيون" و"بروتوغون" إنسانَين فانيَين. وكان أيون هو الذي اكتشف الغذاء من ثمار الأشجار. وهذان أنجبا "جينوس" و"جينية". وقد سكنا فينيقية. وحدث جفاف كبير فمدّا يديهما إلى السماء باتّجاه الشمس، لأنّهما كانا يُعتبران إلهًا وحاكمًا أوحد للسماء دعواه "بعل سمين"، أي حاكم السماء... ومن سلالة أيون وبروتوغون وُلد أيضًا أبناء فانون، أسماؤهم هي: "فوس" أي النور، و"بير" أي النار، و"فلوكس" أي اللهب. وهم اكتشفوا النار بحكّ قطع من الخشب وعلّموا الآخرين هذه الخبرة. وأنجبوا للعالم أبناء ذوي قامات عظيمة متناسقة، أُطلقت أسماؤهم على الجبال التي كانوا يحكمونها. ومنهم أخذت جبال أسماءها: كاسيوس، لبنان، لبنان المقابل، وبراثي. ومنهم وُلد "سممرومس"

الذي هو "هبسورانيوس" و"عوزوس". وقد حملوا أسماء أمّهاتهم، لأنّ نساء هذه الحقبة كنّ يضاجعن، بدون تردّد، أيّ عابر سبيل[1].

ثمّ يقول: سكن هبسورانيوس صور وابتكر الأكواخ المصنوعة من الأقصاب والخيزران والبردى؛ ومن ثمّ تشاجر مع أخيه "أوزوس" الذي كان أول مَن اكتشف الملابس لحماية الجسد، وذلك من جلود الحيوانات التي كان يصطادها. وحدثت عواصف عنيفة وأعاصير فاحتكّت أشجار صور ببعضها وأشعلت حريقًا إلتهم الغابة الموجودة فيها. حصل أوزوس على شجرة وجرّدها من أغصانها وتجرّأ فأبحر بها في البحر، فكان الأوّل. وأقام نصبَين: واحدًا للنار وآخر للريح، وتعبّد لهما بتقدمات من دماء الحيوانات التي كان يصطادها...وبعد موت هذَين كرّس الذين خلفوهما لهما سوارى وراحوا يؤدّون العبادة لأنصابهما ويحتفلون بأعياد سنويّة لهما... وبعد زمن طويل وُلد من "هبسورانيس": "أغروس" و"إليوس" اللذان ابتكرا الصيد البرّي والبحريّ واللذين منهما أخذ الصيّادون اسمهم. ومنهما وُلد أخوان ابتكرا الحديد وطريقة تصنيعه. وأحدهما ويُدعى "كوشر" راح يمارس وضع القوانين والسحر والنبوءات. ويقال بأنّه قام بدور "هيفستس" واخترع الصنّارة والطعم والخيط والقوارب. وكان أوّل مَن أبحر من بين الناس[2]، وهو يُدعى "ديوملكيوس". ويدّعي آخرون أنّ إخوته ابتكروا كذلك جدران الآجر. وبعدئذ وُلد من سلالتهم شابّان، يُدعى أحدهما "تقنيتس"، والآخر "جينوس إبن الأرض" وهو "أوتوكتون". وهما صمّما مزج الصلصال بالقشّ وجعله

---

١ ـ الأسماء المذكورة هنا كنسل أوّل للإنسان، هي مترجمة إلى اليونانيّة، ومن خلال هذه الترجمة، يبدو الخلل في سياق النص. وهو ما انتقده فيلون الجبيليّ كأخطاء للترجمة والفهم الخاطئ لمدلول الأسماء.

٢ ـ نلاحظ أنّ هذه النسبة كانت قد أعطيت قبلاً لـ"أوزوس"، ويبرّر الحوراني ذلك بأنّ النصوص مجموعة من أماكن مختلفة وبروايات مختلفة. ولكنّنا نلاحظ في النص ورود عبارة "ويقال بأنّه قام بدور "هيفستس" واخترع ولهذا اعتبروه كإله بعد موته"، أي أنّ الكاتب قد استدرك ما ذكره سابقًا.

يجفّ في الشمس، كما ابتكرا كذلك السقوف. وولد منهما أيضًا أناس آخرون، أحدهم يُدعى "أغروس" والآخر "أغرووبرس" أو "أغروتس". وتمثال هذا الأخير كبير الاحترام ومعبده في فينيقية تجرّه الثيران. وسكّان جبيل وحدهم يعتبرونه أكبر الآلهة. وهؤلاء هم الذين خطّطوا إضافة باحات إلى المنازل وتصوينات وأقبية. ومنهم تحدّر قرويّون وصيّادون، ويدعونهم غجرًا "عليطي" وتيتانًا. وقد وُلد منهم أمنون وماغون اللذان عرفا القرى والقطعان. ومنهما وُلد ميصور وصديق الذي يعني اسمه المستقيم العادل. واكتشفا استعمال الملح...ومن ميصور وُلد "تاوتس" الذي اكتشف كتابة الحروف الأبجديّة. ويدعوه المصريّون "ثاوث" والإسكندرانيّون "ثوث" والإغريق "هرمس". ومن صديق وُلد "الديوسكورس" أي "الكبيرس" أي "الكوريبانتس" أي "الساموتراسيون". وهم أوّل مَن أوجد السفينة[1]. وولد منهم آخرون اكتشفوا أشياء بسيطة، كالعقاقير ضدّ عضّات الحيوانات والرقيّ... وفي عصر هؤلاء ظهر "عليون" الذي يُدعى "هيستوس" وامرأة تُدعى "بيروت" كانا يسكنان في ضواحي جبيل... ومنهما وُلد إبجيوس" إبن الأرض "أوتوكتون"، وقد دُعي بعد ذلك "أورانوس" الذي استعير اسمه للدلالة كذلك على "العنصر الذي فوقنا"، وذلك بسبب جماله العظيم. وقد وُلدت له أخت من الأبوَين المذكورَين ودُعيت "غايه". وبسبب جمالها دُعيت الأرض باسمها. ووالد هذَين "هبستوس"، بعد أن قضى بصدام مع حيوانات وحشيّة، جرى تأليهه وكرّس له أبناؤه سكائب وأضحيات... وبعد أن ورث أورانوس سلطة والده تزوّج أخته "غايه". وُلد له منها أربعة أبناء: "إيليوس" الذي يُدعى أيضًا "كرونوس"، و"بيتيل"، و"داغون" الذي ليس سوى "سيتون"، و"أطلس". ومن زوجات أخرى وُلد لأورانوس نسل كبير العدد. ولهذا ثارت غيرة "غايه" فكدّرت حياة "أورانوس" إلى درجة الإنفصال بينهما. ومع أنّ

---

١ ـ لعلّه يقصد بالسفينة "القارب الكبير".

أورانوس كان مفترقًا عنها، فكان يستعمل العنف عندما كان يريدها، ويقترب منها ليجامعها، ثمّ يعود للإفتراق عنها. وقد أخذ يعمل للقضاء على الأولاد الذين كانوا له منها، فحمتهم "غايه" بمساعدة حلفاء أخذتهم إلى جانبها[1]...

وتكمل الأسطورة بتفاصيلها فتقول: بلغ كرونوس سنّ الرشد، وبرعاية "هرمس المثلّث العظمة"، وإرشاداته، وقد كان أمين سرّه، ثار ضدّ والده أورانوس ليثأر لوالدته... وُلد لكرونوس ابنتان هما: برسفون وأثينا. وقد ماتت الأولى وهي عذراء. وبنصيحة من أثينا وهرمس صنع كرونوس من الحديد منجلاً وحربة؛ وعندئذ وجّه هرمس، إلى حلفاء كرونوس، كلمات سحريّة أوحى لهم خلالها بالرغبة في الحرب ضدّ أورانوس، إكرامًا لغايه. وهكذا اشتبك كرونوس في القتال. عزله عن السلطة وتسلّط مكانه. وفي هذا القتال أسر محظيّة أورانوس التي كانت حبلى وأعطاها كزوجة لداغون... ولدت لدى هذا الأخير الولد الذي كانت تحمله من أورانوس وجعلت اسمه "دمارو". وفي غضون هذه الأحداث أحاط كرونوس منزله بسور وأنشأ أولى المدن، وهي جبيل في "فينيقية"... وبعد هذه الحوادث أحسّ كرونوس بشكوك نحو أخيه أطلس فرماه في هوّة في الأرض وطمره فيها، بناء على نصيحة هرمس. وفي هذا التاريخ قام أبناء الديوسكورس بصنع أطواف ومراكب وسافروا في البحر، فرسوا قرب جبل كاسيوس، الجبل الأقرع، وأقاموا معبدًا هناك. وقد دُعي أتباع إيلوس، أي كرونوس، باسم "علوييم"، كما الذين اتّخذوا اسمهم من كرونوس دُعوا "كرونيّين"... وكان لكرونوس ولد يُدعى "صديد" قضى عليه بسلاحه الخاصّ، لأنّه شكّ به، فانتزع حياته، وبذلك غدا قاتلاً لابنه؛ وبالطريقة ذاتها قطع رأس ابنته، بحيث ارتعب جميع الآلهة من حالة كرونوس النفسيّة هذه... وبعد ذلك أرسل أورانوس سرًّا من منفاه ابنته العذراء

---

١ ـ الحوراني، مجاهل تاريخ الفينيقيّين، ص١٣ ـ ٨٠.

"عشتارتا" مع أختَيها "رحيّه" و"ديوني" للقضاء على كرونوس بالحيلة. لكنّ كرونوس قبض عليهنّ واتّخذهنّ زوجات شرعيّات له، وهنّ أخواته... وعلم أورانوس بالأمر فأرسل ضدّ كرونوس "هيمارمين" و"حورا" مع أحلاف آخرين، فضمّهم كرونوس إليه، واحتفظ بهم قربه. وولدت "عشتارتا" لكرونوس تسع بنات هنّ التيتانيد أو الأرطميد... وولدت له "رحيَّه"، هي الأخرى، هذا العدد من الأبناء، جرى تأليه الأخير منهم منذ ولادته. وولدت له "ديوني" بنات. ومن جديد ولدت "عشتارتا" ولدَين، هما: بوثوس وإيروس... وبما أنّ داغون اكتشف القمح والمحراث تلقّى اسم "زوس الفلاّح". و"صديق" المعروف بالـ"عادل" اقترن بإحدى التيتانيدات فغدا والدًا لأسكلابيوس... وُلد لكرونوس في إقليم "بيريه" ثلاثة أولاد، الأوّل يُدعى كرونوس مثل والده، ثمّ زوس بعلوس وأبّولون. وفي زمنهم ظهر بونطس، وطيفون، ونيري والد بونطس وابن بعلوس... ومن بونطس وُلد صيدون، الذي بامتياز صوته أوجد الأغنية الأولى، وبوزيدون. ولدمارو وُلد ملكرت الذي يُدعى هرقل... وبعد ذلك اشتبك أورانوس في صراع مع بونطس بدوره. فتخلّى عن أحلافه وتحالف مع دمارو، فمشى دمارو ضدّ بونطس. ولكنّ هذا هزمه، فنذر دمارو أضحية إذا نجا بنفسه... وفي السنة الثانية والثلاثين من تسلّمه السلطة، قام إيلوس، الذي هو كرونوس، بنصب كمين لوالده أورانوس في طريق وسط الأراضي، وسلبه رجولته باجتثاث أعضائه الجنسيّة قرب ينابيع وأنهار. وفي هذا المكان تمّ تأليه أورانوس، حيث لفظ أنفاسه؛ وقد قطرت دماء أعضائه في الينابيع وفوق تيّار الأنهار. ولا يزال المكان معروفًا حتّى اليوم...

تلك هي قصّة كرونوس، والملامح النبيلة التي يمثّلها هذا الوجود الذي يمدحه الإغريق المعاصرون لكرونوس، وهم، كما يُقال، كانوا السلالة الذهبيّة للناس الفانين. هذا التقدير من القدماء، هو ما يثير الحسد. ويضيف المؤلّف بعد أقوال أخرى:

عشتارتا العظيمة جدًّا، وزوس دمارو، أو هدد، ملك الآلهة، كانا يحكمان هذه المنطقة بموافقة كرونوس. فوضعت عشتارتا على رأسها رمز الملكيّة، رأس ثور. وبينما كانت تجول في الأرض المسكونة اكتشفت نجمًا شاقًّا الفضاء، فالتقطته وكرّسته في جزيرة صور المقدّسة... وعشتارتا، حسب قول الفينيقيّين، ليست سوى أفروديت. وكرونوس، هو أيضًا، خلال تجواله في الأرض المسكونة، أعطى مملكة "أتيكا" لابنته أثينا... عند انتشار طاعون مميت، قدّم كرونوس أضحية لوالده أورانوس، هي ابنه الوحيد، وختن نفسه وأجبر أتباعه على فعل ذلك مثله... وبعد وقت قليل، كرّس ابنه الذي وُلد له من رحيَّه، إلهًا بعد موته باسم "موت". وهو الإسم الذي يدعو به الفينيقيّون "ثناتوس" و"بلوتون"... وبعد ذلك أعطى كرونوس مدينة جبيل للإلهة "بعلتيس" التي تُدعى، في الوقت ذاته، "ديوني"، وأعطى بيروت لبوزيدون، وللكبيرس أعطى الفلاّحين والصيّادين الذين كرّسوا في بيروت بقايا بونطس... وقبل هذه الحوادث قام "طاوتس" الذي كان رسم صورة الآلهة الذين عاشوا معه، كرونوس وداغون والآخرين، برسم الأشكال المقدّسة للحروف. وتخيّل من أجل كرونوس كرموز للملكيّة، عيونًا بعدد أربع على الجزء الداخليّ والجزء الخارجيّ للجسد، بحيث تكون اثنتان يقظتَين واثنتان مغمضتَين بهدوء، وعلى الكتفَين أربعة أجنحة، اثنان منها يبدوان منتشرَين واثنان مطويَّين... كان هذا يرمز إلى أنّ كرونوس كان يرى وهو نائم وينام وهو مستيقظ. وما يخصّ الأجنحة هو مثل ذلك يطير وهو جاثم ويرتاح وهو طائر. كما للآلهة الآخرين جناحان لكلّ واحد في كتفيه، ليعني ذلك أنّهم يتبعون كرونوس. وجعل لكرونوس أيضًا جناحَين إضافيَّين على رأسه، ليشير أحدهما إلى التفكير القياديّ والآخر إلى التحسُّس... وعندما كان كرونوس في مناطق الجنوب، أعطى مصر بأكملها للإله طاوتس، لتكون مملكة له. وهذه الإجراءات، كما يقول، كان الكبيرس،

أبناء صديق أوّل مَن راعاها، مع أخيهم الثامن اسكلابيوس بحسب تعاليم الإله طاوتس... و"ثابيون" الكاهن الأوّل بين جميع الذين أقاموا في فينيقية، كان قد ترجم جميع هذه المعطيات بطريقة الاستعارة والتورية، وجعل أسسها مع الحياة الطبيعيّة والكونيّة، ناقلاً كلّ هذه العناصر إلى ممارسي "الأورجي"، وإلى الأنبياء القائلين بالحدوس: وهؤلاء هم الذين نشروا الضباب الكثيف بكلّ ما لهم من قوّة، وأورثوه لخلفائهم وإلى المبدعين الذين كان بينهم "إيزيريوس" المكتشف للحروف الثلاثة، أخو "كنع" الذي غيّر اسمه إلى "فينيق".

ذلك هو ما يقوله كتاب سينكون ياتون الذي ترجمه فيلون الجبيليّ، وأثبتت هويّته لنا شهادة الفيلسوف فرفوريوس[1].

عبَــادة
الخَصب

كانت المراجع الأدبيّة عن الديانة الكنعانيّة زهيدة قبل اكتشاف أوغاريت. وكانت تضمّ كتّابًا في اليونانيّة بعضهم سوريّون مثل فيلون الجبيليّ ولوكيانوس السميساطيّ ولكنّهم كانوا متأخّرين وغامضين نوعًا. وكان هناك موادّ العهد القديم في التوراة ولكن تتّصف بروح العداء التي كتب بها المؤرّخون العبرانيّون، كما كان هناك ما كتبه آباء الكنيسة المسيحيّة الأوائل، لكنّ معلوماتهم لم تكن أوّليّة. والأمر الأساسيّ في الديانة الكنعانيّة، كما تُظهره هذه المصادر والمكتشفات الأثريّة الحديثة، هو عبادة قوى النموّ والتوالد التي يعتمد عليها كيان مجتمع زراعيّ يهتمّ بتربية الماشية في أرض أمطارها قليلة وغير مؤكّدة. ويصدق هذا، إلى حدّ كبير، على جميع الديانات الساميّة القديمة.

---

١ ـ الحوراني، مجاهل تاريخ الفينيقيّين، ص٨٠ ـ ١٤٣.

ويبدو أنّ الكنعانيّين استعاروا من عبادات جيرانهم وطقوسهم في بابل ومصر، كما استعاروا في سائر الميادين الثقافيّة، وأعاروا هم أيضًا، فكانت العمليّة متبادلة.

والصفات البارزة في ديانة الخصب الساميّة هذه هي الحزن على موت إله النبات وإجراء طقوس لتمكينه من الفوز على خصمه، إله الموت والعالم الأسفل، حتّى يضمنوا كمّيّة وافرة من المطر الضروريّ لإنتاج موسم العام الجديد، والفرح عند عودة الإله إلى الحياة. وإنّ زواج الإله أو بعل بعد بعثه بإلهة الخصب عشتار تنتج عنه تلك الخضرة التي تكسو الأرض في الربيع. وهذا الزواج المقدّس الذي يتّخذ صفة روحيّة رفيعة يصبح في ما بعد اتّحادًا بين يهوه وشعبه. وفكرة الإله الذي يموت ثمّ يُبعث حيًّا تصبح جزءًا هامًّا من الأعراف المسيحيّة[1].

ويتّصل بفكرة جفاف النبات الدوريّ بسبب حرارة الصيف وعودته إلى الحياة في الربيع عنصر القوّة المتجدّدة للشمس المنتصرة عندما تظهر بعد انخذالها الظاهر في الشتاء. وقد كانت أسطورة "تمّوز" القديمة تتضمّن ذلك. وتمّوز هو في البابليّة "دوموزي DUMU - ZI"، أي "الإبن الأمين"، وهو من أصل سومريّ. وقد بقي اسم تمّوز في تسمية الشهر الرابع للسنة الساميّة لأنّه الشهر الذي كان مكرّسًا لعبادته، وهو اسم الشهر السابع في التقويم الغربيّ الحديث. وقد سمّى الكنعانيّون هذا الإله "أدون" بمعنى سيّد، ثمّ اقتبسه اليونان وجعلوا منه "أدونيس". وجُعل في ما بعد معادلاً للإله المصريّ "أوزيريس". وأصبح أدونيس أشهر الآلهة السوريّة، وأُقيمت عبادته في اليونان في القرن الخامس. وجعل الفينيقيّون حادثته مع "عشتار" أو "سيّدة بيبلوس[2]" عند منبع النهر الذي يُسمّى اليوم نهر ابراهيم في لبنان، وقد كان يحمل قبلاً إسم نهر

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١: ١٢٥.

٢ ـ زار هذا المعبد لويكاتوس حوالى ١٤٨م. ووصف طقوسه في كتاب DE DEA SYRIA, 6.

"أدونيس"، إلاّ أنّه قد سُمّي نهر إبراهيم باسم أمير مارونيّ قديم بعد تنصّر لبنان وانتقال البطريرك يوحنّا مارون إليه[1]. أمّا النبع فيُسمّى الآن نبع أفقا، حيث لا تزال مراسم الاحترام تُقام لسيّدة المكان العذراء مريم بإضاءة المصابيح في خلوة صغيرة تحت شجرة تين مشوّهة، ويعلّق سكّان المنطقة من مسيحيّين وشيعة قطعًا من ثيابهم على أغصان الشجرة كنذور لإعادة العافية إلى المرضى. ففي هذا المكان جُرح تمّوز بينما كان يصطاد الخنزير البرّيّ، وحملوه وهو مشرف على الموت إلى حبيبته المتألّمة. ومنذ ذلك العهد والنهر يصطبغ باللون الأحمر في أحد الفصول، وهو، بحسب المعتقد الكنعاني الفينيقيّ، لون دمه. ويقول باحثون[2] إنّ علماء الآثار الحديثون قد "شوّهوا" لنا هذه الأسطورة عندما أشاروا إلى التربة الحمراء التي تجرفها سيول الربيع. وهناك رواية أخرى للأسطورة تقول إنّ أدونيس، الذي كان لقبه الفينيقيّ نعمان، تحوّل إلى شقائق النعمان وهي الزهرة التي تلطّخت بدم أدونيس. وكلمة ANEMONE الإنكليزيّة أتت من "نعمان" عن طريق اليونانيّة، بينما كلمة نعمان العربيّة أتت عن طريق السريانيّة. وبينما كان تمّوز في العالم الأسفل ذبل النبات على الأرض وظلّ ميتًا إلى أن دخلت عشتار إلى العالم الأسفل واستعادته. ونشأت الطقوس التي تحتفل بذكرى موته في "بيبلوس" جبيل، على بُعد خمسة أميال شماليّ مصبّ النهر، وتضمّنت هذه الطقوس بحث النساء عنه. وكان العيد السنويّ يدوم سبعة أيّام. وكان الفرح يعمّ الجميع عند بعثه، حتّى أنّ اللواتي يعبدنه من النساء كنّ يضحّين بشرفهنّ بينما الرجال يضحّون برجولتهم ويخدمون المعبد كخصيان. وقد تعدّل هذا البغاء وتحوّل في ما بعد إلى قصّ الشعر الرمزيّ بالنسبة للنساء. وأمّا الختان الذي كان عادة ساميّة قديمة فإنّه بدأ، كما

---

١ ـ رجع: الجزء الرابع عشر من هذه الموسوعة.

٢ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١: ١٢٦.

يبدو، كتقدمة لإلهة الخصب، وكان أيضًا بمثابة علامة قبليّة فارقة. وقد رجّح باحثون[1] أنّ غياب الرجال في فينيقية بسبب أسفارهم البحريّة الطويلة كان دافعاً لترسيخ هذه العبادة. وتتابُع الحياة والموت لم يقتصر على النبات بل شمل الإنسان، ونتج عنه التأكيد على الناحية الجنسيّة من الحياة. وقد تجلّى ذلك في البغاء المقدّس الذي كانوا يمارسونه بمناسبة طقوس "عشتار"، ليس في بيبلوس وحدها، بل أيضًا في بابل وقبرص واليونان وصقليّة وقرطاجة وغيرها من الأماكن[2]. وبعض مظاهر هذه الطقوس استعارها العبرانيّون كما يظهر، وكان لدَيهم ما يُسمّى بـ "مومسات المعبد"[3]. والإباحيّة الجنسيّة كانت مظهرًا بارزًا في الاحتفالات الزراعيّة عند الكثير من الشعوب القديمة في العالمَين القديم والجديد[4].

ويرمز على مصرع أدونيس صخرة في الغينة، عليها تمثال للإله يصوّره وهو يصارع الخنزير البرّي، وتجاهه امرأة حزينة، تمثّل صورة "الزهرة" الباكية لموته بعد أن سلّط عليه الإله المرّيخ وحشًا ضاريًا فقتله[5]. وإذ كان المعتقد الفينيقيّ يعتبر أنّه عندما يكون تمّوز في العالم السفليّ، يذبل النبت على وجه الأرض ثمّ يموت، فكان تمّوز يظلّ بين الأموات الى أن تنزل عشتروت الى العالم السفليّ، عالم الموتى، فتخلّصه وتعود به إلى وجه الأرض. وقد وُجد رمز عودة أدونيس الى الحياة بواسطة "الزهرة - عشتروت" منقوشًا في مكان يُسمّى المشنقة في وادي علمات قضاء جبيل[6].

---

١ - حتي، لبنان في التاريخ، ص ١٥٩.

٢ - راجع: HERODOTUS BK. I. CH. 199; STRABO, BK, XVI. CH. 1, P. 20, CH. VI. P.2, 6;

٣ - سفر حزقيال، ٨: ١٤؛ ميخا، ١: ٧؛ التثنية ٢٣: ١٨.

٤ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١: ١٢٧.

٥ - حقّي بك إسماعيل، لبنان مباحث علميّة واجتماعيّة، نظر فيه دّ. فؤاد افرام البستاني، الجامعة اللبنانيّة (بيروت، ١٩٦٩ - ١٩٧٠).

٦ - م مسعد البطريرك بولس بطرس، الدرّ المنظوم، مطبعة الرهبان اللبنانيّين (لبنان،١٨٦٣)

معبَد

أفقا

من بقايا عبادة أدونيس وعشتروت في لبنان، آثار المعبد الرئيس لتلك العبادة، وهو هيكل أفقا في أعالي بلاد جبيل عند منبع نهر أدونيس التي بات يُعرف بنهر إبراهيم، كما ذكرنا. أمّا إسم أفقا، فمن جذر "أفق" الساميّ المشترك الذي يفيد عن والتسوير والحمى، علمًا بأنّ أفقا كانت حمى لأدونيس، وإن كان هناك تفسير آخر يورد إمكانيّة إعادة الإسم إلى كلمة APPEQ الساميّة القديمة التي تعني المخرج المتدفّق[1].

لقد جعلت عبادة أدونيس وعشتروت، ووادي النهر الذي عُرف باسمه "أدونيس" أرضًا مقدّسة، ملأى بالهياكل والمزارات، كان أهمّها وأعظمها هيكل أفقا القائم على صخرة تواجه الشلاّل من الجهة الجنوبيّة الشرقيّة، أمّا أوّل مَن ذكر هذا الهيكل في العهد الإغريقيّ ـ الرومانيّ، فكان المؤرّخ "يوسيبوس" الذي علّل سبب هدم الهيكل بأمر قسطنطين، لأنّه "كان مدرسة للرذيلة والفجور يؤمّه الإباحيّون المتهتّكون حيث يمارسون فيه كلّ أنواع الفحش بين الجنسَين، فرأى قسطنطين الكبير أنّ من واجبه أن يطهّر الأرض من هذا الرجس، فأرسل جنده حوالي سنة ٣٢٥ فدكّ الهيكل أنقاضًا، ورحل السكّان إلى بعلبك". لكن بعد وفاة قسطنطين الكبير، عادوا وبنوا الهيكل ثانية. ربّما في زمن الأمبراطور "بليانوس" المعروف بالجاحد، واستمرّ على عظمته حتّى زمن الأمبراطور تاودوسيوس الكبير، كما يقول بعض الباحثين[2]. بينما يقول آخرون إنّ الأمبراطور يوليان (٣٦١ ـ ٣٦٤) خليفة قسطنطين، الذي لم يكن قد اعتنق الدين المسيحيّ بعد، هو الذي أعاد بناء هيكل أفقا الذي هُجر بعد أن تسنّم ثيودوسيوس

---

١ ـ راجع: فريحة، معجم أسماء، ص٩.

٢ ـ لامنس، تسريح الأبصار، ١: ٤٩.

العرش الأمبراطوريّ. والمقول إنّ أباطرة الرومان، علـى عزّهـم، كـانوا يحجّون إلـى هذا الهيكل ويخصّونه بعطفهم ويلتفتون إلى ما يحيط به من غابات فيحرّمون قطعتها، كما فعل الأمبراطور "أدريان"، و"ماركُس كراسُس" الذي حجّ إليه في طريقه من حرب "البرسيين والأشكان"، وعلى عظمته وقدرته أغرته ثروة الهيكل فسلبها وحملها معه إلى روما بعدما قضى أيّامًا يُشرف على وزنها. وعلى الأرجح أنّ الخربة الباقية إلى اليوم هي بقايا الهيكل الثاني الذي ضربته الزلازل لأنّ بعض الجدران سقطت دفعة واحدة.

كان الحجيج إلى الهيكل يسلك أحد ثلاثة طرق، إمّا من جبيل، نهر إبراهيم المشنقة قرطبا، دير الأزرق؛ أو طريق جونيه غزير الغينه، حيث قبر أدونيس، ثمّ لاسا فأفقا؛ أو طريق بيروت فقناطر زبيدة، ودير القلعة في بيت مري فالمروج فقلعة فقرا بين ميروبا وكفردبيان، فلاسا حيث يلتقي بالحجيج الصاعد من الغينه، ثم أفقا؛ وهناك طريق رابع، يقود من بعلبك فاليمّونة فالعاقورة، ثم أفقا، وهو الطريق الأصيل لدخول الساميّين الأوائل إلى لبنان[1].

وقد اكتنف هذا الهيكل كثير من أساطير، منها أنّه في يوم معيّن واستجابة لدعاء أكيد، تنزل النار كالشهب من أعالي لبنان وتغور في النهر المجاور، وقد سمّوا هذه النار "أورانيا"، وهو اسم خلعوه على "فينوس". ومنها أيضًا، أنّ بالقرب من المعبد بحيرة تتأجّج من حولها النيران، أمّا ماؤها فذو خاصيّة مدهشة، وهي أنّ جميع الهدايا والنذور التي تتقبّلها الآلهة حتّى أخفّها كالحرير، تغرق فيه، أمّا الهدايا التي ترفضها حتّى أثقلها كالذهب والفضّة، فتطفو على وجه الماء.

الرحّالة إدوارد روبنصون زار الهيكل في أواسط القرن التاسع عشر وترك لنا وصفًا لخرائبه منه: أنّ الجدران متهدّمة إلى الداخل كأنّها ضُربت بزلزال، والخراب

---

١ ـ لامنس، تسريح الأبصار ١: ١٥، ١٠٧، ١١٧، ١٢١، و٢: ١٢٦.

شامل وكتل البناء ممزّقة ومنحاة عن مراكزها الأصيلة بشكل يتعذّر معه تفهّم رسم البناء وحجمه، لكن يظهر أنّ دكّة كبيرة غير منتظمة بُنيت أوّلاً لإعداد فسحة مستوية من الأرض تفي بالحاجة المطلوبة منها، وعليها ربّما بُنيت دكّة ثانية لا تتجاوز حدود الهيكل ذاته بكثير، وقد بُنيت بانتظام وعناية، يحيط بالمدماك الأعلى منها نوع من الطنف أو الإفريز، وعليها بُني الهيكل الذي لا يقلّ طوله عن المئة قدم وعرضه قد يتجاوز الخمسين، أمّا سائر الحجارة فكلسيّة ممّا يوجد في الجوار، وأكثرها قطع كبيرة وبعضها منحوت جيّدًا...وعلى الأحدود بالقرب من الهيكل يرتمي عمود كبير ونفيس من الغرانيت السيناويّ، وعمود آخر يظهر من شكله أنّه رفيق له نقل بعد شطي بوحشيّة، فأصبح بنصف حجمه الأصليّ... بيد أنّ الجهة الأماميّة من حائط الدكّة الخارجيّة بُنيت ابتداء من أسفل البروز. هنا عند الزاوية الشماليّة الشرقيّة يمتدّ صعدًا ممرّ معقود تحت الدكّة، ويظهر أنّ الينبوع الموجود هناك كان يخرج منه، وفوقه ممرّ آخر أصغر منه كثيرًا يؤدّي إلى تحت الردم في الإتّجاه نفسه، وعلى الحائط الغربيّ من الممرّ التحتانيّ وجد المستر "بارنت" قطعة من نقوش يونانيّة لم يبقَ منها سوى بعض الأحرف[1].

أمّا مدخل المغارة، فيقع في لحف صخور يبلغ ارتفاعها بين ٦٠٠ إلى ٧٠٠ قدم وهي ذات منظر رهيب قلّ وجود مثله في العالم، ولها شعَب ودهاليز فرعيّة يصعب عبورها لسعة أغواضها وكثرة مياهها التي تبلغ حرارتها ٨ درجات سنتيغراد، ولا يبعد أن يكون هناك اتّصال بينها وبين بحيرة اليمّونة، بواسطة سرب طبيعيّ طوله إثنا عشر كيلومترًا، وتنبجس المياه من مكانَين ثمّ تهبط شلاّلاً إلى الوادي، على علو أكثر من أربعين مترًا[1]. وفي زاوية الوادي، حيث يتكوّن النهر، مغارة في الجدار

---

١ ـ روبنصون، يوميّات في لبنان، ٣: ٢٢٤.
٢ ـ لامنس، تسريح الأبصار، ١: ١٥، ١٠٧، ١١٧، ١٢١ و٢: ١٢٦.

الصخريّ الشماليّ، علوّها نحو ١٥٠ قدمًا، وفي مؤخّرتها بالقرب من أعلاها باب صغير لمغارة داخليّة أعمق من الأولى، وهي ممتدّة مسافة زعم الرحّالة "ستيزن" أنّها تغور ما يلزمه ساعات للوصول إلى نهايتها في عمق الجبل، ويندفع من المغارة الخارجيّة جدول من ينبوع غزير، وإلى الغرب منها تمامًا يندفع جدولان آخران من الصخر، ثمّ يندفع الثلاثة معًا نزولاً إلى حوض على بعد نحو من خمسين قدمًا على الأخدود الواقع تحت المغارة، وتمرّ الطريق على جسر مبنيّ من الحجر، وتحت الجسر تمامًا ثلاثة شلاّلات دقيقة الإنتظام جميلة ومتعاقبة، وأبعد إلى الغرب يجري جدول من الإرتفاع نفسه وينضمّ إلى الثلاثة الأول تحت الشلاّلات، وإلى الجنوب الشرقيّ من الشلاّلات أخدود صغير يجري فيه نهر صغير نشاهد عبره في مواجهة للمغارة، هيكلاً قديمًا على بروز واطىء في طرف حرف الجبل، وينفجر من تحت خرائبه ينبوع آخر غزير.

قبرُ أدونيس
في الغِينـــة

يبدو أنّ هيكل "قبعل" في قرية "الغينة" قد جارى في أحداثه هيكل أفقا، نسبة للإرتباط الذي يجمع بين الهيكلَين. ففي أفقا كانت تُقام ذكرى قيام أدونيس، وفي "قبعل - الغينة" كانت تُقام ذكرى موته. أمّا في قرية "الغينة" من أعمال فتوح كسروان، التي يعني اسمها الساميّ القديم "المصُونة"، لا تزال آثار المعبد والضريح الذي عليه نقش لأدونيس ظاهرة حتّى اليوم، ولا شكّ في أنّ هذه القرية العريقة قد اتّخذت اسمها من معبد أدونيس وضريحه. ويُعرف معبد الغينة الأثريّ حتّى اليوم بمعبد "قبعل"، وقد حفظ التقليد اسم المعبد منذ القدم، وجاء عند أعلام المؤرّخين أنّ "أصل اسم "قبعل" يعني

"قبر" أو "قبّة عال"، وقالوا إنّ تأويله النواح والعويل"[1]. غير أنّنا لـم نتمكّـن مـن معرفـة الأصول التي استند إليها البحّاثة حتّى نتمكّن من استخلاص هذا المعنى الذي، وإن كان يطابق حالة تاريخيّة رافقت نشوء المعبد: النواح والعويل، يبدو أنّـه بعيد عـن التحليـل الصحيح للجذور الساميّة القديمـة، وعليـه، فإنّنـا نميـل الـى فصـل الإسـم إلـى جزءيـن، ونعتقد أنّ أصله (قبر - بعل)، ومعناه "قبر الإلــه" ثـمّ جعلـه الإدغـام قبعل. وقـد كـانت قبعل مدينة كبيرة قبل خراب كسروان على ما جاء في أقوال المؤرّخين.

هيكَل

صربا

صربا، ŠARBA إسـم قديـم مـن أسـماء بلـدات جونيـه، هـو أيضــا فينيقـيّ ويعنـي: البرج[2]. وقد أُطلق في الأساس على قلعة غارقة في القدم مشرفة على البحر كانت تقوم على قمّة المرتفع الصخريّ الـذي يعلـو "شير الباطيـة"، وقـد شُيّد علـى أنقاضـها ديـر المخلّص للآبــاء الباسيليّين، وذكـر بـاحثون أنّ أسـاسـات هـذا الديـر مبنيّـة مـن حجـارة القلعة الضخمة الشـبيهة بحجـارة قلعـة فقـرا، وبعضـهـم شـبّهها بحجـارة ديـر القلعـة[1]، ويبلغ طول عدد من هذه الحجارة أربعة أمتار. ولا يزال بعض من القسـم الأسـفل مـن جدار القلعة ظاهرًا للعيان في محيط الدير، حيث تبلغ سماكة الجدار ستّة أمتار. وعلـى عديد من الحجارة المستعملة في بناء جدران الدير نقوش مختلفة تمثّل رسومًا للشـمس منها الفينيقيّ والإغريقيّ والرومانيّ، ممّا يدلّ على تعاقب الشعوب التي مـرّت عليهـا.

---

١ - مسعد، مرجع سابق.

٢ - فريحة، أسماء، ص١٩٩.

٣ -لامنس، تسريح الأبصار، ص١٨.

وقد وجد البحّاثة إرنست رينان تمثالاً لجوبيتير داخل أنقاض القلعة فنقله إلى متحف اللوفر الباريسيّ[1]. وذكرت مدوّنات أنّه بخلال إجراء تصليحات في بناء الدير، أغلق الرهبان نفقًا يحتوي على درج منحوت في الصخر ينحدر في عمق الشير القائم عليه الدير والقلعة باتّجاه مغارة مار جرجس الباطيّة عند الشاطئ. وعندما كانت أعمال مدّ خطّ القطار الحديديّ جارية في موقع يفصل بين مكان القلعة وبين مغارة الباطيّة، ظهر جزء من هذا النفق، فتمّ إغلاقه بالأتربة والصخور[2]. هذا النفق الذي كان يصل الحصن بالبحر يدلّ على مدى الأهمّية التي كانت لقلعة صربا في الأزمنة الغابرة، وعلى عظمة شأن مَن كان يتحصّن فيها. وقد أكّد علماء على أنّ الفينيقيّين هم أول مَن شيّد تلك القلعة التي اتّخذوها للدفاع، وجعلوها مقرًّا لملك جبيل ومعاونيه القائمين على حركة الملاحة وبناء السفن. واكتشف الباحثون أنّ هذه القلعة كانت متّصلة بقلاع في داخليّة البلاد عبر "الطريق الشرقيّة" انطلاقًا من صربا فمعراب مرورًا بساحل علما ثمّ فيطرون، فقلعة فقرا، فهيكل أفقا، إلى قلعة بعلبك، حيث الهيكل الأكبر لعبادة الشمس. وتدلّ الأبحاث على أنّ الفينيقيّين كانوا قد أقاموا داخل قلعة صربا هيكلاً لعبادة الإلهة الشمس، التي كانوا يعتبرونها شريكة للإله "أتون"، إلى جانب عبادة الكواكب الأخرى التي كانت تنوب عنها عشتروت ملكة السموات وربّة القمر وأمّ الطبيعة والحياة في اعتقادهم، وأدونيس إله الشمس والخصب والجمال[3]. وقد كشفت حفريّات كانت تجري لأعمال بناء بقرب موقع قلعة صربا عن فسيفساء بيزنطيّة زاهية

---

١ - راجع: بو لحدو، تاريخ صربا، ص ٢٦.

٢ - راجع: الخازن الشيخ منير وهيبة، و بو لحدو واكيم، جونيه عبر حقب التاريخ، دار كسروان للثقافة والسياحة والتوثيق (جونيه، ١٩٨٢) ص٦٩.

٣ - CONTENEAU G., *LA CIVILISATION PHÉNICIENNE*, 2E EDIT. (PARIS,1949)

الألوان، لا يـزال الجزء المرصوف المتبقّي منها بحالة تنمّ عن أصالة رفيعة الشأن. وقد دلّت الأبحاث علـى أنّ تلك الفسيفساء كانت على الغالب أرضيّة كنيسة بيزنطيّة ذات شأن[1]، وقد رجّح مؤرّخون أن يكون قسطنطين الكبير ٢٧٤ ـ ٣٣٧م. قد حوّل هيكلاً فينيقيًا كان يقع بجانب قلعة صربا إلى كنيسة كما فعل في أفقا وأمكنة أخرى من لبنان. ولا نعلم لماذا ضرب المؤرّخون المحدثون صفحًا عن هذا الأثر الذي ذكر أبرز المراجع التاريخيّة الكلاسيكيّة أنّه كان معبدًا فينيقيًا لعبادة الزهرة مشابهًا تمامًا لهيكل أفقا، أمر قسطنطين بهدمه مع توأمه الجبيليّ لأنّهما كانا مدرسة للرذيلة والفجور[2]. وقد وصف رحّالة أجانب معبدَي أفقا وصربا بأنّهما توأمَين، كان طول كلّ منهما لا يقلّ عن المائة قدم، بعرض يتجاوز الخمسين، وحجارتهما كلسيّة وأكثرها من القطع الكبير، وبعضها منحوت بإتقان ومن حواليهما أعمدة من حجارة الغرانيت[3]. وقد ظهرت فعلاً أعمدة من الغرانيت بمحيط القلعة والمعبد قبل قرون عندما قامت الدولة العثمانيّة بإجراء حفريّات هناك. وكلّما أُجريت أعمال نقب وحفر بالمحيط لغايات البناء، بانت دهاليز وعاديّات وآبار مطمورة تحت التراب[4]. أمّا مغارة الباطية، التي تتّصل بالقلعة عبر نفق كان طبيعيًا قبل أن تهذّبه أيدي البشر ليلائم غاية ذلك الإتّصال، فهي المدخل الشماليّ الغربيّ لذلك النفق من جهة البحر، ويبدو أنّ تلك المغارة الرحبة عند مدخلها كانت بدورها تضمّ معبدًا فينيقيًا بحسب باحثين درسوا المكان قبل حوالى القرن[5]، فوجدوا أنّ أمواج البحر قد هدمت الجدار الشماليّ المواجه لليمّ عبر السنين،

---

١ - DUNAND MAURICE, *BYBLOS, SON HISTOIRE ET SES RUINES,* (BEYROUTH,1935) P.15.

٢ - JOSEPHUS, *ANTIQUITIES,* BKII, P.55.

٣ - ROBINSON E., *BIBLICAL RESEARCHES IN PALESTINE AND IN THE ADJACENT REGIONS,* (LONDON,1860).

٤ - راجع: الخازن وبو لحدو، ص٧٢.

٥ - لامنس، تسريح الأبصار، ص٨.

علمًا بأنّ البحر كان قديمًا أقرب إلى المغارة ممّا هو عليه اليوم. وأكّد هؤلاء على أنّ درجًا كان يمتدّ من المغارة إلى الداخل صعدًا هو من صنع أيدي البشر وليس من صنع الطبيعة. وقد تحوّلت تلك المغارة منذ زمن بعيد لعبادة القدّيس جرجس الذي يرى فيه أخصّائيّون نسخة مسيحيّة عن الإله أدونيس، وأنّ أعمال العبادة في تلك المغارة قد استمرّت دون انقطاع منذ آلاف السنين. أمّا اسم الباطيّة، فيؤكّد بما لا يقبل الشكّ على أنّ المعبد القديم الذي كان منشأ بداخلها إنّما كان مخصّصًا لعبادة تمّوز - أدونيس، ذلك أنّ الباطيّة تصحيف لمركّب ساميّ قديم: "بيت طوّاية" BET TAWWÃYÉ ومعناه: بيت المحزونين. ومعلوم أنّ شعائر الحزن كانت من أهمّ شعائر ديانة ذلك الإله الذي كان يبكيه عباده إلى حدّ النحيب في ذكرى موته. وكان هذا الهيكل مرتبطًا بهيكل أفقا عبر "درب أدونيس" الذي يعبر غزير صعودًا إلى الغينة للتبرّك بزيارة ضريح الإله هناك، ثمّ يتّصل بالنهر المقدّس صعودًا إلى أفقا.

بعلَة

جبيل

نجد أوّل ما نجد من آثار للعبادة الجبيليّة القديمة، هيكلاً للإله "رشف بعل"، وقد وُجدت آثار هذا الهيكل في الطبقة الثانية من الحفريّات التي تعود إلى ما بين ٣٨٠٠ و٣٢٠٠ قبل الميلاد، وإسم "رشف بعل" يعني: النار والنور، وهذا يدلّ على أنّه كانت لذلك الإله علاقة بالشمس، وليس بالنار كما يظنّ البعض. فإنّ تطوّر الديانة الجبيليّة في ما بعد سوف يدلّ على أنّ فكرة موت إله الخضرة في الصيف وقيامه في الربيع، كانت تقرن بقوّة الشمس وحرارتها وانتصارها على الشتاء.

أمّا الهيكل الأقدم في جبيل، والذي سيستمرّ وجوده طوال زمنها السابق للمسيح، فهو هيكل بعلة جبيل. وقد كان لكلّ مدينة في ذلك الزمان إلهة بعلة، غير أنّ إسم البعلة

كان يبقى سرًّا، ولكنّ بعلة جبيل احتفظت بإسمها: عشترت، التي سيصبح إسمها في ما بعد: عشتروت. وزوجها أدون، الذي سيُعرف في ما بعد بإسم أدونيس.

في هذه الحقبة من التاريخ الواقعة عند نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، وبينما كانت المدن الفينيقيّة على الشاطئ اللبنانيّ في حال استقلال وسط تقاسم الهلال الخصيب بين شعوب مختلفة، كانت أرواد وصور وصيدا تحقّق ازدهارًا كبيرًا على صعد الملاحة والتجارة واكتشاف العالم الجغرافيّ والبشريّ وعلى صعيد الإستعمار، بينما كانت جبيل تتّجه نحو مكانة دينيّة مهمّة، إذ فيها نشأت الشعائر والطقوس لإحياء ذكرى موت أدونيس وقيامته. ومن جبيل، انتشرت هذه العبادة. ففي مصر لتصبح "عشتر" "إيسيس" أو "إيزيس"، وليصبح "أدون" "أوسيرس" أو "أوزيروس". وكان المعتقد السائد أنّ أوسيرس مصر قد قُطّع إربًا ودُفن في أرض جبيل. وعند الإغريق أصبحت "عشترت" ASTARTE ثمّ قرنوها بإسم إلهتهم "أفروديت"، وأصبح "أدون" أدونيس، وهو الإسم الذي سيعمّ في ما بعد.

يبدو أنّ العلاقات الجبيليّة - المصريّة قد عرفت تواصلاً إنسانيًّا وديًّا وحضاريًّا مميّزًا ونادرًا في تلك الحقبة من التاريخ، فقد دلّت حفريّات جبيل على وجود معبد للآلهة المصريّة "إيسيس" إلى جانب معبد البعلة، حتّى غدت الآلهتان على مرّ الزمن إلهة واحدة. وقد دلّت اكتشافات الحقبة الجبيليّة السادسة (٢٥٠٠ ـ ٢١٥٠ق.م.) على أنّ الجبيليّين كانوا آنذاك قد بنوا هيكلاً للبعلة، يفوق بحجمه وأهمّيته الهيكلَين اللذَين سبقاه، وقد أغرق الفراعنة هذا الهيكل بنذوراتهم الممهورة بأسمائهم بالحرف الهيروغليفيّ. وسوف يتّضح لاحقًا أنّ بعلة جبيل التي بنى لها الجبيليّ هيكلاً في ذلك العصر الذي يسبق دخول الكنعانيّين إلى المنطقة، كما يسبق إطلاق إسم الفينيقيّين على سكّانها، هي عشتروت، وهكذا يظهر بوضوح أنّ الجبيليّين الأوائل من أبناء العرق

المتوسّطيّ هم الذين أوجدوا عبادة أدونيس وعشتروت التي ستصبح، في ما بعد، ما يمكن تسميته يومذاك: ديانة عالميّة.

وقبل أن يبدأ العدّ العكسيّ للألف الأخير قبل الميلاد، نجد جبيل قد أضحت عاصمة دينيّة للدين الفينيقيّ ـ الكنعانيّ قبل أن يصل الأشوريّون في غزوهم إلى الشاطئ اللبنانيّ. وقد حافظت جبيل على مركزها الدينيّ الطليعيّ في العهد السلوقيّ، حتى أنّ طقوس عبادتها قد طغت على طقوس عبادة الإغريق عند هؤلاء، وأصبح معبد أفقا محجّ اليونان المتعبّدين. وفي العصر الرومانيّ توسّعت العبادة الجبيليّة حتّى غزت روما، حيث شاعت عبادة أدونيس بين عامّة الناس، وانتشرت حدائق الإله الجبيليّ في كافّة أنحاء روما، حتّى وصلت إلى إشبيلية وإسبانيا، وفي نابولي ومدن إغريقيّة عديدة وفي جزر الأرخبيل في البحر الإيجي. وقلّما تجد بلدًا أوروبيًّا خاليًا من أثر فينيقيّ يعود إلى العهد الرومانيّ بلبنان، ما يدلّ على الشأو الذي بلغه الفينيقيّون في هذه الحقبة وعلى المدى المفترض أن تكون جبيل قد بلغته في ازدهارها.

وعندما أشرقت بوادر بشرى الخلاص في سماء الشرق بمولد السيّد المسيح في بيت لحم، كانت جبيل في أوج مكانتها الدينيّة الوثنيّة.

عند بداية انتشار المسيحيّة شمالاً نحو فينيقية اللبنانيّة، كانت جبيل تشكّل أحد مركزَي العبادتَين الشائعتَين في المنطقة آنذاك: عبادة الإله الساميّ "هدد ـ رمّون" الذي تحوّل إلى إله إغريقيّ ـ رومانيّ فأصبح "المشتري"، وهو "جوبيتير"، وهو نفسه "زفس"، وكان المركز الأوّل الرئيس لتلك العبادة "هليوبوليس" مدينة الشمس بعلبك؛ وعبادة أدون ـ عشترت، التي تحوّلت إلى "أدونيس ـ عشتروت"، أو "فينوس"، ومركز عبادتها الأوّل الرئيس جبيل. لذلك، ولأنّ صور وصيدا أقرب إلى مكان مجيء المسيح من جبيل، فقد تأخّرت جبيل عن مدن الجنوب وبيروت في دخول المسيحيّة إليها. فبينما

السيّد المسيح زار صيدا وصور وجوارهما، ومريم العذراء رافقت ابنها إلى جوار صيدا، وبولس الرسول مرّ في تلك النواحي، وكانت صور أول مدينة فينيقيّة تنشأ فيها جالية مسيحيّة على عهد بولس الرسول، ومن بعدها صيدا، وبيروت قد تحوّلت بأكثريّة أبنائها نحو المسيحيّة قبل بداية القرن الرابع للميلاد، وأصبح في هذه المدن الثلاث تنظيمات كنسيّة شملت تعيين الأساقفة وإنشاء البيَع وسوى ذلك من نشاطات، كانت جبيل لا تزال على عبادة بعلها القديم، وعلى ولائها لأدون وعشتر. وعندما عيّن بطرس الرسول تلميذه حنّا مرقس أسقفًا على جبيل، قامت في المدينة حركة مناهضة له، على ما تذكر الميامر. ولم يصب جبيل شيئا من شرور الإضطهاد الأمبراطوريّ للمسيحيّين في عهد تراجان سنة ١١٢ حيث أمر باعتبار كلّ مَن لا يخضع للآلهة ولا يسجد للأمبراطور خائنًا يعاقب على خيانته، ولا في عهد داقيانُس الذي قضى بين ٢٥٠ و٢٥١ بمعاقبة المسيحيّين الذين يرفضون تقديم الذبائح علانية للآلهة الوثنيّة المعترف بها من قِبَل الأمبراطور، فقد كانت جبيل أحد أهمّ مراكز تلك الآلهة، ولا عانت من اضطهاد فاليران للمسيحيّين بين ٢٥٧ و٢٥٨ الذي أضاف إلى تدابير سلفه داقيانُس تدبيرًا قضى بتحظير الإجتماع والتجمّع على المسيحيّين، ولا من الإضطهاد الكبير في عهد الأمبراطورَين ديو كليشان، ومكسيميان بين ٣٠٣ و٣١٣ اللذَين أزالا الكنائس من الوجود وأحرقا الكتب المسيحيّة وصرفا المسيحيّين عن وظائف الدولة وخيّرا كلّ مسيحيّ بين الموت أو تقديم الذبائح للآلهة، ولم يتمكّن المؤرّخون من إحصاء عدد الشهداء والمعاقين الذين سقطوا نتيجة هذه الإضطهادات الوحشيّة التي لم يشهد التاريخ لها مثيلا. إلا أنّ دور جبيل في هذا المضمار جاء من الجهة المعاكسة، يوم بدأت الأمبراطوريّة تميل إلى المسيحيّة، بحيث أمر قسطنطين (أمبراطور ٣٢٤ - ٣٣٧) بهدم هيكل أفقا وحارب ممارسة الشعائر التي تتنافى والدين

المسيحيّ، أمّا القلّة التي تجرّأت على اتّباع الدين المسيحيّ في جبيل فقد كان مصيرها الإستشهاد.

ففي تقليد الكنيستَين الغربيّة والشرقيّة أنّ يوحنّا مرقس، الذي يرد ذكره غير مرّة في أعمال الرسل كان من التلامذة السبعين للسيّد المسيح، وقد أقيم أسقفًا على جبيل. وقد أكّد دورتاوس الصوريّ على هذا، كما سجّل السنكسار الرومانيّ في ٢٧ أيلول (سبتمبر) "إستشهاد القدّيس يوحنّا الملقّب مرقس أسقف جبيل في فينيقية". وعليه يكون يوحنّا مرقس أوّل شهيد مسيحيّ في جبيل. وممّا يزيد في تأكيد هذه الواقعة أنّ أقدم كنيسة أقيمت في جبيل، جُعلت على إسم القدّيس يوحنّا مرقس، وكانت صورته فوق مذبح كنيسة جبيل الكبرى، إلاّ أنّها أُبدلت بصورة القدّيس يوحنّا المعمدان، الذي غلب إكرامه في هذه الكنيسة.

ويقول بعض الباحثين بأنّ فتاة في الثانية عشرة من عمرها إسمها "أكويلينا" استُشهدت في جبيل سنة ٢٦١ وذهبوا إلى اعتبار أنّها هي نفسها القدّيسة "مرتينا" التي لها كنيسة في جبيل[1]. غير أنّ خبر هذه القدّيسة جاء في "أعمال البولنديّين" على أنّها استُشهدت في نحو سنة ٣٠٨، عندما فشل الحاكم فولوسيان في محاولة حملها إلى الجحود بدينها فأمر بقطع رأسها. ويقول هذا السجلّ إنّ أصل "أكويلينا" من جبيل، نصّرها أسقف جبيل أوثاليوس وهي حديثة السنّ، فاضطرم قلبها حبًّا لربّها وأخذت تدعو مواطنيها إلى إيمانها، ممّا أغضب الحاكم وأدّى إلى استشادها.

---

١ ـ راجع لامنس، تسريح الأبصار، ص١٠١ ـ ١٠٣؛ على أنّنا نعتقد بوجود إشكال في هذا الإستنتاج، ونظنّ أنّ كنيسة جبيل المذكورة إنّما أنشأها الصليبيّون على إسم سيّدة البحار، وفي الفرنسيّة: SAINTE MARITIME وقد حُوّر اللفظ في لغتنا المحكيّة إلى: سانت مارتين. ومن الجائز أيضًا أن يكون لفظ أكوالينا إيطاليّ الأصل: AQUA LINA وهو الترجمة الإيطاليّة للفظ الفرنسيّ SAINTE MARITIME.

بقيت جبيل متمسّكة بعبادتها المتأصّلة فيها، وفي هذه الأثناء، كان قد أُعيد بناء هيكل أفقا الوثنيّ في عهد خليفة قسطنطين، الأمبراطور يوليانوس الجاحد (٣٦١ ـ ٣٦٤) الذي لم يكن قد اعتنق الدين المسيحيّ، ولمّا جلس أركادويس (٣٩٥ ـ ٤٠٨) على العرش أمر عام ٣٩٩ بتقويض الهياكل الوثنيّة فأُعيد هيكل الزهرة في أفقا إلى معبد مسيحيّ، وازداد عدد المسيحيّين في الجبل اللبنانيّ بمساعي ذلك القيصر. ومنذ ذلك التاريخ بدأ التحوّل الواسع في جبيل من الوثنيّة إلى المسيحيّة. وعندما تعرّضت المدينة للدمار في زلازل القرن السادس، كان أكثر أهاليها قد أصبح مسيحيًّا، وقد ساد اعتبار يومها يقول بأنّ سبب كارثة المدينة كان غضبًا من الله بسبب استمرار بعض سكّان جبيل على عبادتهم القديمة.

وتدوم عبادة أدونيس وعشتروت عبر العصور، حتّى بدأ تنصّر لبنان في أوائل ظهور المسيحيّة. وقد أصاب الديانة السماويّة الجديدة إضطهاد كبير بين ٣٠٣ و٣١٣ في مصر وفلسطين ولبنان. ودام هذا الإضطهاد حتّى ظهور الأمبراطور قسطنطين.

الآلهة

إنّ ديانة كنعان القديمة وبقيّة العالم الساميّ، باعتبار أنّها بالدرجة الأولى تقوم على عبادة الطبيعة، كانت تضمّ آلهتَين رئيسيّتَين تُعرفان بأسماء مختلفة ولكنّهما في جوهرهما: الجوّ الأب، والأرض الأمّ. وفي أوغاريت كان إله الجوّ يُعرف باسم "إيل" بينما الإلهة الأمّ كانت تُسمّى "عاشرة". وكان "إيل" الإله الأعلى للعالم الكنعانيّ العبرانيّ، بعد أن كان "حدد HADAD" إله العاصفة والخصب أهمّ الآلهة وأكثرها جاذبيّة بين الآلهة السوريّة في الحقبة الأموريّة. وبعد "إيل" يأتي "عليان" الذي أصبح كبعل له

مكان معيّن واعتُبر حاميًا لإحدى المدن، وكانت الأمطار والغلال تحت مراقبته. ولا علاقة لـ"عليان" بالكلمة العبريّة "عليون" أي الأعلى[1]. والأعياد كانت تُقام لإرضاء "عليان" والتقدمات تُعطى لاستعطافه. والذبيحة أو التقدمة كانت بجوهرها احتفالاً يشترك فيه العابد والمعبود أو حفلة اشتراك. ولعدم وجود أيّ صورة محفورة كانوا يرمزون إلى الإله بعمود و حجارة. وهناك الإله "ملخ MOLOCH" أو MOLESH"[2] الذي كانت تُقدّم له الأولاد كضحايا، وكان يُعتبر أنّه نفس "ملقارت" أي سيّد المدينة، مدينة صور. وحوادث دفن الأولاد الصغار في الجرار، كما اكتُشف في المعابد، تثبّت مرويّات التوراة عن عادة تضحية الأولاد[3].

كانت رفيقة "إيل" تُسمّى "عاشرة ASHERA" أو "عاترة ATHIRAT" في أوغاريت. وكانت توجد إلهة أخرى اسمها "عشتارت ASHTART" في أوغاريت وتلّ العمارنة، وهي عشتار عند الأشوريّين البابليّين. وقد كانت عشتارت الإلهة الأمّ. وسمّاها العبرانيّون "عشتوريت ASHTORETH" وجمعها "عشتاروت ASHTAROTH"[4] واليونان "آستارت ASTARTE". واقتبسها اليونان وأُدمجت بأفروديت فأصبحت أشهر آلهات الخصب كما سبق وذكرنا. وصارت، باعتبارها بعلة أو سيّدة، متّصلة بمكان معيّن، وأصبحت حامية المدينة. ومن هذه الحاميات بعلة جبيل كما جاء أعلاه. وكان اسم عشتار هو الذي تتسمّى به الآلهات المحليّة المقرونة بالـ"بعليم" في الأماكن المرتفعة الكنعانيّة التي كان لها تأثيرها وجاذبيّتها الخاصّة بالنسبة لعقول العبرانيّين كما يظهر، حتّى أنّ الأنبياء

---

١ - سفر التكوين، ١٤: ١٨.

٢ - سفر اللاويّين، ١٨: ٢١؛ سفر الملوك الثاني، ٢٣: ١٠.

٣ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١: ١٢٧ - ١٢٨.

٤ - أنظر: سفر الملوك الأول، ١١: ٥، ٣٣؛ الملوك الثاني، ٢٣: ١٣. ويرد هذا الإسم في العربيّة الجنوبيّة بشكل عثّتار من فعل "روى واغتنى" ويُطلق على إله مذكّر. وهذا الإسم الإلهيّ عامّ عند جميع الشعوب الساميّة.

اضطرّوا لمهاجمتها مرارًا[١]. وقد كُرّس أيلول "سبتمبر" وهو الشهر السادس الساميّ الذي يقع في نهاية الصيف للإلهة عشتار، لأنّه في هذا الشهر وبفضل قوّتها، كانت تنضج الحياة النباتيّة التي يمثّلها الإله تمّوز. وبالإضافة إلى لقب "بعلة" فقد كانت عشتار تُلقَّب "ملكة" أيضًا، وهذا يذكّرنا "بملكة السماء"[٢]. وهنالك كتابة أثريّة عصريّة اكتُشفت في بيت شان من القرن الثالث عشر تسمّي الإلهة "عنات" "سيّدة السماء". وتظهر "عنات" في لوح من أوغاريت كشقيقة "عليان بعل"، وتُعطى لقب العذراء. وقد بقي اسمها في "بيت عنات"[٣]، و"بيت عنوت" في شماليّ الخليل[٤]، و"عناتوت"[٥] التي تسمّى اليوم "عَناتا" في شمال شرقيّ القدس. وهناك في إقليم الخرّوب من قضاء الشوف في جبل لبنان بلدة إسمها "عانوت" تحتفظ ببقايا أثريّة كنعانيّة. وكانت الإلهة "عنات ـ عشتار" تهب الحياة وتبيدها. ومن أوصافها البارزة أيضًا الحبّ والحرب. وكان "رشف"[٦] أي اللهيب، في نفس الوقت، إله الموت والخصب[٧].

وكان من آلهة صيدون الإله "أشمون" إله الشفاء وشفيع صيدا، وهو ملك صيدا "أشمون عزر" الذي يعني اسمه "أشمون يساعد". وكان أشمون أهمّ إله مذكّر لمدينة صيدا وبالأصل كان إله النبات، ولا يزال اسمه باقيًا في خرائب "قبر شمون" جنوب شرقيّ بيروت. أمّا والده "تبنيت" فلا يزال حيًّا في اسم قرية تُسمّى "كفرتبنيت" جنوب شرقيّ صيدا وهي تقابل "تبني TIBNI" العبرانيّة[٨]. ونجد اليوم بقايا هيكل أشمون العظيم

---

١ ـ سفر القضاة، ٢: ١٣؛ إرميا، ٣٢: ٣٥؛ الملوك الثاني، ٢٣: ١٣؛ صموئيل الأول، ٧: ٣ ـ ٤.

٢ ـ سفر إرميا، ٧: ١٨؛ ٤٤: ١٧ ـ ١٩، ٢٥.

٣ ـ سفر يشوع، ١٩: ٣٥، وهي اليوم "البَعنة" شرقيّ عكّار.

٤ ـ يشوع، ١٥: ٥٩ وتُسمّى إليو "بيت عينون".

٥ ـ أخبار الأيّام الأول، ٦: ٦٠.

٦ ـ يرد هذا الإسم كاسم علم في أخبار الأيّام الأول، ٧: ٢٥.

٧ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١: ١٢٨ ـ ١٢٩.

٨ ـ سفر الملوك الأول، ١٦: ٢١.

في البستان المعروف ببستان الشيخ على منعطف ربوة فوق وادي الأوّلي قريبًا من مصبّ هذا النهر. وكان هذا الهيكل يتألّف من سور بشكل مستطيل بُني من حجارة ضخمة محكمة الوضع، يبلغ طوله من الشرق إلى الغرب نحو ٦٠ مترًا وعرضه من الشمال إلى الجنوب نحو ٤٤ مترًا، وهذا السور كان يُدعى الحرم كما نرى في أكثر معابد الساميّين، وفي الوسط كان "المقدس" أو "مقام الآلهة"، وحوله ساحة متّسعة. وقد أُجريت حفريّات في هيكل أشمون حوالي سنة ١٩٠٠ قام بها "مكريدي بك" مع مهندسين من البعثة الألمانيّة التي كانت تشتغل في هياكل بعلبك، وقد أدّت الحفريات إلى نتائج على غاية من الأهميّة، إذ وُجد على حجارة المعبد نقوش فينيقيّة ذات فائدة كبيرة لتاريخ فينيقية. ومن غريب الأمور أنّ هذه النقوش أو الكتابات لم تكن على وجه الحجارة الظاهرة بل على وجهها الخفيّ الواقع فوق الحجارة السفلى بحيث لم يمكن الإطّلاع عليها ممكنًا إلاّ بنقض الحجارة والفصل بينها. وهذه النقوش الموزّعة اليوم بين متاحف أوروبّا والآستانة، تذكر الملك "بد عشترت" ملك الصيداويّين حفيد "أشمون عزر" وباني هذا الهيكل لإلهه "أشمون الأقدس"، وتعدّد أيضًا بعض أقسام صيدون القديمة. فهي إذن على غاية الخطورة من الناحيتَين التاريخيّة والأثريّة. والمظنون أنّ خراب هذا الهيكل قد جرى على يد "أرتحششتا" الثالث الملقّب بـ"أوخوس" سنة ٣٤٨ ق.م، عندما ثارت صيدون بقيادة ملكها تنّيس على العاهل الفارسيّ. وكان من نتيجة ذلك حريق هذه المدينة الفينيقيّة العظيمة. وقد باشرت مديريّة الآثار الحفريات في هذا المكان للكشف عن بقايا المعبد حيث برزت نقوش قليلة النتوء تمثّل ديكًا على علاقة وثيقة بآخر كلمات سقراط الذي أوصى تلاميذه التضحية بأحد الديوك في "أسكليبيوس"، أي "أشمون" باللغة اليونانيّة. وبين بعض التماثيل التي تمثّل أولادًا يُطلق عليهم "صبيان المعبد" وُجدت كتابة ملكيّة استشفائيّة. وثمّة "عرش فارغ" ينتصب بين تمثالَين لأبي

الهول لا يزال في مكانه. وقد كان المعبد مزوّدًا بمنبر شُيّد على الأرجح في القرن السادس، بأمر من "بوداشنار" ووليّ العهد "ياتونميلك"، حيث نوّهت الكتابات بذكرهما[1].

وهناك إله آخر عبدته بيروت. ويعتبر أكثر المؤرخين أنّ الجبيليّين هم الذين بنوا بيروت بعد مدينتهم جبيل، ونسبوا بناءها إلى إلههم "إيل" وذلك بالاستناد إلى كلام سنكنيتن ونِنّوس وغيرهما من المؤرّخين القدماء. ويقول الأب لويس شيخو إنّ بيروت كانت أحد المراكز لعبادة البعل، وهو الإله إيل نفسه، يتزاحم فيها الأهلون لتأدية فروضات دينهم لهذا الإله في هيكل عظيم شيّدوه على اسمه. وبنوا له هيكلاً آخر فوق مدينتهم على مسافة خمسة أميال منها كانوا يحجّون إليه زرافات، ولا تزال آثار هذا المقام إلى يومنا بجوار قرية بيت مري وهي تُعرف بدير القلعة[2]. أمّا هذا الإله فقد تحوّل في ما بعد إلى "بعل مرقد"، وفي تفسير معنى الإسم فإنّ "بعل" تعني الإله، و"مرقد" كلمة فينيقيّة معناها "هز"، أو "زعزع"، أو "زحزح"، أو "ركز"، وهو الأقرب إلى معنى "رقد" أو "ركد" في العربيّة. أمّا الميم في "مرقد" فهي لإعطاء الفعل صيغة الفاعل. ومثل هذه التسمية كانت تُمنح للآلهة، فقد جاء في سفر أيّوب، فصل ٩: ٥ و٦، قوله عن الله: "الذي يزحزح الجبال ولا تعلم وفي غضبه يركسها، ويزلزل الأرض من أساسها فترتجف". وفي الآراميّة "رقد" معناها "رقص"، أي أنّه "إله الرقص والطرب"، ومن ألقابه أيضًا "إله الخمر" و"ملك المآدب"، وعُثر على لوحات نُقشت عليها هذه التسمية[3]. ولا تزال آثار معبد "بعل مرقد" في دير القلعة الذي يقوم على تلّة مشرفة على بيروت بجوار بيت مري، وكان هذا المكان يُعرف بـ"بيروت العتيقة".

---

١ ـ رومانوس تريز، "أوريزون الديار"، عدد ٢١ شباط ١٩٩٩، ص ٨، عن مجلّة ARCHEOLOGIA الفرنسيّة، عدد ١٠.

٢ ـ راجع: مفرّج طوني، قرى ومدن لبنان، منشورات دار نوبليس (بيروت،٢٠٠٢) ٦: ١١ ـ ١٢.

٣ ـ على مقربة من الدير، كنيسة على اسم مار ساسين، يحتفل الناس فيها بعيده الواقع في ١٥ أيلول(سبتمبر)، فتجتمع في المكان ألوف الخلائق، ويحيون حفلات صاخبة كأنّ فيها بعض من امتداد الحفلات التي كانت تُقام في المكان نفسه أيّام عبادة هذا الإله.

واعتبر الرومان في منتصف القرن الأول ق.م. "بعل مرقد" بمثابة إلههم ومعبودهم الكبير "جوبيتير". وكانت المرتبة الثانية بعد "بعل مرقد" لإلهتهم "جونو" وهي نفسها عشتروت، فشيّدوا المعبد الكبير على قمّة بيت مري على اسم "بعل مرقد - جوبيتير" ولا تزال بقاياه ظاهرة إلى اليوم. وكان هذا المعبد مبنيًّا بحجارة ضخمة متساوية الحجم، ترتكز إلى أساسات صخريّة، شيّد الرهبان الأنطونيّون الموارنة على جانب من جداره كنيسة مار يوحنّا التي تقوم أمامها بقايا القلعة المحيطة بالمعبد، وقوامها تيجان وقواعد وأجزاء أعمدة ومصطبة صخريّة، وقد سلم من الزلزال عمودان كبيران ما زالا قائمَين أمام بوّابة الكنيسة، وعمود ثالث بُني حوله جدار الدير. هذه الأعمدة قام عليها هيكل "بيرث" أحد الآلهة الفينيقيّين. وقيل إنّ ارتفاع أعمدة القلعة كان نحو خمسة عشر مترًا. وعلى مسافة قريبة من "بعل مرقود" اكتُشف معبد "جونو" الذي شيّده الرومان في القرن الأول ميلاديّ، ومؤخّرًا خضع لعمليّة ترميم ما أمكن من حجارته المهدّمة، فأُعيد بناء بوّابة المدخل والأدراج المؤدّية إليه من الداخل، حيث وُجدت أمامه مصطبة حجريّة كانت تُنحر عليها الذبائح المقدّمة للإله "جونو"، وهذا ما يُستدلّ عليه من القناة المحفورة في جانب المصطبة. وقد وُجد في المكان نصب حُفر عليه اسم "جونو"، وعُثر فوق المدخل على عبارة "تراجان قيصر رومانيّ"[1].

الهَياكل والنُصُب والأصنَـــــــــام

إنّ كلمة "هيكل" مستعارة من السومريّة "هيكلو" HEKALLU أي بيت أو قصر، وقد بقيت في كلمة "هيكل" العربيّة. وكانت الفكرة الأساسيّة في بناء الهيكل تزويد الآلهة

---

١ - راجع: مفرّج طوني، قرى ودن لبنان، ١١: ٢٠٨ - ٢١٠.

بمسكن لها. فهنا كان الإله يسكن كما يسكن أيّ كائن بشريّ في بيته الخاصّ. وبواسطة الهيكل كان يُتاح مجال للاتّصال بين الإله والبشر بحيث يتمكّن الكائن البشريّ من تأسيس علاقات شخصيّة مع الكائن الإلهيّ. وأقدم الهياكل الكنعانيّة المكتشفة ترجع إلى مطلع الألف الثالث وكانت في أريحا ومجدو. وكان هذا النموذج القديم يتألّف من غرفة واحدة لها باب على الجانب الطويل من البناء. ويصبح البناء متكاملاً أكثر بعد منتصف الألف الثاني. وأهمّ صفات هذا الهيكل، كما ظهرت في "جزر" و"بيت شان" وهي بيسان الحاليّة[1]. وأوغاريت وغيرها من الأماكن، كانت المذبح الصخريّ والنصب المقدّس والعمود المقدّس والغرف تحت الأرض، وكان المذبح الذي تُقدَّم عليه الذبيحة أهمّ هذه التجهيزات بدون شكّ. والنصب أو الحجر المقدّس كان يمثّل الإله المذكور وربّما كان لأصله علاقة بعضو التناسل. وبجانبه كان العمود المقدّس أو الشجرة المقدّسة "أشيراء ASHERãH" وجمعها "أشيريم"[2]، وكانت تمثّل النبات الدائم الخضرة التي تسكنه آلهة الخصب. ولا يزال المسلمون والمسيحيّون والدروز في سورية ولبنان وفلسطين إلى اليوم يؤدّون واجب الاحترام للأشجار، وهي عادة من البلّوط أو الصنوبر التي تنمو قرب ينبوع أو قرب قبر أحد الأولياء أو القدّيسين. وتشاهد اليوم قطع الثياب مربوطة بشجرة مقدّسة عند أفقا حيث ينبع نهر ابراهيم. وفي "بيت شان" كان هذا العمود يقوم في مدخل الحرم الداخليّ. والغرف الكائنة تحت الأرض كانت غالبًا تُستخدم لتلقّي النبوءات. وكانت الأواني المستخدمة في إراقة السوائل والمزخرفة بالحيّات وطاسات

---

١ - أنظر: ROWE ALAN, *THE TOPOGRAPHY AND HISTORY OF BETH - SHAN* (PHILADELPHIA,1930); *THE FOUR CANAANITE TEMPLES OF BETH - SHAN*, (PHILADELPHIA,1940).

٢ - تُرجمت بكلمة "سواري" في: سفر الملوك الأول، ١٦: ٣٣؛ الملوك الثاني، ٢٣: ٦ - ٧؛ أشعيا، ٢٧: ٩؛ وقد حرّمت في سفر التثنية، ١٢: ٣؛ ١٦: ٢١.

البخور والمباخر التي وُجدت، تشير إلى الأعمال التي استُخدمت لأجلها هذه الأشياء[1]، وتفيد بقايا المعبد التي كانت لها مصاطب يغسل عليها العابدون أقدامهم قبل الصلاة، أنّ الوضوء لم يكن مجهولاً عند الكنعانيين. والمباخر الكنعانيّة اقتبسها اليونان والإتروسك. وفي بيت شان كان يقوم مكان مرتفع في مؤخّرة المعبد حيث كان يوضع غالبًا تمثال الإله ويدلّ على بدء المكان المعرف بـ "قدس الأقداس".

فيما سوى الهياكل في المراكز الحضريّة فإنّه كان للكنعانيّين أماكن مقدّسة محليّة معظمها مزارات في الهواء الطلق على رؤوس التلال. تلك كانت "الأماكن المرتفعة" التي كان يهاجمها كتاب العهد القديم[2] بصورة متكرّرة. وفي كثير من الأحيان لم يكن المكان المقدّس غالبًا سوى مذبح مع ما يلازمه من حجر مقدّس. وفي "المكان المرتفع" المشهور في "جزر" وُجدت بقايا أولاد قُدّموا كضحايا ودُفنوا في جرار وُضعت تحت أرض المنزل. وفي العصر النيوليتيّ كانت هذه الجرار تحتوى الموتى من دون أن يُحرقوا وإنّما بشكل منحنٍ. وقد وُجد مثلها في مناطق بعيدة في الشمال مثل أوغاريت وكذلك في كركميش أو جرابلس في عصر متأخّر. والساميّون الذين كانوا أموريّين، وحلّوا في جزر محلّ السكّان الأقدمين، كانوا يضحّون بأوّل مولود وكذلك قاموا بالتضحية عند تأسيس الأماكن وبنوا الأماكن المرتفعة للعبادة من الصخور الكبرى. ومن أقدم الإشارات إلى التضحية عند التأسيس إشارة واردة في شعر سومريّ يذكر أنّ الأموريّ كان يبني باحة معبده "على رجل ميت". وقد تابع الكنعانيّون النظم والعادات الدينيّة التي كان يتبعها أبناء جنسهم الأموريّون الذين أتوا قبلهم. وكانت العادة أن يُدفن الأولاد بعد تضحيتهم في جرار دقيقة في نهايتها حيث تُدخَل رؤوسهم أوّلاً.

---

١ ـ لأجل رسوم هذه الأشياء أنظر: ROWE, THE FOUR CANAANITE TEMPLES الألواح: ٢٢: ٢٠؛ ٤١: ٣؛ ٥٧: ٣، ٤؛ ٧٠: ٥.

٢ ـ سفر الملوك الأول، ١٣: ٢؛ إرميا، ٣٢: ٣٥؛ هوشع، ١٠: ٨.

وفي أريحا وغيرها من المواقع كانت توضع الجرار تحت أرض المنزل. وحتّى في أيّام العبرانيّين كانوا يتبعون عادة دفن الأولاد في تلك المدينة عند تأسيس المباني الجديدة[1]. وممارسة أسلاف العبرانيين، كسائر الساميّين، لهذه العادة يمكن استنتاجها من قصّة إبراهيم الذي شعر بدافع لتضحية ابنه اسحَق وقصّة ميشا ملك مؤاب الذي ضحّى بالفعل ابنه الأكبر[2].

أمّا أصل كلمة "نصب" فمن "مَصّبَه MASSEBāH" وجمعها مصبوت، من جذر "نَصَب" الساميّ المشترك، وتُترجم بكلمة "تمثال" أو عمود[3]. وقد اكتفى الكنعانيّون عامّة بالنصب والعمود المقدّسَين واستغنوا بهما عن ضرورة صنع الأصنام. والصور والتماثيل الصغيرة البرونزيّة التي تمثّل الإله بعل واقفًا يلوّح بالصاعقة بيده اليمنى المرفوعة، كانت شائعة. والإلهة كانت عادة تمثّل عارية ويداها على جانبَيها أو تمسكان بثدييها كما لو كانت تعطي الغذاء. وقد وُجدت تماثيل صغيرة متعدّدة من هذا النوع مصنوعة من المعدن أو الطين. ولكنّها كلّها تبدو أنّها كانت تُستخدم في المنازل وليس في الهياكل. وكانت تُحترم بسبب قدرتها السحريّة. وكان المتعبّد المتعلّم يعتبر التمثال مسكن الآلهة، أمّا العاميّ فربّما اعتبر أنّ التمثال نفسه هو الآلهة. وكانوا يمثّلون الإلهة السوريّة "أتارغاتس" عادة في أواخر الألف الثاني، بشكل امرأة عارية أيضًا ترفع إحدى يديها ممسكة بساق نبات الزنبق أو بالحيّات. وهنالك إلهة سوريّة أخرى هي "قادش" التي تتّخذ أيضًا شكل امرأة عارية واقفة على أسد. وكان الأسد أو الثور رمزًا للحيويّة والقوّة. أمّا سبب اتّخاذ الحيّة رمزًا للخصب فغير واضح. وقد يكون ذلك

---

١ ـ سفر الملوك الأوّل، ١٦: ٣٤.

٢ ـ التكوين، ٢٢: ١ ـ ٣؛ الملوك الثاني، ٣: ٢٧؛ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١: ٢٦، ٨٤، ١٢٩ ـ ١٣٠، ١٣٣ ـ ١٣٤.

٣ ـ راجع: هوشع، ٣: ٤؛ الملوك الثاني، ١٠: ٢٧؛ التكوين، ٣٥: ١٤؛ صموئيل، ١٨: ١٨.

لأنّها كانت تعيش في أحشاء الأرض. ولا شكّ في أنّ الأقدمين كانوا يُعجبون بقدرتها الفائقة على طرح جلدها وتجديد جسمها كلّ سنة وعلى إصابة مَن تعضّه بالموت المباشر. وقد يتردّد الفلاّح السوريّ، حتّى اليوم، في قتل حيّة سوداء إذا وجدها في منزله على أساس أنّها قد تكون حاميته. وكانت عبادة الحيّة شائعة في مصر القديمة وكريت وغيرها من بلاد الشرق. و"بيت شان"، التي كان التأثير المصريّ ظاهرًا في هياكلها الأربعة المكتشفة، كانت من مراكز عبادة الحيّة. وقد كُرّس أقدم هذه الهياكل إلى "ميكال سيّد بيت شان" من عهد تحوتمس الثالث (١٥٠١ ـ ١٤٤٧ ق.م). و"ميكال" الذي قد يكون اسمه متّصلاً بمُلخ كان أحد أشكال "رشف" إله الكنعانيّين والأموريّين. وقد اكتُشفت طاسة مزخرفة بحيّة في قسمها الخارجيّ في هذا المعبد[١].

عَادات

الدّفن

كان الوضع الأنسب لجثّة الميت عند دفنها في منتصف الألف الثاني، أن تكون ممدّدة على ظهرها وأن يكون اتّجاه الرأس نحو الشمال. وكانوا كثيرًا ما يدفنون مع الجثّة مصباحًا وجرّة وصحنًا كبيرًا وغير ذلك من أواني الطعام والشراب، ما يشهد بوجود اعتقاد غامض أنّ الميت يمكن أن يروقه نوع من المعيشة على الطراز المألوف في هذه الحياة الدنيا. وكانوا يدفنون النساء ومعهنّ حبّات الخرز وسائر نواحي زينتهنّ، كما أنّ الرجال كانوا يُدفنون بسلاحهم. وتابوت الملك أحيرام الحجريّ الضخم المزخرف بموكب جنائزيّ حيث تظهر النساء الباكيات والخدم الذين يحملون الهدايا، يشير إلى رغبة في حفظ الجسم. والتحنيط لم يُمارس إلاّ بالنسبة لبعض ملوك كنعانيّين

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١: ١٣١ ـ ١٣٢.

تحت النفوذ المصريّ. وهنالك تأثير مصريّ آخر يظهر في الدفن عند الفينيقيّين وهو وجود التوابيت ذات الشكل البشريّ. وقد اكتُشفت توابيت كثيرة من هذا النوع يظهر فيها رأس بشريّ وأحيانًا متّكئ بكامله على الغطاء، ترجع إلى ما بين القرن السادس والثالث قبل الميلاد. ومن أجملها تابوت "أشمون عَزَر" ابن "تبنيت" ملك "مدينتَي صيدا" كما يسمّي نفسه، وكان يحكم بعد فتح الإسكندر بنحو نصف قرن. وعلى غطاء التابوت كتابة من أطول الكتابات الأثريّة المعروفة. ويعتبر ناووسا "أشمون عَزَر" ووالده "تبنيت" من أهمّ مكتشفات صيدا الأثريّة، أمّا ناووس تبنيت فموجود اليوم في اسطنبول، أمّا ناووس "أشمون عَزَر" الذي تمّ اكتشافه سنة ١٨٥٥ في مغارة "طبلون" بسعي من "نابوليون أنطوان بيريتييه" الذي كان يشغل حينذاك منصب قنصل فرنسا، قبل أن يرسله على متن فرقاطة إلى متحف اللوفر، فعليه كتابة جنائزيّة فينيقيّة تكسو جوانبه، وتتألّف من ٢٢ سطرًا وهي الأطول حتّى الآن، وتأتي على سيرة الملك الذي توفّي شابًا، مذكّرة بالمعابد التي شيّدها مع الملكة الأمّ من أجل آلهة صيدون، وتتطرّق إلى الهبة التي قدّمها الأمبراطور الفارسيّ لصيدون والمتمثّلة بالمدينتَين "دور" و"يافا". وهناك ذكر للأسطول الصيدونيّ الذي وُضع بتصرّف الفرس في حوض البحر الأبيض المتوسّط خلال الحروب التي كان يشنّونها. والفكرة الأساسيّة الواردة في هذه النقوش هي الفكرة المعتادة بمنع إزعاج الميت وذلك بطريقة اللعنات من جهة وبالتأكيد، من جهة أخرى، على أنّه لا توجد كنوز ثمينة مدفونة مع الجثّة[1]. وقد كان المصريّون أوّل شعب أجنبيّ تسلّط على فينيقية، وآخر مَن فعل ذلك قبل فتوح الإسكندر هم الفرس[2].

---

١ - COOKE, PP. 30 - 40.

٢ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١: ١٣٤ ـ ١٣٥.

الفَصلُ السَّادِس

دِيَانَةُ الآرَامِيِّين

آلهة الآراميّين؛

آلهـــة مستَعارة؛

التوحيد .

آلهة الآراميّين

تبدأ الآلهة القديمة الأولى للآراميّين بالإلهة الآراميّة الأمّ، واسمها السومريّ "أم" يعني "الريح" أو "الهواء"، والتي لم يؤتَ على ذكرها عند الآراميّين، إنّما أشارت إليها قطعة أثريّة سومريّة عُثر عليها في تلّ العبيد تعود إلى الألف الرابع قبل الميلاد تدلّ على أنّها إلهة الريح القاسية التي يُطلق عليها "أم دوجد" إلهة الريح القاسية التي تظهر دائمًا على شكل طائر ضخم. وتمثّل الإلهة الآراميّة "أم" برأس لبوة وبجسد نسر أو "رخمة" وهي أنثى النسر، تضع مخالبها على "إيلين". ولا شكّ في أنّ هذا يدلّ على السرعة والحركة. وهكذا تكون رموزها هنا تشير إلى الريح والهواء. أمّا اللبوة فتشير إلى أنوثتها المصحوبة بالقوّة، إضافة إلى أنّ اللبوة والأسد أصبحا يشيران إلى الألوهة المؤنّثة التي ارتبطت لاحقًا بعشتار. ويرى "أذزارد" أنّ "أمدوكد" تشير إلى شكلٍ من أشكال إله الطقس في الأصل. وتطالعنا المنحوتات منذ عصر "جمدت نصر" محلّقة فوق زرائب الحيوانات الأهليّة أو ضاربة إيّاها بمخالبها الحادّة، وهنا تجسّد "أمدوكد" قوى الشرّ التي تهدّد حياة الحيوانات الأنيسة[1]. ورأى باحثون[2] أنّ "أم" هي الإلهة الآراميّة القديمة الأولى، وأنّ لها أسطورة في الخليقة قد تشابه أسطورة "تيمات" السومريّة، لكنّ بطل هذه الأسطورة هو الإله "حد" أو "أدد" وهو الإله الآراميّ الذكر الذي قضى على الإلهة الأمّ.

---

١ ـ د. أذزارد وجماعته، قاموس الآلهة والأساطير، ترجمة محمّد وحيد خياطة، مكتبة سومر (السليمانيّة ـ حلب، ١٩٨٧) ص٥١.

٢ ـ الماجدي خزعل، المعتقدات الآراميّة، الكتاب الرابع من سلسلة التراث الروحيّ للإنسان، دار الشروق، (عمّان ٢,٠٠٠)، ص ٥٤.

ويبدو أنّ الآراميّين القدامى الذين ظهروا منذ منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، قد استقرّوا على عبادة إله واحد، ولم يكونوا يعرفون سواه، وهو الإله "حدد". وهذا يعني أنّ الآراميّين هم أصحاب نزعة التوحيد الأوائل، إذ لم يكن التوحيد عندهم أحد المعتقدات، إضافة إلى "التفريد" و"التعدّد" كما هو الحال عند السومريّين والأكاديّين والبابليّين والآشوريّين في العراق القديم، أو الأموريّين والكنعانيّين في سوريا ومحيطها، بل كان هو العقيدة الأساسيّة بعد أن نُسيت أو أُهملت قصّة الخليقة الأسطوريّة التي كانت "أم" مركزها. لكنّ هذا التوحيد لم يبقَ طوال تاريخ الآراميّين صامدًا أو نقيًّا دون أن تشوبه عقائد التعدّد والتفريد، وخصوصًا بعد أن احتكّ الآراميّون بالأقوام المجاورة كالآشوريّين والحوريّين والحيثيّين والبابليّين والكنعانيّين. رغم ذلك، فقد بقي الإله "حدد" هو الإله العظيم للآراميّين، بعد أن كان الإله الأوحد، ولم يتنحَّ عن مركزيّته وسط دوائر الآلهة الجديدة المحيطة به، ولم يصرعه إله أعداء أو أصدقاء، بل ظلّ قويًّا واخترق أكثر من ألفَين ونصف الألف من السنوات.

يرى باحثون[1] أنّ إسم الإله "حدد" في الآراميّة، يقابله في العربيّة: "أحد"، "واحد"، "وحد". فكلمة "حد" الآراميّة تعني الواحد الأحد. وهذا أوّل ما يدعو لاعتبار الإله "حدد" هو الإله الواحد الأحد للآراميّين في زمنهم الغابر. غير أنّ الإله السومري "إشكور"، وهو إله العواصف والبروق والرياح، كان يُسمّى بالأكاديّة "أدد"، وكان يُعتبر إبنًا للإله "آن" إله السماء. وكان "أدد" يوصف بأنّه يرعد في السماء، وعندما يقوم تعصف الريح.

وفي أسطورة الطوفان البابليّة يظهر "أدد" الإله الراعد في المقدّمة، ويعاونه إلهان مساعدان هما "شولاّت" و"خانيش" الإلهان التوأمان اللذان يحملان العروش الإلهيّة، قبل الشروع بالمطر والطوفان:

---

١ ـ الماجدي خزعل، المعتقدات الآراميّة، مرجع سابق، ص ٥٧ ـ ٥٨.

وإذا بغمامة دكناء تصعد الأفق، وداخلها لم يكفّ أدد عن الرعد، في المقدّمة، كان الإلهان شولاّت وخانيش يسيران، يتقدّم حاملاً العروش، في الجبال والسهول، ونزع نركَال عارضات السدود الإلهيّة، وتقدّم نينورتا الذي يهدم سدود السماء، ورفع الآلهة الأنوناكي المشاعل، وجعلوا الأرض تلتهب بوهج أنوارها... إجتاز صمت أدد الرهيب عبر السماء، وأحال إلى الظلمات كلّ ما كان نيّرًا، وتحطّمت أركان الأرض مثل جرّة، هبّت العاصفة يومًا كاملاً، وعصفت بجنون وأثارت الفيضان[1].

هذه هي صورة "أدد" الأكاديّة، فهو إله راعد عاصف مدمّر تولّى أمر تنفيذ الطوفان وهلاك البشريّة. .

ويرى الباحث[2] أنّ رمز الإله "إشكر" السومريّ كان الصاعقة التي تشبه الشوكة الثلاثيّة المزدوجة وذات البروق الستّة التي تشبه أغصانًا أو أصابع متموّجة، وقد أصبح هذا رمز "أدد" ثمّ رمز "حدد". ويمكن تفسير الرقم السريّ للإله "أدد" بالرقم (٦) من هذه الأصابع البرقيّة للصاعقة، والملاحظ أنّ الرقم (٦) هذا هو أصغر رقم رمزيّ للآلهة السومريّة والأكاديّة، كما أنّه يعود بالذاكرة العدديّة إلى الرقم (٦٠) وهو رمز أعظم الآلهة وأكبرها وهو الإله "آن" إله السماء. لذلك يمكن القول بوجود علاقة بين إله السماء "آن" والإله "أدد"، فإذا كان قد وُصف بأنّه ابنه فلربّما كان أيضًا بديله القادم أو شكله المتجدّد، ومن هذه النقطة يمكن النظر لواحديّة الإله "أدد" وفي ما بعد عند الآراميّين "حدد". ويقول: لقد كانت الأساطير السومريّة تصف الإله "إشكر" الذي هو "أدد" بأنّه "القفل الفضيّ لقلب السماء"، وربّما يعني هذا مسؤوليّته عن غزارة الأمطار أو أنّه مركز السماء وأسرارها. وتطالعنا معلومة في اللغتَين السومريّة والأكاديّة أنّه

---

١ ـ لابات رينيه، المعتقدات الدينيّة في بلاد وادي الرافدين، ترجمة ألبير أبونا ود. وليد الجادر، وزارة التعليم العالي والبحث العلميّ، جامعة بغداد ـ كليّة الآداب وقسم الآثار (بغداد ١٩٨٨) ص٢٥٥.

٢ ـ الماجدي خزعل، المعتقدات الآراميّة، مرجع سابق، ص ٥٩ ـ ٦٠.

كان يُرمز عمومًا إلى إله الطقس بالإشارة المسماريّة "دنجر - إم" التي تعني الريح أو "إله الريح"، وتظهر الإشارة المسماريّة هذه في قوائم أسماء الآلهة من مدينة "فارا"، ويشرح نصّ سومريّ أحدث هذه الإشارة بالإسم: "و.إشكور"، ويُعرف باسمه الساميّ "أدد - أدّا - أدّو" في العصر الأكاديّ القديم، يقابله في اللغات الساميّة الأخرى "حدد" بالأوغارتيّ والآراميّ[1].

وتفتح هذه المعلومة مصراع بابَين: الأوّل: أنّ للإله "أدد" في أصوله القديمة علاقة بإله الريح "إم" وربّما كان نظيرًا له، والإله "إم" هو في حقيقته طائر الصاعقة الإله "إمدوكَد" الذي يوصف أحيانًا كإلهة أمّ ترى صغارها[2]، وكان طائر الصاعقة "زو" هو رمز الإله "تنكَرسو" أخ "تنورتا" وسلاحه، ويرسم على شكل أسد بجناحَي طائر أو لبوة بجناحَي طائر. وتعطينا كلّ هذه المدلولات إشارة إلى الجانب الأموميّ العاصف في شخصيّة "أدد". والثاني: أنّ كلمة "أدّو" و"أدّ" الساميّة تعني الإله الحامي في السومريّة "أودو" و"أودوج"، وتصوّر كعفاريت شرّيرة، لكنّها تُستخدم للحماية ودرء الأذى. أمّا "أدّ" فهو عفريت سومريّ ذكريّ يقابله في الأكاديّة "شيدو"، وهو شخصيّة حياديّة يغلب عليها طابع الخير، ثمّ أصبحت حامية للإنسان في العصر الذي تلا العصر البابليّ القديم[3]. وهذا يعني بالإجمال أنّ كلمة "أدد" التي هي مصدر كلمة "حدد" كانت تعني إلهًا سماويًّا إبنًا لـ"آن" أو بديلاً عنه، كما أنّه شمل كلّ ما تعنيه كلمة إله الريح في صيغته الذكريّة أو الأنوثيّة والإله الحامي، وجوهر النظام العشريّ والستّينيّ. وإنّ هذه الصفات، كما يبدو، هي التي رشّحت هذا الإله لأن يكون إلهًا مطلقًا واحدًا رأى فيه

١ ـ د. أنزارد وجماعته، قاموس الآلهة والأساطير، ص ٤٤.

٢ ـ راجع: الماجدي خزعل، متون سومر (التأريخ ـ الميثولوجيا ـ اللاهوت ـ الطقوس) منشورات الدار الأهليّة للنشر والتوزيع (عمّان،١٩٩٨) ص ٢٠٥.

٣ ـ المرجع السابق، ص ١١٧.

الآراميّون الأوائل الإلــه الواحد الأحد الـذي أصبـح فـي لغتهم القديمـة "حـدد". ويـرى الباحث أنّ كلمة "هدد" جاءت متأخّرة بعض الشيء لتمييز لفظ الإلـه، فقد كـانت "حـدد" تُكتب بالأبجديّة الآراميّـة ويمكـن أن تُلفظ "حـدد" أو "خـدد"، لأنّ علامـة الحرفييـن "ح" و"خ" واحدة، ولذلك أخذت شكلاً وسطًا بين الإسم الأكاديّ القديم "أدد" والإسـم الآرامـيّ القديم "حدد" وهنا دخل حرف الهاء في البداية. وقد ورد أنّ الإسم الشعبيّ للإلـه "حـدد" في العراق القديم هو ورِ" أو "مِر". ويرد هذا الإسم في قائمة الأسماء الإلهيّـة الآراميّـة لاحقًا بالخطّ المسماريّ بصيغة "إ - لو - مي - ير" أو الإله "مير وور" أيضًـا. ويبـدو أنّ "ور" ومر" من أسماء الإله "حدد" أو من ألقابه التي ظهرت قديمًا في العصور الأكاديّة، ثمّ أصبحت أسماء شعبيّة للإله عند الآراميّين في العراق القديم والشام القديمة معًا[1].

لقد نظّم السومريّون الريّ عندهم وصارت الأمطار ثانويّـة فـي حيـاتهم الزراعيّـة، الأمـر الـذي انعكس علـى دور "أدد" وأصبـح إلهًـا ثانويًّـا. لكـنّ الأكـاديّين والآراميّيــن والآشوريّين وجدوا فيه إلهًا عظيمًا وأساسيًّا، لأنّه يحمل قوّة الطبيعة الخيّرة والشـريرة، فإنّه إنْ أمطر كان خيرًا وإنْ عصــف ودمّـر وخـرّب أو حبـس المـاء فـي السـماء كـان شرّيرًا غاضبًا توجّب الخوف منه. ولقد عُبد الإله "أدد" في العـراق القديـم قـرب مدينـة "أور"، وفي "موروم" التي لم يُعرف مكانها بعد، والتي يدلّ اسمها على أنّها مدينة الإلـه "مر - ور". أمّا في بابل وفي آشور فقد عُبد الإله "أدد" كإله سماويّ عظيم، كان يشارك "آن" في معبد واحد. وهذا يشير إلى مكانته وإلى علاقته الخاصّة بالإله "آن". وبمـا أنّـه يصعب الحديث عن معابد آراميّة تعـود إلـى الألـف الثـالث أو الثـاني قبـل الميـلاد فـي العراق أو سورية، لذلك رجّح الباحث أنّ أوائل الآراميّين عبدوا هذا الإله فــي العـراء، وربّما كانت له حجارة كبيرة دالّة عليه، رمزًا لوحدانيّته وعدم وجود آلهة معه، لكنّه لم

---

١ - الماجدي خزعل، المعتقدات الآراميّة، مرجع سابق، ص ٦١.

يجزم بهذا. كذلك لا يمكن الحديث في هذه المرحلة عن أساطير آراميّة خاصّة بالإله "حدد"، لأنّ الكتابة الآراميّة ظهرت في وقت متأخّر وليس فيها ما يشير إلى مثل هذه الأساطير، بسبب ضياع ودمار أغلبها[1].

وقد حدّد الباحث العلاقة بين اسم الإله "حدد" واسم الآراميّين على الشكل التالي:

كلمة "إرم" تعني السموّ والعلوّ، وكذلك كلمة "روم" التي تعني رفع أو علّى. وبذلك تعبّر كلمة "آرام" عن السموّ والارتفاع والعلوّ، وأصلها الصوتيّ يتكوّن من "رم، رام، ارآم، إرم، روم". من هنا يمكننا القول إنّ الإله "مر" كان يعبّر عن "رم" وكذلك "ور". وهو الإسم الشعبيّ للإله "حدد". وتساءل: هل نستطيع أن نخرج باستنتاج جديد فنقول إنّ الآراميّين كان يعبدون أوّلاً الإله الذي تسمّوا باسمه "ارم"؟ ولكنّ هذا الإسم تحوّل، بمرور السنين، إلى "أر" و"ور" و"مر"، ولأنّ صفات هذا الإله كانت مطابقة لصفات الإله "أدد" أي العلوّ والعاصفة، والذي كان ذا جهاز لاهوتيّ مكتمل عند السومريّين والأكاديّين، وهم أكثر تحضّرًا من الآراميّين آنذاك، من حيث رموزه وشكله ووظائفه، لذلك طابق الآراميّون بين إلههم القديم "ور" أو "مر" و"حدد"، واحتفظت الذاكرة الشعبيّة للناس بالإسم القديم الدالّ على أصل الآراميّين أيضًا. ونجد في إسم أقدم موطن للآراميّين في عهد "ترام سين" وثيقة تتحدّث عن مدينتَي "سميرام" و"آرامي". ويضيف:

إذا كنّا قد عرفنا معنى آراميّ، فما الذي يمكن أن تعنيه مدينة "سميرام" التي نرى أنّها الموطن الأوّل للآراميّين، ومنها هاجروا وتوزّعوا في بلاد الرافدين والشام، ولا نرى أنّهم هاجروا من جزيرة العرب إلى بلاد الرافدين والشام. وهذه المدينة هي أصل مدينة "سامرّاء" الحاليّة التي ظهر فيها أجداد السومريّين قبل نزوحهم إلى جنوب العراق. وبناءً على ذلك يمكننا تحليل اسم "سميرام" من خلال اللغة الآراميّة نفسها

---

[1] ـ الماجدي خزعل، المعتقدات الآراميّة، مرجع سابق، ص ٦٢ ـ ٦٣.

فهو يعني أحد احتمالَين: الأول: "شم + رام"، أي "إسم رام"، ويعني اسم مكان مرتفع، وربّما كان جبلاً أو تلاً، وربّما كان يعني السماء لارتفاعها؛ لثاني: "شوم + رام"، أي "رفع رام"، وهو رافع المكان، أو رفع المكان. وربّما كانت "شم"، أو "شوم" تعني السماء وبذلك يكون "السماء المرتفعة". وفي كلّ الأحوال تدلّ السماء المرتفعة على الإله العالي الواحد "رام" الذي تحوّل إلى "مر" أو "ور" أو بالعكس.

وربّما استطاع هذا الاستنتاج أن يدلّنا على الأصل المشترك للعموريّين والآراميّين، فقد عبد العموريّون الإله "مارتو" الذي يمكن أن يكون له صلة بالإله "مر" أو مار" الآراميّ، وربّما كان إلهًا واحدًا، وحين ظهر العموريّون أوّلاً غرب الفرات على تخوم المدن السومريّة، ثمّ تحضّروا وكوّنوا مدنًا ما بين النهرين، بقي الآراميّون الذين تربطهم صلة جذور وتأخّروا في الظهور إلى زمن لاحق.

هذه الاستنتاجات وضعها الباحث في هذه المرحلة القديمة، على أمل أن تساهم في فكّ شفرة اللغز الآراميّ الأوّل وهو: مَن هم هؤلاء القوم؟ ويقول:

ربّما ألقت اللغة المصريّة القديمة ضوءًا على هذه الأسماء. ففي اللغة المصريّة تظهر لنا كلمة "م ر" مرتبطة بإلهة تحت اسم "مر سقرت" أو "مرت سقرت" التي تصوَّر عادة على شكل أفعى برأس امرأة أو أحيانًا على شكل عقرب برأس أنثى. وهي إلهة "جبّانات الموتى"، ومعنى اسمها "مُحبّة الصمت". ويرتبط "مر" أو "مرت" في المصريّة القديمة بجذور تفيد: الحبّ، والمحبّة، ويرى الدكتور علي فهمي خشيم[1] "أنّ كلمة "مر" هذه هي مقلوبة لما في العربيّة "رم" الأكاديّة الأصل: رامو RAMU وتعني حبّ / محبّة. ومن هذا الجذر الثنائيّ "رم" جاء الجذران الثلاثيّان "رام" و"روم"

---

١ ـ خشيم د. علي فهمي، آلهة مصر العربيّة، الدار الجماهيريّة للنشر والتوزيع والاعلان ودار الآفاق الجديدة (الدار البيضاء، ١٩٩٠) ص ٥٠٤.

ومنها: رام، يروم أي رغب، أحبّ، اشتهى. و"الرأم" تعني العطف والمحبّة، ومنها: أمّ رؤوم أي محبّة"، قد تأتي كلمة "مريت" بمعنى ربّة الفيضان. أمّا كلمة "ور" فتأتي في الميثولوجيا المصريّة لتعبّر عن طائر الخطّاف المقدّس، والذي عُبد كحيوان مقدّس في منطقة طيبة، وكانت إيزيس اتّخذت شكل الخطّاف لترفرف حول السارية التي تحمل نعش أوزيريس. وتشير الكلمة في القاموس الهيروغليفيّ إلى معنى: عظيم أو كبير، وتشير هذه الكلمة في القاموس العربيّ إلى المعنى نفسه، مثل "الواري: الضخم"، "وري: مكتنز" إلخ... أمّا في الأكاديّة فإنّ "آرو" تعني "حاكم" أو "يحكم"، ومنها اشتقّت كلمات أخرى مثل "مارو" و"أرتو" وتعنيان: "الحكم والسيادة والعظمة"، ومن كلمة "آرو" اشتقّت كلمة "إير" وهي كنية للإله السومريّ "إنليل" وتعني: "العظيم"، كما تعني: "الحاكم"[1]. وعندما دمج المصريّون القدماء الكلمتَين مع بعضهما نتج عنهما: "مر ــ ور MER - WR" التي تعني ميثولوجيًّا "العجل المعبود" الذي عرفه الإغريق باسم "منيفس MENEVIS"، وهو أحد العجول الكثيرة المقدّسة في مصر، وكان يُعبد في عين شمس ويمثّل بقرص الشمس وأفعى "اليواريوس" بين قرنَيه، وكان يُحسب باعتباره جزءًا من عبادة الشمس تجسيدًا للإله رع. أمّا المعنى الحرفيّ لكلمة "مر. ور" فهو "السيّد العظيم"[2]. وتقودنا هذه الجولة في معاني كلمتَي "مر" و"ور" إلى أنّهما تدلّان على العظمة والسموّ والمحبّة...، وتشير جذورهما الرمزيّة إلى الثور والطير، وهو بالضبط ما تلمّح له الميثولوجيا الآراميّة حيث أنّ "مر. ور" الإله القديم الذي سبق أو قابل الإله "حدد" يشير إلى الثور والطير معًا. وإذا كانت "ور" تشير إلى الأنوثة، فإنّ "مر" يشير إلى الذكورة، حيث تجتمع في هذا الإله صفات الذكورة والأنوثة وذلك لشموليّته[3].

---

١ ـ المرجع السابق، ص ٥٤٥. ٢ ـ المرجع السابق، ص٥٠٥.

٣ ـ الماجدي خزعل، المعتقدات الآراميّة، مرجع سابق، ص ٦٤ ـ ٦٥.

ولإكمال صورة هذا المشهد، يقول الباحث نفسه "إنّ الإله "مر" بقي محتفظًا باسمه في شمال وادي الرافدين حتّى القرون الميلاديّة الأولى عندما ظهر، بطريقة عجيبة، تحت اسم "مرن" إله مدينة "الحضر": "عربايا" الأوّل، وظهر معه ثالوثه المكوّن منه ومن ابنه "برمن" وزوجته "مرتن". وتبدو "الحضر" وكأنّها إحدى المدن الآراميّة التي احتضنت التراث الآراميّ، وكان خطّ الكتابة المستعمل فيها هو الخطّ الآراميّ.

لقد تمّت تصفية الإلهات الأمّ في كلّ أساطير الأمم القديمة التي عاشت في مناطق وادي الرافدين وسورية، وقد قضى "مردوخ" على "تيمات"، كما أنّ الإله "بعل" قد قضى على الإلهة الكنعانيّة الأمّ "يمّ"، وكذلك حلّ الإله "إنليل" السومريّ محلّ الإلهة السومريّة الأمّ "نمّو"[1].

وربّما كانت الصورة التي عُثر عليها منحوتة على أحد الجدران الآشوريّة، والتي تمثّل الإله "أد" الذي يمسك بصاعقتين مزدوجتين وهو يهاجم إلهة مجنّحة، تمثّل جانبًا من مشهد الصراع بين "أدد" و"أم". لذلك نختلف مع الذين رأوا بأنّها صراع بين "مردوخ" و"تيمات" لأنّ الأجنحة دلالة الريح، وهي ميّزة لكلّ من "أدد" إله البرق والصواعق و"أم" الإلهة الآراميّة الأمّ الأولى. وهكذا يمكننا تصوّر قصّة خليقة آراميّة يهاجم فيها "حد" أو "أدد" الإلهة الأمّ "أم"، ثمّ يشطرها إلى نصفين هما "أ" و"م"، اللذين يرتبط بهما عادة حرف "ر" الذي يدلّ على الأرض، وهكذا تتكوّن آلهة الأفق "أر - مر" ثمّ "مر - أر" الذي ينشطر نهائيًّا إلى الإله "مر" إله السماء، حيث أطلق الآراميّون لاحقًا اسم "بعل شماين" أي "سيّد السماء"، والإلهة "ور" التي هي إلهة الأرض، ووُجد اسمها بصيغة مؤنّثة هي "أرقوم" التي تقترب من كلمة "أرض" العربيّة. وفي مرحلة لاحقة

---

١ ـ الماجدي خزعل، الآلهة الكنعانيّة، منشورات دار أزمنة (عمّان،١٩٩٩).

سيأخذ الإله "حدد" مكان "مر" وسيتحوّل بشكل نهائيّ إلى الإلـه الذكوريّ الأكبر الأب، إله الفضاء والسماء والعواصف والأمطار. وستصبح مركزيّة "حدد" أكبر من أيّ إلـه ساميّ آخر عند قومه، ويكاد يصل إلى التوحيد حيث تنطفـى الآلهـة الأخرى أمامـه إلاّ زوجته المرافقة "عتر". وهكذا تأخذ "عتر" مكان أمّها "ور" وتبقـى فيهـا صفـة الطـيران التي ترمز إليها الحمامة أو الطائر أو الأجنحة.

ويخلص الباحث إلى القول: وهكذا ويبدو لنا أنّ التوحيد الآراميّ المتمثّل بـ"حد" قـد اتّخذ شكلاً متطرّفًا فعمد الآراميّون إلى إلغاء أو إخفاء أو محو كلّ الآلهة الأخرى التـي كانوا يتعبّدونها، ولم تبقَ إلاّ زاوية مبهمة تدلّ عليها[1].

إلاّ أنّ باحثين آخرين قد اعتبروا أنّ الإله الذي كان يوجّه الآراميّون أعظم اهتمـام لعبادته، وهو "حدد"، كان إله الزوابع والرعد، ويسمى أيضًا "أَدَد" و"أدّو ADDU"، وكإلـه للبرق والرعد كان "حدد" مفيدًا حين يرسل المطر الذي يخصب الأرض، وكان مضـرًّا حين يرسل السيول. ومن ألقابه "ريّمون" أي "الراعد". ويبدو أنّ الأكاديّين قد اسـتعاروا هذه الكلمة التي لا تتّصل بطريـق الاشـتقاق بكلمـة "رمّـون RAMMōN" أي الرمّـان، مـن المناطق الغربيّة. وكان الأشوريّون يلفظونها "رَمّان". وقد يكون إسـم "حـدد" اشـتقّ مـن فعل لا يزال في اللغة العربيّة وهو "هدّ" بمعنـى "كسـر وهـدم". وكـان نعمـان السـوريّ يسمّي إله سيّده ملك دمشق بلقب "ريّمون" أي "الراعد"[2]. وكان الإسمان يُسـتعملان معًـا فيُقال "حدد ريّمون". ويظهر في نحت بارز من زنجرلي حـاملاً الشـوكة ذات القضبـان الثلاثة والمطرقة رمز البرق والرعد. وفي ملاطية يبدو شكل منحوت واقفًا على ظهـر ثور وهذا رمز القوى المولّدة. وكان أهمّ معبد للإله "حدد" في "هيرابوليس" وهي "منبج"

---

١ ـ الماجدي خزعل، المعتقدات الآراميّة، مرجع سابق، ص ٥٤ ـ ٥٥.

٢ ـ سفر الملوك الثاني، ٥: ١٨.

على ضفاف العاصي في سورية. ولكن له معابد في مدن سوريّة أخرى كثيرة وفي لبنان. وكان محبوبًا بصورة خاصّة بين المزارعين، وامتزجت عبادته في ما بعد بعبادة الشمس، وزُخرف رأسه عند ذلك بالأشعّة كما في بعلبك. وفي الغالب يجب اعتبار "جوبيتير هليوبوليس" الذي عُبد في بعلبك معادلاً للإله "حدد"، وفي العصر الرومانيّ تبدّل اسمه فأصبح "جوبيتير الدمشقيّ "JUPITER DAMASCUS. وقد أمر "بنامو" الأوّل ابنه في الكتابة التي تركها على تمثال "حدد" أن يتلو العبارة الآتية عندما يقدّم الذبائح:

لتأكل روح بنامو مع حدد ولتشرب روحه مع حدد ولتفرغ بالتقدمة لحدد.

ويعطينا ذلك فكرة طريفة عن معتقد الآراميّين القدماء في الحياة الآخرة. وعُرف الآراميّون بعادة تسمية أبنائهم "بار حدد" أي "إبن حدد" أو إبن آلهة أخرى محبّبة لدَيهم. وبقيت هذه العادة شائعة في سورية حتّى العصر المسيحيّ وتلقي ضوءًا مفيدًا على العلاقة المفترضة بين الإله والذي يعبده[1].

وعبد الآراميّون رفيقة "حدد" أو "زوجته" وهي إلاهة تولّدت في "هيرابوليس" وفي مراكز ساميّة أخرى باسم "أتارغاتس ATARGATIS"، وهذا الشكل اليونانيّ للإسم مأخوذ من الآراميّة: "عتار ⊂ATAR " أي "عشتروت"، بالإضافة إلى الآراميّة "عتاه ⊂ATãH "، ولا علاقة لها بالإلهة الفريجيّة "آتيس ATTIS". وكانت عبادة عتار وعتاة بالأصل عبادتَين ساميّتَين مختلفتَين ثمّ اندمجتا. وكان اليونان والرومان يبسّطون الأمر فيسمّونها "الإلهة السوريّة". وقد أتانا وصف لعبادة "أتارغاتس" من العصر الكلاسيكيّ كتبه "لوكيانُس"، وهو سوريّ من سميساط وُلد حوالى سنة ١٢٥ ميلاديّة، وكان يكتب باليونانيّة. وصفات عبادتها كما كتب عنها لوكيانس هي صفات عبادة الإلهة الأمّ الساميّة. وفي النقود التي أتت من هيرابوليس نراها تلبس تاجًا ويصحبها أسد أحيانًا.

---

١ ـ حتّي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ١: ١٨٦ ـ ١٨٧.

ويتألّف رمزها من الهلال مع قرص الشمس. وكان لها معبد في "كرنيون CARNION" في جلعاد، وموقعها الحاليّ هو إمّا "تلّ عشترا" على أحد عشر ميلاً غربيّ درعا، أو "تلّ الأشعري" على أربعة أميال جنوبيّ تلّ عشترا وهذا أكثر احتمالاً. وكانت عسقلان في فلسطين مركزًا لعبادتها حيث اعتُبرت غالبًا معادلة لـ"أفروديت". كما كان لها معبد في فقرا من أعالي كسروان في لبنان. وانتشرت عبادة أتارغاتس بين اليونان في العصر السلوقيّ، وبواسطتهم وصلت إلى روما حيث أقيم معبد باسمها. وتشاهَد في الآثار الرومانيّة جالسة على عرش بين أسدين وكان كهنتها عمومًا من الخصيان الذين اعتادوا القيام برحلات إلى اليونان وإيطاليا لنشر عبادتها بواسطة التنبّؤات والرقص الروحانيّ ولجمع التبرّعات من الأتقياء لأجل معبدها في هيرابوليس. وهناك نموذج غريب لأتارغاتس على النقود من هيرابوليس حيث تظهر محجّبة. ووُجدت صور أخرى كثيرة لها وهي محجّبة أيضًا. وتظهر رسوم نساء محجّبات بحجاب ثقيل على نقش من معبد بعل في تدمر وفي لوح منحوت من "دورا أوربس". وترينا بعض الآثار الأخرى الرأس محجّبة. ويبدو أنّ الحجاب كان في الشرق القديم رمز المرأة المتزوّجة ولباسها المفروض. وكان التشريع الأشوريّ من منتصف الألف الثاني ق.م يتطلّب من نساء الرجال الأحرار وبناتهم أن يغطّين رؤوسهنّ حين يخرجن إلى الشارع[1].

وكان لدى الآراميّين مجموعة آلهة عُلويّة على رأسها "إيل"، وأغلب الظنّ أنّ هذه المجموعة ذات مصدر كنعانيّ، فقد ظهر الإله "إيل" أو "إل" في البانثيون الآراميّ بعد أن اتّصلت الممالك الآراميّة الموجودة في الشام بشكل خاصّ مع الكنعانيّين الساكنين في مدن سواحل وداخل سورية القديمة. ويقع الإله "إيل" على قمّة هرم البانثيون الكنعانيّ "حيث أنّ الرأي السائد، يزعم أنّ فهم معنى الإسم فهمًا صحيحًا يساعد على

١ ـ حتّي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ١: ١٨٧ ـ ١٨٨.

فهم أصول المعتقدات الساميّة منذ نشوئها. وأكثر التغيّرات قبولاً هو أنّ اسم "إيل" مشتقّ من الجذر "أول"، ولا يخفى على الضالعين في اللغة أنّ كلمة "أول" تعني أشياء كثيرة من بينها الرئاسة والسيادة والسلطة، أيّ أنّ الأول في كلّ شيء يتميّز عمّا يليه في الرفعة والسموّ، ثمّ طرأت على الجذر الأجوف تغييرات وتحوّلات أدّت به إلى الشكل الذي هو عليه الآن"[1]. ولكنّ "إيل" لم يتمتّع بصفاته وقوّته التي كان عليها في البانثيون الكنعانيّ عندما دخل البانثيون الآراميّ، بل أصبح مجرّد إله كبير وظلّ ولاء الآراميّين الأكبر لإلههم القوميّ "حدد". ورغم ذلك فقد ظهر اسم الإله "إيل" في أسماء الآراميّين دلالة تعظيمهم له[2].

آلهة

مستَعارَة

وكانت مجموعة الآلهة الآراميّة تضمّ فيما سوى الزوج الإلهيّ حدد وأتارغاتس عددًا من الآلهة الأخرى ذات المكانة الثانويّة، بعضها محليّ والبعض الآخر مستعار من الأمم المجاورة. وكانت الإلهة "حدد" و"إيل" و"ركّاب إيل" و"شمش" و"رشوف" هي التي أعطت الملك "بنامو" الأول الصولجان في الكتابة الأثريّة التي تركها ومنحته الأشياء التي صلّى لأجلها. و"ركّاب" أو "سائق المركبات" هو إله مستورد إلى سورية مع إله الشمس الأشوريّ. و"شمش" الأشوريّ هو اسم إله الشمس الذي كان يُعبد في العالم الساميّ كلّه. و"رشوف" هو الإله الفينيقيّ "رشف" الذي كان كثيرًا ما يمثّل بشكل جنديّ مسلّح. وفي كتابة "زاكر" ملك حماة يرفع هذا الملك يدَيه لبعل شمين "سيّد السموات" ويقول: "كلّ من يمحو إسم زاكر ملك حماة ونقشًا من هذا النصب أو يخرّبه

---

١ ـ د. أنزارد وجماعته، قاموس الآلهة والأساطير، ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

٢ ـ الماجدي خزعل، المعتقدات الآراميّة، مرجع سابق، ص ٧٩.

من أمام إيل وير EL WER أو يزيله من مكانه أو يمدّ يده ضدّه... فإنّ بعل شمين وإيل وير وشمش وسهَر وآلهة السماء والأرض... ستهلكه". ويتّضح أنّ "بعل شمين" هو "حدد"، ولكنّ "إيل وير" لم تعرف بعد. و"سَهَر" هو إله القمر. وكانت حرّان مركز الإله القمر الذي يُسمّى "سين" عند الأشوريّين كما ذكرنا في موضعه. ويرد ذكر هذا الإله في حجر "تيماء"، الواحة في شمالي الحجاز، التي ترجع كتابتها إلى القرن الخامس قبل الميلاد باسم "شنغالا SHINGALGA"، وهو اسم أشوريّ مستورد معناه "سين العظيم". والإلهان الآخران المذكوران على هذا الحجر هما "سَلم" بمعنى "صورة وتمثال"، ويشير غالبًا إلى بعل محلّي، و"عاشرة"[1].

وقد ذكر باحثون[2] أنّ تحوّلاً واضحًا قد حصل في الديانة الآراميّة مع ظهور العصر الهيلّينستيّ في الشرق حوالى ٣٢٣ قبل الميلاد، بعد وفاة الإسكندر المقدونيّ. وكانت المعتقدات الآراميّة تقع ضمن نطاق الهيلّينستيّة السلوقيّة في أغلب أماكنها، باستثناء جوف سورية الذي وقع ضمن نطاق الهيلّينستيّة البطلميّة حتّى حوالى منتصف القرن الثاني قبل الميلاد. ونستطيع القول إنّ المعتقد الآراميّ استقبل شحنتَين جديدتَين دبّت شرارتهما في نسيجه، الأولى: شرقيّة فارسيّة عبّر عنها الدين الزرادشتيّ الذي كان قد استقرّ على فكرة وجود عالمَي النور والظلمة أو الخير والشرّ، والصراع الدائم بين إله الخير والنور "أهورا مزدا" مع إله الشرّ والظلمة "أهرمان"؛ والثانية: غربيّة يونانيّة جاءت معها بالبانثيون الإغريقيّ المعروف للآلهة التي يقع "زوس" على رأسها، وبالفلسفة التي مهّد لها أفلاطون بنزعته المثاليّة وإيمانه بالإله المطلق الفارق للعالم. وهكذا ظهر مناخ جديد أطلق عليه إسم المناخ "الهيلّينستيّ"، الذي كان في حقيقته مناخًا

---

١ ـ حتّي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ١: ١٨٨ ـ ١٨٩.

٢ ـ الماجدي خزعل، المعتقدات الآراميّة، مرجع سابق، ص ٩٣ ـ ٩٤.

عالميًّا لأنّه هضم الشرق والغرب معًا على أرض واحدة. وكان المعتقد الآراميّ في هذا المناخ يستقبل المتغيّرات الروحيّة الجديدة ويتفاعل معها. وقد مهّد هذا المناخ الهيلّينستيّ الروحيّ الثقافيّ الأرض لظهور التوحيد، وهو ما فُطر عليه المعتقد الآراميّ منذ بدايته، فهو لم يغيّر إلهه الواحد الأحد "حدد" رغم ظهور آلهة أخرى معه، إلاّ أنّ "حدد" كان هو المركز الذي تدور حوله هذه الآلهة، وحتّى عندما ظهرت منافسة قويّة من قِبَل الإله "بعل"، فإنّه عمل على الاتّحاد به، فانصهر الإلهان في إله واحد هو "بعل حدد" الذي هو حدد نفسه.

ويقول هؤلاء الباحثون إنّ النقطة المركزيّة هنا هي ما آلت إليه شخصيّة الإله الآراميّ الواحد "حدد" في هذا العصر الهيلّينستيّ، ولعلّ أهمّ مدينة يمكنها أن تخبرنا عن هذا الأمر هي مدينة "منبج" التي أسماها الإغريق هيرابوليس، والتي تقع شمال مدينة حلب على مسافة عشرين كيلومترًا إلى الغرب من نهر الفرات، وإلى الأسفل قليلاً من مدينة كركميش. ونلاحظ أنّ صفات كبير الآلهة الإغريقيّة "زوس" قد أُضيفت إلى الإله "حدد"، الذي يمكن أن نطلق عليه في هذه المرحلة "زوس حدد". فهو كبير الآلهة ويمتاز بثالوثه الشهير: "حدد، أترغاتيس، سيميوس". ولم تكن صفات الإله "زوس" غريبة عن الإله "حدد"، بل هي مطابقة له تقريبًا، فقد كان "زوس" إبن "كرونوس" ويقابلهما تمامًا في الميثولوجيا الكنعانيّة "بعل" إبن "إيل"، ولا يساورنا أيّ شكّ في أنّ مصدرهما كان كنعانيًّا في أصوله. ولذلك فإنّ "زوس" عندما جاء ليطابق "حدد"، كان "بعل" قبله قد مهّد الطريق أكثر في شخصيّة "بعل حدد"، وهكذا لم تختلف شخصيّة "زوس حدد" الهيلّينستيّة عن شخصيّة "بعل حدد" الفينيقيّة التي هي امتداد للشخصيّة الآراميّة الأصل: "حدد". وإذا كانت رفيقة الإله القديم "حدد" في زمن الأشوريّن قد ظهرت على هامشه في شخصيّة عشتاريّة هي "عتر"، فإنّ هذه الشخصيّة

ذابت وذوت خلال ما يقرب الألف سنة ولم تأخذ دورًا مهمًّا مع استثناءات قليلة كما حصل في مدينة حلب حين ظهرت شخصيّة "بعلاتي" أو "بخلاتي" رفيقة "بعل حدد"، وهي مؤثَّرات فينيقيّة واضحة. لكنّ شخصيّة "عتر" القديمة بُعثت في العصر الهيلّينستيّ في إلهة جديدة سُمّيت بالتصويت اليونانيّ "أتارغاتس" أو "دركتو"، وفي التصويت الآرامي "عطر غاطس"، وفي العصر الرومانيّ سُمّيت "الإلهة السوريّة". وكان اسمها السريانيّ مركّبًا من إلهتَين عراقيّتَين قديمتَين. الأولى، أكديّة وهي "عشتار"، والثانية سومريّة وهي "إنانا" أو "عنانا"، وهي أصل عناة الكنعانيّة. ويرجّح الباحث أنّ مرجعه يعود إلى "عتر" و"غات"، أي "عشتار القويّة". وكانت هذه الإلهة تتمتّع بشعبيّة كبيرة في بلاد الشام، وخاصّة في دمشق وعسقلان ومنبج ودوليخ ودورا وبامبيكة وتدمر وغيرها. وكان لها العديد من الرموز منها السنبلة والسمكة وعلامة البناء والعجلة والأسد ... وغيرها. فقد كانت السنبلة رمز الزراعة والخصب والمحصول الوافر، أمّا السمكة فترمز إلى المياه والتكاثر والملاحة البحريّة، وكانت العجلة ترمز إلى السفر ودقّة السفينة. وكان الـ"زودياك" أي "دائرة البروج" دلالة على الحظّ وقدرة الآلهة على التحكّم بالأقدار والمصائر، إذ كانت تظهر أحيانًا وهي تحمله على رأسها... وقد تطابقت هذه الصفة مع الإلهة الإغريقيّة "تايكي" إلهة الحظّ. أمّا الأسد فهو رمز عشتاريّ يذكّر بالانتصار الذكوريّ على الثور الذي هو رمز الأنثى وهو رمز القوّة والبطش. ورافق الإلهة أتارغاتس قرن الرخاء المعروف الذي كان يُملأ عادة بالفواكه وهو من رموز تايكي أيضًا.

أمّا الإله الشاب "سيّوس"، وهو ثالث أقانيم "حدد" الهيلّينستيّ، فقد "كانت تتمّ عبادته، إلى جانب عبادة حدد وأتركاتيسفي في مدينة هيرابوليس، بحيث يكتمل الثالوث الإلهيّ، والإله سيميوس هو امتداد للإله "أسكلبوس" الوارد في نقش لـ"دولوس" قريب الشبه

بالإله الفينيقيّ "أشمون"[1]. وعندما كان يُنظر إلى الثالوث الآراميّ الهيلّينستيّ على أنّه ثالوث كوكبيّ، كما في مدينة بعلبك، كان الإله "حدد" يمثّل الشمس، و"أتارغاتس" تمثّل كوكب الزهرة، أمّا "سيميوس" فكان يمثّل عطارد. ويشير لنا تراث ذلك الزمان إلى أنّ شخصيّة الإله "سيميوس" كانت مزدوجة الجنس، ويُشار إليها بشكل ذكوريّ على أنّها "سيميون" أو "سيمون" الذي كان إله البحر بحقّ، وليس "سيميوس". وكان الاحتفال به يجري مرتَين في السنة على شكل "موكب سيميون"، حيث تُجلب فيه مياه من البحر، وتُسكب في شقّ تحت المعبد "ويُعتقد أنّ المقصود أنّ هذا الطقس هو إحياء ذكرى الطوفان في النفوس لكي لا تمحوه الأيّام، كما يفسَّر بأنّه عمليّة استسقاء لتنزل الأمطار بواسطة السحر والشعوذة، أو أنّ الغاية منه أن تتمّ المصالحة بين الآلهة الأرضيّة المتخاصمة في ما بينها، وقد يرمز موكب الاحتفال المتّجه إلى بحيرة الأسماك المقدّسة، إلى طقوس الاغتسال المقدّس"[2].

وكانت احتفالات هذا الإله، والربيعيّة منها بشكل خاصّ، تمتاز بإشعال النيران ورفع المشاعل بحضور عدد كبير من الحجّاج والمحتفلين الذي يقومون بإحراق الأشجار المزدانة بأنواع الأضاحي والهدايا، وكان الانفعال الاحتفاليّ لكهّان الـ"جالا" يصل حدّ الهوس، فيخصون أنفسهم ويرتدون ثياب النساء وحُليهنّ، وهذا يعني الانتقال من الذكورة إلى الأنوثة، وهو ما تفصح عنه طبيعة هذا الإله المزدوجة الجنس. أمّا الوجه الأنثويّ للإله "سيميوس" فكان يتجسّد في الإلهة "سميرنا" التي كانت تسمّى أيضًا

---

١ ـ الماجدي خزعل، المعتقدات الآراميّة، مرجع سابق، ص ٩٥ ـ ٩٦؛ راجع: دوبون، سومر، الاراميّون، تعريب ناظم الجندي، مراجعة وتقديم د. توفيق سليمان، منشورات دار أماني للطباعة والنشر والتوزيع، (طرسوس،١٩٨٨) ص ١٧٦.

٢ ـ الماجدي خزعل، المعتقدات الآراميّة، مرجع سابق، ص ٩٦ ـ ٩٧؛ راجع: د. أذزارد وجماعته، قاموس الآلهة والأساطير، ص ١٦١.

"شميرام" وتعني "إلهة الحمام" أو "محبوبة الحمام"، لأنّ الحمامة كانت رمزًا لها، وقد وُصفت بالقوّة والشبق، وكانت تحمل وجهًا ذكوريًا[1].

التوحيد

كانت النزعة التوحيدية كامنةً في الدين الآراميّ في صيغة الإله "إيل"، وكانت جميع الأقوام الساميّة التي تعبد الإله العالميّ الأوحد "إيل" بالإضافة إلى إلهها القوميّ. ولا شكّ في أنّ الإله "إيل" الذي أصبح رديفًا لـ"الله" عند العرب كان مستمدًا من الإله السومريّ "آن"، ذلك أنّ الالهَين معًا كانا يُرمز لهما بإشارة الـ "دنكَر" الكتابيّة التي تشير إلى الجهات الثمانية ، وكأنّها تشير إلى الكون كلّه، وكذلك تدلّ على الأعالي والسماء والنجوم. وقد ظهرت هذه العلامة باكرًا في الحضارة العبيديّة في الألف الرابع قبل الميلاد في "تبة كَاورا". وبذلك تكون نزعة التوحيد قد عبّرت عن نفسها بهذه الصيغة التي ظلّت تلازم الساميّين، من بعد السومريّين، حيث كانت جميع الديانات الساميّة القديمة تحمل التوحيد في صيغة الإله "إيل"، وهو إله عظيم متعالٍ كبير قصيّ، وتحمل التفريد في صيغة الإله القوميّ لها وهو الإله البطل المركزيّ الذي يعينها في الأزمات والحروب وكانت تحمل الشرك أو التعدّد في صيغة الآلهة الكثيرة التي تعبّر عن ظواهر الطبيعة وعن حاجات الحياة[2].

هذه النزعة التوحيديّة عند الآراميّين هي التي مهّدت الطريق للانتشار الواسع للمسيحيّة في بلاد آرام، ومنذ ذلك الحين أخذ إسم الآراميّين بالتحوّل إلى "السريان"، وذلك لأنّ اسمهم الآراميّ كان يذكّرهم بوثنيّتهم.

---

١ ـ الماجدي خزعل، المعتقدات الآراميّة، مرجع سابق، ص ٩٧.

٢ ـ الماجدي، الدين السومريّ، ص٤٥.


Bibliotheca Alexandrina
05864665